

1-20-51

وَبَارِكْ وَسَلِّمْ عَلَى رُسُلِهِمُ الْكَرِيمِ

[illegible]

١١٥ فصل واسم الامانة والابطال

١١٥ فصل ومن مل حكمة الرب تعالى

اخلاص المؤمنين

١١٦ فصل ونحن نذكر في هذا الفصل

سبل الافسان الخ

١١٨ فصل ثم لا اراد الله

١١٨ فصل فان كان قد اقصى

ان يراد الخ

١٢٠ فصل وروى في بعض الاطباء

١٢٣ فصل واما في هذه الاصل

١٢٣ فصل فان في هذا الاصل

١١٥ فصل وان في هذا الاصل

ما بين

١٢٧ فصل وفي هذا الاصل

١٢٦ فصل فان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١١٥ فصل واسم الامانة والابطال

١١٥ فصل ومن مل حكمة الرب تعالى

١١٦ فصل ونحن نذكر في هذا الفصل

١١٨ فصل ثم لا اراد الله

١١٨ فصل فان كان قد اقصى

١٢٠ فصل وروى في بعض الاطباء

١٢٣ فصل واما في هذه الاصل

١٢٣ فصل فان في هذا الاصل

١١٥ فصل وان في هذا الاصل

١٢٧ فصل وفي هذا الاصل

١٢٦ فصل فان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

١٢٦ فصل وان في هذا الاصل

في الدنيا اذ يرون العذاب في الآخرة والجواب محذوف ثم قال ان القوة لله جميع كما قال تعالى ولو ترى اذ هم هواء فلافوت ولو ترى اذ يتوهى الدين كفروا الملائكة اي لو ترى ذلك الوقت وما فيه واما القسم فان الملائكة يعلمون على الشيء ثم يكرر القسم فلا يعيد لتسم عليه لانه قد عرف ما يخلف عليه فيقول والله ان لي عليه الف درهم ثم يقول ورب السماء والارض والذي نفسي بيده وحق القرآن العظيم ولا يعيد القسم عليه لانه قد عرف المراد والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر مصارعه لم يسم بمحذوف ويكتفي بالبهاء ثم عوض من البهاء الواو وفي الاسماء الظاهرة وباءه في اسماء الله كقوله وتالله لا يكونن اصنامكم وقد نقل رب الكعبة واما الواو فكثيرة

في اصله اذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على اصول الايمان التي يجب على الخلق معرفتها فارة يقسم على التوحيد وتارة يقسم على ان القرآن حق وتارة على ان الرسول حق وتارة على الجزاء والوعد والوعيد وتارة على حال الانسان فالاول كقوله والصفات صفا الى قوله ان الحكم لواحد والثاني كقوله فلا أقسم بمواقع الخيوم الى قوله كرم وقوله حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة وانا جملناه قرآنا نصريسا اذا جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر وان قيل بل الجواب محذوف كان كقوله ص والقرآن الذي اذكر فانه هنا حذف الجواب ومن قال ان الجواب هو قوله ان ذلك لخلق نخصم أهل النار فقد ابعد النجعة والقسم على الرسول كقوله يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم اذا قيل هو الجواب وار قيل الجواب محذوف كان كما ذكر ومنه ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون وار لك لاجرا غير ممنون ومنه وانجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى الى آخر القصة ومنه قوله فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كرم وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون الى قوله ذي قوة عند ذي العرش مكين واما لقسم على الجزاء والوعد والوعيد في مثل قوله والذاريات ذروا الى قوله انما نؤعدون لصادق وان الدين اوانع ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار وذكر ارفى السماء رزقهم وما يوعدون ثم قال فو رب السماء والارض انه لخلق مثل ما اُنتم تنطقون ومثل قوله والمرسلات عرفنا الى قوله غمنا ووعدون اوقع ومثل الطور والكتاب مسطور الى قوله ماله من داع وقد امر نبيه ان يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات فقال تعالى زعم الذين كفروا الى قوله اتبعني وقال تعالى وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لنا نفيكم وقال تعالى ويستغيثونك احق هو قل اي وربي انه لخلق وما اُنتم بمجزيين وهذا لان المعاد انما يعلمه عامة الناس بأخبار الانبياء وان كان من الناس من قد يعلمه بالنظر وقد تنازع الظاهر في ذلك فقالت طائفة انه لا يمكن علمه الا بالسمع وهو الخبر وهو قول من لا يرى تعليل الاعمال ويقولون لا ندرى ما يفعل الله الابادة اُر خبر كما يقول جهم ومن اتبعه والاشعري واتباعه وغير من أهل الكلام في القدر والحديث من اتباع لائمة الاربعة بخلاف العلم ما نافع فان الساس متفقون على انه لا يعلم بالعقل وان كان ذلك مما نهت لرسول عليه وصفاه قد تعلم العقل وتعلم بالسمع ايضا كما قد بسط في موضع آخر واما لقسم على احوال الانسان كقوله

والليل اذ يغشى والنهار اذ انجلي الى قوله ان معكم لشيء الآية ولفظ السعي هو العمل لكن يراد به العمل الذي بهم به صاحبه ويجهده فيه بحسب الامكان فان كان يفتقر الى عدو بدنه عددا وان كان يفتقر الى جمع عدوانه جمع وان كان يفتقر الى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك فلنظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار ليس هو مرادا قاله لفظه طائفة بل هو عمل مخصوص بهم به صاحبه ويجهده فيه ولهذا قال في الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وهذه احسن من قراءة من قرأ فامضوا الى ذكر الله وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا اقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها مشون وعليكم بالسكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتوا فلم ينه عن السعي الى الصلاة فان الله أمر بالسعي اليها بل نهاهم أن يأثروا اليها يسعون فيها من الاثيان المنتصف بسعي صاحبه والاثنان فعل البدن وسعيه عدو البدن وهو منهى عنه وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب اليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الاعمال الشاغلة من بيع وغيره والاقبال بالقلب على السعي اليها وكذلك قوله في قصة فرعون لما قاله موسى هل لك لي أن تزكي الى قوله ثم أدبر سعي فمكشر فنادى هذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداه فيههم وكذلك قوله واذنولي سعي في الارض ليفسد فيها هو عمل بهمة واجتهاد ومنه سعى الساعي على الصدقة والساعي على الامة واليتم ومنه قوله ان معكم لشيء وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ليرتب عليه ثواب أو عقاب بخلاف المباحات المعتادة فانها لم تدخل في هذا السعي قال تعالى فامان أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأمان بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره لليسرى ومنه قوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وقوله انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا

فصل في أقسام على صفة الانسان بقوله والسادات ضحا الى قوله ان الانسان لربه لكنود وأقسم على طائفة وهو قسم على الجزاء في قوله والعصر الى قوله ونواصوا بالصبر وفي قوله والتين والزيتون وطور سينين الى قوله لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وحذف جواب القسم لانه قد علم بأنه يقسم على هذه الامور وهي متلازمة فغنى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت أن الوعد والوعد الحق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت أن الوعد والوعد الحق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به والجواب يحذف نارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم به وانه مما يحلف به كقول النبي صلى الله عليه وسلم من كان حالفا فلحلف بالله أو ليصمت ولكن هذا يذكر معه الفعل دون مجرد حرف القسم كقولك فلان يحلف بالله وحده وأنا أحلف بالخالف لا بالخلق ونحو ذلك والنصراني يحلف بالصليب والمسيح فلان أكذب ما يكون اذا حلف بالله وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا كما في الحديث كانت أكثر عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم لا مقلب القلوب وكان بعض السلف اذا اجتهد في عيئه قال والله الذي لا اله الا هو ونارة يحذف الجواب وهو مراد اما لكونه قد ظهر وعرف اما بدلالة الحال

كن قيل له كل فتة لا والله الذي لا اله الا هو او بدلالة السباق واكثر ما يكون هذا اذا كان
 في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه وهي طريقة القرآن فان المقصود يحصل بذلك المقسم
 به فيكون حذف المقسم عليه ابلغ وأوضح كن اراد أن يقسم على أن الرسول حق ومقال
 والذي أرسل محمد بالهدى ودين الحق وأبدى بالآيات البينات وأظهر دعوته وأعلى كلمته
 ونحو ذلك فلا يحتاج الى ذكر الجواب استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه كن
 اراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ونعوت جلاله فقال والله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الاول الآخر الظاهر الباطن وكن اراد أن يقسم على
 علوه فوق عرشه فقال والذي استوى على عرشه فوق سمواته يصعد اليه الكلم الطيب وترفع اليه
 الابدى وتخرج الملائكة والروح اليه ونحو ذلك وكذلك من حلف لشخص انه يحبه ويعظمه
 فقال والذي ملا قلبي من محبتك واجلالك وهمايتك ونظارتك ذلك لم يخرج الى جواب المقسم
 وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه فن هذا قوله تعالى ص والقرآن ذي الذكر فان
 في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون
 اليه وللشرف والقدرة ما يدل على المقسم عليه وكونه حقاً من عند الله غير مفترى كما بقوله الكافرون
 وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم ان الجواب محذوف تقديره ان القرآن
 لحق وهذا مطرد في كل ما شابه ذلك واما قول بعضهم ان الجواب قوله تعالى كم اهلكنا
 من قبلهم من قرن فاعترض بين القسم وجوابه بقوله بل الذين كفروا في عزة وشقاق فبعد
 لان كم لا يتلقى بها القسم لانقول والله كم انفتت مالا وبالله كم اعتقت عبداً وهو لا ملأ لم ينف
 عليهم ذلك احتاجوا ان يقدر واما يتلقى بها الجواب اى لكم اهلكنا وابعدهم هذا قول
 من قال الجواب في قوله ان كل الاكذب أرسل وابعدهم منه قول من قال الجواب ان هذا رزقنا
 ماله من نفاد وابعدهم منه قول من قال الجواب قوله ان ذلك لحق نخصم اهل النار واقرب
 ما قيل في الجواب لفظاً وان كان بعيداً معنى ما ذكر عن قتادة وغيره ان في قوله بل الذين كفروا
 كما قال في القرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم وشرح صاحب الظم هذا القول
 فقال معنى بل توكيد الخبر الذي بعد انصار كان الشديدة في تثبيت ما بعدها قبل ههنا بمنزلة
 ان لانه يؤكد ما بعده من الخبر وان كان له معنى سواء في نفي خبر متقدم فكأنه عز وجل قال
 ص والقرآن ذي الذكر ان الذين كفروا في عزة وشقاق كما تقول والله ان زيدا لقاسم قالوا اخرج
 صاحب هذا القول بأن هذا الظم وان لم يكن للعربية فيه أصل ولا لها فيه رسم فيصنع ان
 يكون نظماً أحدهم الله عز وجل لما بينا من احتمال بل بمعنى ان انتهى وقال أبو القاسم الزجاجي
 قال الصويون ان بل تقع في جواب القسم كما تقع ان لان المراد بها نوكيد الخبر وهذا القول
 اختيار أبي حاتم وحكاية الاخفش عن الكوفيين وقرره بعضهم بأن قال أصل الكلام بل الذين
 كفروا في عزة وشقاق والقرآن ذي الذكر فلما قدم القسم ترك على حاله قال الاخفش وهذا
 بقوله الكوفيون وايسر يجيد في العربية لو قلت والله قام وانت تريد قام والله لم يحسن وقال
 النحاس هذا خطأ على مذهب الصويين لانه اذا ابتداء بالقسم وكان الكلام معقداً عليه
 لم يكن بد من الجواب وأجمعوا انه لا يجوز والله قام عمرو بمعنى قام عمرو والله لان الكلام

يعتمد على القسم وذكر الاخفش وجها آخر في جواب القسم فقال يجوز ان يكون اقصا
 معنى يقع عليه القسم لا ندرى نحن ما هو كأنه يقول الحق والله قال أبو الحسن الواحدى وهذا
 الذى قاله الاخفش صحيح المعنى على قول من يقول ص الصادق الله أو صدق محمد وذكر
 الفراء هذا الوجه أيضا فقال ص جواب القسم وقال هو كقولك وجب والله وترك والله
 فهى جواب لقوله والقرآن وذكر الخامس وغيره وجها آخر في الجواب وهو انه محذوف
 تقديره والقرآن ذى الذ كر فالامر كما بقوله هؤلاء الكفار ودل على المحذوف قوله تعالى
 بل الذين كفروا وهذا اختيار بن جرير وهو مخرج من قول قتادة وشرحه الجرجاني فقال
 بل رافع خبر قبله ومثبت خبر بعده فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله وما بعده دليل على ما قبله
 فظاهر يدل على الباطر فاذا كان كذلك وجب أن يكون قوله بل الذين كفروا في عزه وشفاق
 مخالف لهذا الضمير فكأنه قيل والقرآن ذى الذ كر ان الذين كفروا بزعم انهم على الحق أو
 كل ما في هذا المعنى فهذه ستة أوجه سوى ما بدت بناه في جواب القسم والله أعلم ونظير هذا قوله
 تعالى والقرآن المجيد بل محبوبا وقيل جواب القسم قد علمنا وقال الفراء محذوف دل عليه
 قوله اذ امتنا أى اتبعنا وقبل هو بل محبوبا كما تقدم به

فصل في ذلك قوله لا أقسم يوم القيمة ولا قسم بالنفس اللوامة فقد تضمن هذا الاقسام
 ثبوت الجزاء ومستحق الجزاء وذلك يتضمن اثبات الرسالة والقرآن والمعاد وهو سبحانه يقسم
 على هذه الامور الثلاثة ويقررها ابان لتقرير لحاجة النفوس الى معرفتها والايان بها
 وامر رسوله ان يقسم عليها كما قال تعالى ويستنبئونك احق هو قل اى وربي انه الحق وقال تعالى
 وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لنا ينضحكم وقال تعالى زعم الذين كفروا ان لن
 يبعثوا قل بلى وربي لبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير فهذه ثلاثة مواضع لاربع لها
 يأمر نبيه ان يقسم على ما أنعم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد فاقسم سبحانه
 لعباده وامر اصدق خلفه ان يقسم لهم واقام الابرار القاطنين على ثبوت ما أقسم عليه فابى
 الظالمون الاجحودا وتكذيبا واختلف في النفس المقسم بها ههنا هل هى خاصة أو عامة
 على قولين بناء على الاقوال الثلاثة في اللوامة فقال ابن عباس كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة
 يلوم المحسن نفسه ان لا يكون ازداد احسانا ويلوم المسيء نفسه ان لا يكون رجع عن اسائه
 واختاره الفراء قال ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهى تلوم نفسها ان كانت عملت خيرا
 قالت هلا زددت خيرا وان كانت عملت سوء قالت يا ليتنى لم أفعل والقول الثانى انها
 خاصة قال الحسن هى النفس المؤمنة وان المؤمن والله لا تراه الا يلوم نفسه على كل حال لانه
 يستقصرها على كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه وابن الفجار يعصى قدما لا يعاتب نفسه والقول
 الثالث انها النفس الكافرة وحدها قاله قتادة ومقاتل وهى النفس الكافرة تلوم نفسها
 في الآخرة على ما فرطت في امر الله قال شيخنا والاظهر ان المراد تقبيل الانسان مطلقا فان نفس
 كل انسان لوامة كما أقسم بحسن النفس في قوله ونفس وما سواها فاللهما فجورها وتقواها
 فانه لا بد لكل انسان ان يلوم نفسه أو غيره على امر ثم هذا اللوم قد يكون محمودا وقد يكون
 مذموما كما قال تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين قال تعالى

بجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فهذا اليوم غير محمود وفي الصحيحين في قصة
 احتجاج آدم وموسى ائلاهمنى على امر قدره الله على قبل ان اخلق فخرج آدم موسى فهو
 سبحانه يسم على صفة النفس الواهمة كقوله ان الانسان لربه لكنود وعلى جزائها كقوله
 فوربك لننسئنه اجمعين وعلى تبائن عملها كقوله ان هيكم اشتى وكل نفس لواهمة فالنفس
 السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير فتبادر الى التوبة والنفس الشقية بالضد من ذلك
 وجع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب وهو النفس الواهمة وبه
 سبحانه يكونها لواهمة على شدة حاجتها وفاقته وضرورتها الى من يعرفها الخير والشر
 ويدلها عليه ويرشدها اليه ويلهمها اياه فيجعل امر بدة للخير مرشدة له كارهة للشر مجتنبه
 لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه ولائها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة فهي
 محتاجة الى من يعرفها ما هو انفع لها في معاشها ومعادها يؤثره وتلوم نفسها عليه اذا فاتها فتوب
 منه ان كانت سعيدة وتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوما بحق قد
 اعذر الله خالقها واطرها اليها فيه في صفة اللوم تنبيه على ضرورتها الى التصديق
 بالرسالة والقرآن وانه الاغنى لها عن ذلك ولاصلاح ولاصلاح بدونه آتية ولما كان يوم معادها
 هو محل ظهور هذا اليوم وترتب اثره عليه قرن بينهما في الذكر

فصل في ذلك قوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها
 الى قوله فاطمها فجورها وتقوا قال الزجاج وغيره جواب القسم قد افلح من زكاه ولما
 طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب وقد تضمن هذا القسم الاقسام بالخلق والمخلوق
 فاقسم بالسماء وبانيها والارض وطايعها والنفس ومسويها وقد قيل ان ما مصدريه فيكون
 الاقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد اقسام بالمصنوع الدال عليه وبصنعه الدالة على كمال علمه
 وقدرته وحكمته ونوحيدته ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار امرا يشهد الناس
 حدوثه شيئا مشيئا ويعلمون ان الحوادث لا بد له من محدث كان العالم بذلك منزلا منزلة ذكر المحدث
 له لمظا فلما يذكر الفاعل في الاقسام الاربعة ولهذا سلك طائفة من النظار الاستدلال
 بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع كقوله ان في خلق
 السموات والارض لايات لاولى الاسباب ولما كانت السماء والارض ثابتين حتى ظن من
 ظن انهما قد يتساخنا ذكر مع الاقسام بهما بانبيهما ومبدعهما وكذلك النفس فان حدوثها غير
 مشهور حتى ظن بعضهم قد علمها مذكر مع الاقسام بهما مسويها واطرها هنا مع ما في ذكر بناء
 السماء وطموح الارض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق فان
 بناء السماء يدل انها كالقبة العالية على الارض وجعلها سقفا لهذا العالم والطمح هو مد
 الارض وبسطها ونوسيعها ليستقر عليها الا نام والحيوان ويمكن فيها البناء والفراس
 والزرع وهو متضمن لنضوب الماء عنها وهو مما حير عقول الطبائعين حيث كان
 مقتضى الطبيعة ان يغمرها كثرة الماء فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة
 وكونه هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل الكروي يقتضي تخصيصا
 فلم يجدوا بدا بان يقولوا عناية الصانع اقتضت ذلك فلناظم اذا ولكن عناية من لا مشيئة له

ولا ارادة ولا اختيار ولا علم به من أصلا كما نقولونه فيه محال منانيته فنقضي ثبوت صفات
كأله ونعمت جلاله وأنه القهار بفعل باختياره ما يريد ، وكذلك النفس أقسم بها وبين سواها
واللهما فجورها وتقواها فان من الناس من يقول قديمة لا مبدع لها ومنهم من يقول بل هي
التي تبتدع فجورها وتقواها فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها وأنه هو الذي
اللهما العجور والتقوى فاعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها وذكرنا لفظ التسوية كما ذكره في
قوله ما عرك ربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك وفي قوله فإذ اسويته ونفخت فيه
من روحي ايذانا بدخول البدن في لفظ النفس كقوله وهو الذي خلقكم من نفس واحدة
وقوله فسلوا على أنفسكم ولا تقنلوا أنفسكم وأولوا اذ سمعتموه عن المؤمنين والمؤمنات
بأنفسهم خيرا ونظائر وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية والأفلاوح
بدون البدن لا فجور لها وقوله قد أفلح من زكاها الضمير مرفوع في زكاها حادثة على من وكذلك
هو في دساها والمعنى قد أفلح من زكا نفسه وقد خاب من دساها هذا هو القول الصحيح وهو نظير
قوله قد أفلح من تزكى وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح حلقه بفعل المالح كقوله قد أفلح المؤمنون
الذين هم في صلاتهم خاشعون إلى آخر الآيات وقوله الذين يؤمنون بالغيب وبقبحون الصلاة
وعمارز قنهم ينفعون إلى قوله أولئك هم الفالحون وقوله إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا
إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم الفالحون ونظائر قال
الحسن قد أفلح من زكا نفسه وحلها على طاعة الله وقد خاب من أهلكها وحلها على معصية
الله وقاله قتادة وقال ابن قتيبة تبريد أفلح من زكا نفسه أي غناها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة
واصطناع المعروف وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي
والفسا جربا أخفى المكان من المروءة فاض الشخص ناكس الرأس فكان النصف باره كتاب
الفواحي دس نفسه وقهها ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت أجواب القرآن
تنزل الربى وبفاح الأرض لتشرأف نفسها للمعتفين وتوقد النيران في الليل للطارقين وكانت اللثام
تنزل الأولاج والأطراف والاهضام تخفى اما كنهها على الطالبين وأولئك أعلوا أنفسهم
وزكوها وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها وأنسد

وبوئت بينك في معلوم * رحيب المباحات والممرح

كفيت العفة طلاب القرا * ونج الكلاب المستنج

وقال أبو العباس سألت ابن الأعرابي عن قوله وقد خاب من دساها فقال دس معناه دس نفسه
مع الصالحين وليس منهم وعلى هذا فالعنى أخفى نفسه في الصالحين يرى الناس أنه منهم وهو
منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون وقال طائفة أخرى الضمير يرجع إلى الله سبحانه
قال ابن عباس في رواية عطاء قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها وهذا قول مجاهد وعكرمة
والكلبي وسعيد ابن جبير ومقاتل قالوا أعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها
ووقفها لطاعة حتى علمت بها وخابت وخسرت نفس أصلحها الله وأطهرها وأبطلها
وأهلكها قال أرباب هذا القول قد أتم الله به هذه الأشياء التي ذكرها لأنه أتدل على وحدانيته
وعلى فلاح من طهره وخساره من خذله حتى لا يظن أحدا أنه هو الذي يتول تطهير نفسه

واهلا كها بالمعصية من غير قدر سابق وقضاء متقدم قالوا وهذا أبليغ في التوحيد الذي سبقت
له هذه السورة قالوا ويدل عليه قوله فآلهمها فجورها وتقواها قالوا ويشهد له حديث نافع
عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو يقول رب أعط نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها
ومولاها قالوا فهذا الدعاء هو تأويل الآية بدليل الحديث الآخر ان النبي صلى الله عليه وسلم
كان اذا قرأ فدا فليح من زكاها وقف ثم قال اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وزكها
أنت خير من زكاها قالوا وفي هذا ما يبين ان الامر كله له سبحانه فانه هو خالق النفس وملهمها
التجور والتقوى وهو من زكها ومدسيها فليس للعبد في الامر شيء ولا هو مالك من امر
نفسه شيئا قال ارباب القول الاول هذا القول وان كان جائزا في العربية حاملا للضمير المنصوب
على معنى من وان كان لفظها مذكرا كما في قوله ومنهم من يستمعون اليك جمع الضمير وان كان
لفظ من مفردا جلا على نظمها فهذا انما يحسن حيث لا يقع ابس في مفسر الضمائر وههنا قد تقدم
لفظ من والضمير المرفوع في زكها يستحقه لفظا ومعنى فهو أولى به ثم يعود الضمير
المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظا ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق
الكلام ووضعها وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله وما سواها واو اخل
جاءه الملاصق له وهو من ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ولفظه مذ كردون
النفس المؤنثة فهذا يجوز اوليكن للكلام يحمل غيره أحسن منه لما اذا كان سياق الكلام
ونظمه يقتضى خلافه ولم تدع الضرورة اليه فالجمل عليه ممنوع قالوا والقول الذي ذكرناه أرجح
من جهة المعنى لوجوه أحدها ان فيه اشارة الى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد
واختباره كما هي طريقة القرآن الثاني أن فيه زيادة فائدة وهي اثبات فعل العبد وكسبه وما يشاب
وعليه عليه في قوله فآلهمها فجورها وتقواها أثبات القضاء والقدر السابق فتضمنت
الآيتان هذين الاصلين العظيمين وهما كثير اما بقتران في القرآن كقوله ان هذه نذرة
فمن شاء ذكره وما يدكرهون الآن يشاء الله وقوله لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون الآن يشاء الله
رب العالمين فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية الثالث ان قولنا يستلزم قولكم
دون العكس فان العبد اذا زكى نفسه ودساها فآلها يزكها بعد تزكية الله لها بتوفيقه
وامانته وانما يدسيها بعد تدسية الله لها بمخلدائه والتخليه بينه وبين نفسه بخلاف ما اذا كان
المعنى على القدر السابق المحض لم يبق لكسب وفعل العبد ههنا ذكر اثباته

فصل في ذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الامم المكذبة فقال سبحانه هذا والله
أعلم من باب التنبيه بالآتي على الاعلى فانه لم يكن في الامم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم
اذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم ولهذا لما ذكرهم وطادا
قال فاما عاد فاتكبروا في الارض بغير الحق وقالوا ومن أشد منا قوة ولم يروا ان الله الذي خلقهم
هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يمجدون واماثود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وكذلك
اذ ذكروهم مع الامم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن اولئك من التجبر والتكبر والانشغال
السئية كالأوط وبخس الكيال والميران والفساد في الارض كما في سورة هود والشعراء

او غيرهما فكان في قوم لوط مع الشرك اتيان الفاحشة التي لم يسبقوا اليها وفي قوم عاد مع الشرك الجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش وقولهم من اشدنا قوة وفي اصحاب مدين مع الشرك الظلم في الاموال وفي قوم فرعون مع الشرك الفساد في الارض والعلو وكان عذاب كل امة بحسب ذنوبهم وجسرائتهم فعذب قوم عاد الريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء وعذب قوم لوط باتواع العذاب لم يعذب بها امة غيرهم فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالجحارة من السماء وطمس الابصار وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها والخسف بهم الى اسفل سافلين وعذب قوم شعيب بالنار التي احرقتهم واحترقت تلك الاموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان واما ثود فاعلم كوا بالصحة فانوافي الحال فاذا كان عذاب هؤلاء وذنوبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم فمن انهلك محارم الله واستخف باوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان اشد عذابا ومن اعتبر احوال العالم قديما وحديثا وما يعاقب به من سعى في الارض الفساد وسفك الدماء بغير حق واقام الفتن واستهان بحرمات الله علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون قلت وقد يظهر في تخصيص ثودهننا بالذكر دون غيرهم معنى آخر وهو انهم ردوا الهدى بعدما يتقوه وكانوا مستبصرين به وقد تلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم فاختراروا عليه العمى والضلالة كما قال تعالى في وصفهم واما ثود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقال وآينا ثودا لثافة مبصرة أى موجبة لهم التبصرة واليقين وان كان جميع الامم المهلكة هذا شأنهم فان الله لم يهلك امة الا بعد قيام الحجلة عليها لكن خصت ثود من ذلك الهدى والبصيرة بزيادة لهذا لما قرنتهم بقوم عاد قال فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة ثم قال فاما ثود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ولهذا أمكن عاد المكابرة وان يقولوا للبيهم ما جئتنا ببينة ولم يكن ذلك ثود وقد راوا البينة عيانا وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر فردوا الهدى بعد يقينه والبصيرة التامة فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه وهذا داء أكثر الهالكين وهو اعم الادواء واغلبها على أهل الارض والله اعلم

فصل في ومن ذلك قوله تعالى والتجر وليال عشر والشفق والوتر والليل اذا سر هل في ذلك قسم اذى بحر قبل جوابه ان ربك لبارئ صادر وهذا ضعيف لوجهين أحدهما طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه يحمل كثيرة والثاني قوله ان ربك لبارئ صادر ذكر تقرير عقوبة الله الامم المذكورة وهي عاد وثود وفرعون فذكر عقوبتهم ثم قال مقرر او محذرا ان ربك لبارئ صادر فلا ترى تعلقه بذلك دون القسم واحسن من هذا أن يقال ان العجر في اليلالى العشر زمن يتضمن افهالا معظمة من المناسك وأمكنة معظمة وهي محلها وذلك من شعائر الله المتضمنة خضوع العبد لربه فان الحج والنسك عبودية محضة لله وذلو وخضوع لعظمته وذلك ضد ما وصف به عاد وثودا وفرعون من العنوت والتكبر والجبر فان النسك يتضمن غاية الخضوع لله وهؤلاء الامم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم وفي صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ايام العمل الصالح فيهن أحب الى الله من

هذه الايام العشر قبل يارسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله الا رجل
خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشئ فالزمان المتضمن لمثل هذه الاعمال اهل ان يقسم
الرب عز وجل به والفجر ان اريد به جنس الفجر كما هو ظاهرا للفظ فانه يتضمن وقت صلاة الصبح
التي هي اول الصلوات فافتتح القسم بما يتضمن اول الصلوات وختمه بقوله والليل اذا يسر
المتضمن لآخر الصلوات وان اريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته التي
هي ليلة عرفة فتلك الليلة من افضل ليالي العام وما روى الشيطان في ليلة ادر ولا احتر
ولا اغيظ منه فيها وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو افضل الايام عند الله كما ثبت عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال افضل الايام عند الله يوم النحر رواه ابو داود باسناد صحيح وهو
آخر ايام العشر وهو يوم الحج الاكبر كما ثبت في صحيح البخاري وغيره وهو اليوم الذي اذن
فيه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يرى من المشركين ورسوله وان لا يحج بعد
العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا خلاف ان المؤذن اذن بذلك في يوم النحر لا يوم
عرفة وذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم امتشالا وتأويلا للقرآن وعلى هذا فقد
تضمن القسم المناسك والصلوات وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته
ولهذا قال الخليل ان صلاتي ونسبي ومحباي ومماتي لله رب العالمين وقبل خاتم الرسل فصل ربك
ونحر بخلاف حال المشركين المنكبرين الذين لا يعبدون الله وحده بل يشركون به ويستكبرون
عن عبادته كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون وذكر سبحانه من
جلة هذه الاقسام الشفع والوتر اذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وثر في الامكنة
والازمنة والاعمال فالصفا والمروة شفع والبيت وز والجرات وزومني ومن دلفة شفع
وعرفة وز وأما الاعمال فالطواف وز وركعتاه شفع والطواف بين الصفا والمروة وز
ورمي الجمار وز كل ذلك سبع سبع وهو الاصل فان الله وز بحب الوتر والصلاة منها شفع
ومنها وثر والوتر بوتر الشفع فتكون كلها وثر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الليل
مثنى مثنى فاذا خشيت الصبح فاوتر بواحدة توترك ما قد صليت وأما الزمان فان يوم
عرفة وترو يوم النحر شفع وهذا قول أكثر المفسرين وروى مجاهد عن ابن عباس الوتر آدم
وشفع بزوجه حواء وقال في رواية أخرى الشفع آدم وحواء والوتر الله وحده وعنه رواية
ثالثة الشفع يوم النحر والوتر اليوم الثالث وقال عمران بن حصين وقتادة الشفع والوتر
هي الصلاة وروى فيه حديثا مر فوما وقال عطية العوفي الشفع الخلق قال الله تعالى
وخلقناكم أزواجا والوتر هو الله وهذا قول الحكم قال كل شئ شفع والله وز وقال ابو
صالح خلقي الله من كل شئ زوجين اثنين والله وز واحد وهذا قول مجاهد ومسروق
وقال الحسن الشفع والوتر العدد كله من شفع وثر وقال ابن زيد الشفع والوتر الخلق
كله من شفع وثر قال مقاتل الشفع الايام والليالي والوتر اليوم الذي ليلية بعده وهو يوم
القيامة وذكرت أقوال أخر هذه أصولها ومدارها كلها على قولين أحدهما أن الشفع
والوتر نوعان للمخلوقات والأمورات والثاني أن الوتر الخالق والشفع المخلوق وعلى هذا
القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق فهو نظير ما تقدم في قوله والشمس

وضحاها ونظير ما ذكر في قوله وشاهد وشهود وما ذكر في قوله والليل اذا يفتشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكر والانثى وقال ههنا والليل اذا يسر وفي سورة المدثر أقسم بالليل اذا أدبر وفي سورة النكوير أقسم بالليل اذا عسعس وقد فسر بأقبل وفسر بأدبر فان كان المراد اقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة وهى حالة اقباله وحالة امتداده وسريانه وحالة ادباره وهى من آياته الدالة عليه سبحانه وعرف العجبر بالام اذ كل أحد يعرفه ونكر الهيا الى العشر لانها انما تعرف بالعلم وأيضا فان التنكير تعظيم لها فان التنكير يكون للتعظيم وفي تعريف العجبر ما يدل على شهرته وأنه العجبر الذى يعرفه كل أحد ولا يحمله فلما تضمن هذا القسم ما جاء به ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم كان في ذلك ما دل على المقسم عليه ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى هل في ذلك قسم لذي حجر فان عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة وذلك بمحتاج الى حجر يحجز صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل لئلا يصيبه ما اصاب من كذب الرسل كهاد وفرعون وثمود ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمنواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين ثم أخبر انه صب عليهم عذاب ونكره امانة تعظيم واما لان يسير امن عذابه استأصلهم وأهلكهم ولم يكن معه بقاء ولا ثبات ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتصر عليهم وأخبر ان نوصيته على من وسع عليه وان كان اكرامه في الدنيا فليس ذلك اكراما على الحقيقة ولا يدل على أنه كريم عنده من أهل كرامته ومحبه وأن تقديره على من قتر عليه لا يدل على اهائه له وسقوط منزلته عنده بل يوسع ابتلاء وامتحاناً ويقتر ابتلاء وامتحاناً فيبتلى بالنعم كابتلى بالمصائب وسبحانه هو يبتلى عبده بنعمة تجلب له نعمة وبنعمة تجلب له نعمة وبنعمة تجلب له نعمة تجلب له نعمة وبنعمة تجلب له نعمة فهاذا شأن نعمه ونعمه سبحانه وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الامم الثلاثة قوم عاد اغتروا بقوتهم وثمود اغتروا بجنسانهم وعبوتهم وزرورهم وبسائينهم وقوم اغتروا بالمال والرياسة فصارت طاقتهم الى ما قص الله علينا وهذا شأنه دائماً مع كل من اغتر بشئ من ذلك لا بد أن يفسده عليه ويسلبه اياه ثم ذكر سبحانه حال الانسان في معاملة من هو اضعف منه كاليتيم والمساكين فلا يكرم هذا ولا يحض على اطعام هذا ثم ذكر حرصه على جمع المال واكله وحبه له وذلك هو الذى اوجب له عدم رحمة اليتيم والمساكين ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة وهى الخاشعة المتواضعة لربها وما تولى اليه من كرامته ورجته كما ذكر قبلها حال النفس الامارة وما تولى اليه من شدة عذابه ووثاقه

فصل وأما سورة لأقسم بهذا البلد فذكر فيها جواب القسم وهو قوله لقد خلقنا الانسان في كبد وفسر الكبد بالاستوى واتصاف القامة قال ابن عباس في رواية مقسم منتهباً على قدميه وهذا قول ابى صالح والضحاك وابراهيم وعكرمة وعبد الله ابن شداد قال المنذر سمعت ابا طالب يقول الكبد الاستوى والاستقامة وفسر بالنصب هذا قول مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ورواية عن علي بن عباس قال الحسن لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وقال سعيد بن ابى الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدة دائها والآخرة وقال قتادة

يكابد امر الدنيا والآخرة فلا تلقاه الا في مشقة وروى ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال يعني حله وولادته ورضاعه وفصاله ونبت اسنانه وحياته ومعاشه ومماته كل ذلك شدة قال مجاهد جلته امه كرها ووضعته كرها ومعيشته في شدة فهو يكابد ذلك وعلى هذا الكبد من مكابدة الامروهي معاناة شدته ومشقته والرجل يكابد الليل اذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الامرو منه تكبد الالبين اذا غلظ واشتد ومنه الكبد لانها دم يغلظ ويشد واتصاب القامة والاستوى من ذلك لانه انما يكون عن قوة وشدة فان الانسان مخلوق في شدة بكونه في الرحم ثم في القباط والرباط ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ومكابدة المعيشة والامرو والنهي ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ وموقف القيامة ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة الا في الجنة وفسر الكبد بشدة الخلق واحكامه وقوته ومنه قول لبيد

عين هلا بكيت اريد * اذ قنا وطام الخصوم في كبد

اي في شدته وعناوه هذا يشبه قوله تعالى نحن خلقناهم وشددنا أسرهم قال ابن عباس اي خلفهم وقال ابو عبيدة الاسر شدة الخلق يقال فرس شديد الاسر قال وكل شيء شدته من قنب او غيره فهو مأسور وقال المبرد الاسر القوي كلها وقال الليث الاسر قوة المفاصل والايصال وشدة الله أسر فلان اي قوى خلقه وكل شيء جمع طرفاهما فشد احدهما بالاخر فقد اسروا قال الحسن شدتنا واصالهم بعضهم الى بعض بالعروق والعصب وقال مجاهد هو الشرج يعني موضع البول والغائط اذا خرج الاذي تقبضا والمقصود انه سبحانه اقسم في سورة البلد على حال الانسان واقسم سبحانه بالبلد الامين وهو مكة ام القرى ثم اقسم بالوالد وما ولد وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين وعلى هذا فقد تضمن القسم اصل المكان واصل السكان فرجع البلاد الى مكة ومرجع العباد الى آدم وقوله وانت حل بهذا البلد فيه قولان احدهما انه من الاحلال وهو ضد الاحرام والثاني انه من الحلول وهو ضد الظعن فان اريد به المعنى الاول فهو - وحال ساكن البلد بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع ولان امنه انما يظهر به النعمة عند الدخول من الاحرام والا في حال الاحرام هو في امان والحرمة هناك للفعل لا للمكان والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهي انما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضى امنه وان كان على هذا فيه نبيه فانه اذا اقسم به وفيه الحلال فاذا كان فيه الحرام فهو - وأولى بالتعظيم والامن وكذلك اذا اريد المعنى الثاني وهو الحلول فهو متضمن لهذا التعظيم مع تضمنه بامر آخر وهو اقسام بلده المشتمل على رسوله وعبيده فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد فجعل بيته هدى للناس ونبيه اماما وها ديا لهم وذلك من اعظم نعمه واحسانه الى خلقه كما هو اعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من اظهر أدلة التوحيد والربوبية في الآية قول ثالث وهو ان المعنى وانت مستحل تلك واخراجك من هذا البلد الامين الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني وقد استحل قومك فيه حرمتك وهم لا يعضدون به شجرة ولا ينفرون به صيدا وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم موقعها من احسن موقع والطفه بهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله ثم انكر سبحانه على الانسان ظنه وحسابه ان ان يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة

التي يكابدها الامور فان الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق فكيف يقدر غيره
 من لم يكن قادرا في نفسه فهذا برهان مستقل بنفسه مع انه متضمن للجزء الذي مناطه القدرة
 والعلم فنبه على ذلك بقوله أيحسب أن من يقدر عليه احد وبقوله أيحسب أن لم يره أحد
 فيحصى عليه ما عمل من خير وشر ولا يقدر عليه فيحازيه بما يستحقه ثم انكر سبحانه
 على الانسان قوله أهلكم مالا ليدا وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافخر هذا الانسان
 باهلا له وانفاقه في غير وجهه اذ لو انفق في وجوهه التي أمر بانفاقه فيها ومنعه - واضعه
 لم يكن ذلك اهلا كاله بل تقربا به الى الله وتوصلا به الى رضاه وثوابه وذلك ليس باهلا لك
 فانكر سبحانه اقتضاه وتبعده بانفاق المال في شهوانه واغراضه التي انفاقه فيها اهلا لك
 ثم ووجه سبحانه بقوله أيحسب أن لم يره أحد وأنى ههنا بلم الدالة على المضى في مقابلة قوله
 أهلكم مالا ليدا فان ذلك في الماضي أيحسب أن لم يره أحد فيما انفقته وفيما أهلكم ثم ذكر برهما
 مقدرا انه سبحانه أحق بالزوية وأولى من هذا العبد الذي له عيان يصبر بهما فكيف يعطيه
 البصر من لم يره وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان فينطق وبين عما في نفسه
 وبأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى وهل كمال الخلق مستفاد
 الا من كمال خلقه ومن جعل غيره عالما بتجدي الخير والشر وهما طريقاهما أولى وأحق بالعلم منه
 ومن هداه الى هذين الطريقين وكيف يلبقى به ان يتركه سدى لا يعرفه ما يضره وما ينفعه
 في معاشه ومعهاده وهل النبوة والرسالة الا لتكميل هداية التجهدين فدل هذا كله على اثبات
 الخالق وصفات كماله وصدق رساله ووعدته ووعيده وهذه اصول الايمان التي انفقت عليها
 جميع الرسل من اولهم الى آخرهم اذا تأمل الانسان حاله وخلقه وجده من اعظم الادلة
 على صحتها وثبوتها فتكفي الانسان فكرته في نفسه وخلقه والرسالة بعثوا منذ كبرن بما في الفطر
 والعقول مكملين له لتقوم على العبد بحمد الله بفطرته ورسالته ومع هذا فقامت عليه حجة
 ولم يقم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل اليها حتى يقفحها بالاحسان الى خلقه
 بفك الرقة وه- وتخليصها من الرق ليخلصه الله من رقبته ورق عدوه والمعام اليقيم
 والمسكين في يوم المجاعة والاخلاص له سبحانه بالايمان الذي هو خالص حقه عليه
 وهو نصديقي خبره وطاعة امره واجتهاد وجهه ونصيحة غيره ان يوصيه بالبر والرحمة وقبل وصية
 من اوصاه بها فيكون صابرا رحيما في نفسه معينا غيره على الصبر والرحمة فلم يقم هذه
 العقبة وهلك دونها هلك منقطع عن ربه غير واصل اليه بل محجوب عنه والناس قسمان ناج
 وهم من قطع العقبة وصار وراءها وهالك وهو من دون العقبة وهم اكثر الخلق ولا يقم
 هذه العقبة الا المضمر فانهما عقبة كؤود شاقة لا يقطعها الا خفيف الظهر وهم اصحاب المينة
 والهالك دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر ولم يطيعوا الامر فهم اصحاب المشامة عليهم نار
 مؤصلة قد اطبقت عليهم فلا يستطيعون الخروج منها كما اطبقت عليهم اعمال النفي والاعتقادات
 الباطلة المنافية لما اخبرت به رساله فلم تخرج قلوبهم منها كذلك اطبقت عليهم هذه النار
 فلم تستطع اجسامهم الخروج فتأمل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب
 العلم والايمان وبالله التوفيق وايضا فان طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدا وتخويفا

لترتب الجزاء عليهما كما قال تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا و قوله تعالى أرايت
 الذي ينهى عبدا إذا صلى إلى قوله ألم يعلم بأن الله يرى و قوله تعالى و قل اعلموا فسيرى الله
 عملكم ورسوله والمؤمنون وقال ام يحسبون اننا لنسمع سرهم ونجواهم بلى و رسلنا لديهم
 يكتبون وهذا تثير جد في القرآن وليس المراد به مجرد الاخبار بالقدرة والعلم لكن الاخبار
 مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل فانه اذا كان قادرا امكن مجازاته واذا كان طالما امكن
 ذلك بالقسط والعدل ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته واذا كان قادرا لكننه غير طام بتفاصيل
 الاعمال ومقادير جزاء هالم يحاز بالعدل والرب تعالى موصوف بكمال القدرة وكال
 العلم فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته و ارادته فحيثما يجب على العاقل ان يطلب النجاة
 منه بالاخلاص والاحسان فهو اقتحام العقبة المتضمن للثوبة الى الله تعالى والاحسان الى خلقه
 وقال فلا اتقنم العقبة وهو فعل ماض ولم يكرر معذلا اما استعمالا لاداة لا كما استعمال ما واما
 اجراء لهذا الفعل مجرى الدماء نحو فلا سم ولم ولا طاش ونحو ذلك واما لان العقبة قد فسر
 بمجموع امور فاقنمها فعل كل واحد منها فأغنى ذلك عن تكريرها فكأنه قال ولا لك رقبة
 ولا اطعم ولا كان من الذين آمنوا وقراءة من قرأ فك رقبة بالفعل كأنها أرجح من قراءة من
 قرأها بالمصدر لان قوله وما أدراك ما العقبة على حد قوله وما أدراك ما الحاققة وما أدراك
 ما يوم الدين وما أدراك ما هي نار حامية ونظائره تعظيما لشأن العقبة وتخصيما لامرها وهي
 بجلة اعتراض بين المفسر والمفسر فان قوله فك رقبة أو اطعام الى قوله ثم كان من الذين آمنوا
 تفسير لاقتحام العقبة وليس هو تفسير النفس العقبة فان العقبة مكان شاق كؤد يقتحمه الناس
 حتى يصلوا الى الجنة واقتحامه بفعل هذه الامور فمن فعلها فقد اقتحم العقبة وتبدل على ذلك قوله
 تعالى ثم كان من الذين آمنوا وهذا عطف على قوله فك رقبة والاحسن تناسب هذه الجملة المعطوفة
 التي هي تفسير لما ذكر أولا وايضا فان من قرأها بالمصدر المضاف والابدية من تقدير وهو ما أدراك
 ما اقتحام العقبة واقتحامها فك رقبة وايضا فمن قرأها بالفعل فقد طابقي بين المفسر وما فسر
 ومن قرأها بالمصدر فقد طابقي بين المفسر وبعض ما فسر فان التفسير ان كان لقوله اقتحم
 طابقه بقوله ثم كان من الذين آمنوا وما بعده دون فك رقبة وما يليه وان كان لقوله العقبة طابقه
 فك رقبة واطعام دون قوله ثم كان من الذين آمنوا وما بعده وان كانت المطابقة حاصلة معنى
 فحصولها لفظا ومعنى انم وأحسن واختلف في هذه العقبة هل هي في الدنيا أو في الآخرة
 فقالت طائفة العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر وحكوا
 ذلك عن الحسن ومقاتل قال الحسن عقبة والله شديدة لمجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه
 والشيطان وقال مقاتل ههنا مثل ضربه الله يريد ان المعتق رقبة والمطعم اليتيم والمسكين يقاوم
 نفسه وشيطانه مثل أن يتكلف صعودا للعقبة فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكاف صعود
 العقبة وهذا قول أبي عبيدة وقالت طائفة بل هي عقبة حقيقة يصعد بها الناس قال عطاء هي
 عقبة جهنم وقال الكلبي هي عقبة بين الجنة والنار وهذا قول مقاتل انها عقبة جهنم وقال مجاهد
 والضحاك هي الصراط يضرب على جهنم وهذا له قول الكلبي وقول هؤلاء أصح نظرا
 وأثرا ولغة قاله قتادة فانه عقبة شديدة فاقنموها بطاعة الله وفي اثر معروف ان بين ايديكم

عقبة كؤود لا يتضحها الا الخفون أو نحو هذا وإن الله سمي الايمان به وفعل ما أمر وترك ما نهى
عقبة فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمن لاقتحام العقبة وقال بعض الصحابة
وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول مالي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود أهبط منها ما لي
جنة وما لي نار فهذا القول أقرب الى الحقيقة والآثار السلفية والمسألوف من مادة القرآن
في استعماله وما أدراك في الامور الغائبة العظيمة كما تقدم والله أعلم

فصل ومن ذلك اقسامه بالثين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين فأقسم
بجسائه بهذه الامكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر انبيائه ورسله أصحاب الشرائع
العظام والائمة الكثيرة فالثين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما
وهو ارض بيت المقدس فانها أكثر البقاع زيتونا وثينا وقد قال جماعة من المفسرين انه
بجسائه اقسم بهذين النوعين من الثمار لما كان العزة فيهما فان الثين فاكهة مخصصة من شوائب
التنقيص لا يجمل له وهو على مقدار القيمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الادوية
ومن اجد من اعدل الا مزجة وطبعه طبع الحياة الحارة والرطوبة وشكله من احسن الاشكال
ويدخل اكله والنظر اليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن حائر الفواكه ويزيد في القوة
ويوافق الباءة وينفع من البواسير والقرس ويؤكل رطبيا وباسا وأما الزيتون ففيه
من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر فان عوده يخرج ثمرا يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور
وصبغ الاكليمين وطيب ودواء وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى وشجره باقى على عمر السنين
المتطاولة وورقه لا يسقط وهذا الذي قالوه حق ولا ينافي أن يكون منبتة مرادا فان منبت
هاتين الشجرتين حقيقى بأن يكون من جلة البقاع الفاضلة الشريفة فيكون الاقسام قد
تناول الشجرتين ومنبتهما وهو مظهر عبد الله ورسوله وكنيته وروحه عيسى ابن مريم كما ان
طور سينين مظهر عبده ورسوله وكنيته موسى فان الجبل الذي كلمه عليه وناباه وأرسله الى
فرعون وقومه ثم اقسم بالبلد الامين وهو مكة مظهر خاتم انبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى
في هذا القسم من الفاضل الى الافضل فبدأ بوضع مظهر المسيح ثم نرى بوضع مظهر الكليم
ثم ختمه بوضع مظهر عبده ورسوله واكرم الخلق عليه ونظير هذا بعبه في التوراة التي ازلها
الله على كليمه موسى جاء الله من طور سيناء واشرق من ساعير واستعلن من فاران فنجيئه من
طور سيناء بعته لموسى بن عمران وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ثم نرى بنبوة المسيح ثم ختمه
بنبوة محمد وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيئ الصبح ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس
واشراقها ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم بعدهما بمنزلة امتلاء وظهورها للعالم ولما
كان الغالب على بني اسرائيل حكم الحسن ذكر ذلك مطابقا للواقع ولما كان على الامة الكاملة
حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي واقسم بها على بداية الانسان ونهايته فقال لقد خلقنا
الانسان في احسن تقويم أى في احسن صورة وشكل واعتدال معتدل القامة مستوي الخلق
كامل الصورة احسن من كل حيوان سواء والتقويم بصير الشيء على ما ينبغي ان يكون في التأليف
والتعديل وذلك صنعت تبارك وتعالى في قبضته من تراب وضعه بالمشاهدة في نقطة من ماء وذلك
من اعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته وحكمته وعلمه وصفاته كما له ولهذا يكرر ها كثيرا في

القرآن لما كان العبرة بها والاستدلال باقرب الطرق على وحدانيته وعلى المبدأ والمعاد وتضمن
افسام تلك الامكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته وعنايته بخلقه بأن أرسل منها
رسلا أنزل عليهم كتبهم يعرفون العباد برهيم وحقوقه عليهم وينذرونهم بالله وتعلمته
ويدعونهم الى كرامته وثوابه ثم لما كان الناس في اجابة هذه الدعوة فريقين منهم من اجاب
ومنهم من أبى ذكر حال الفريقين فذكر حال الاكثرين وهم المرد ودون الى اسفل سافلين
والصحيح انه النار قاله مجاهد والحسن وابو العالية قال على ابن ابي طالب رضى الله عنه
هي النار بعضها اسفل من بعض وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء والكلي
وابراهيم انه ارذل العمر وهو مروى عن ابن عباس والصواب القول الاول لوجوه احدها
ان ارذل العمر لا يسمى اسفلا سافلين لاقبالة ولا عرف وانما اسفل سافلين هو سجين الذي هو
مكان التعسير كما ان عليين مكان الاربار الثالث ان المردودين الى اسفل العمر بالنسبة الى نوع
الانسان قليل جدا فكثرهم يموت ولا يرد الى ارذل العمر الثالث ان الذين آمنوا وعملوا
الصالحات يستوونهم وغيرهم في ردم طسال عمره منهم الى ارذل العمر فليس ذلك مختصا
بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين الرابع ان الله سبحانه لما اراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله
لجنس بني آدم فقال ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم
شيئا فجعلهم قسمين قسم يتوفى قبل الكبر وقسم مردودا الى ارذل العمر ولم يسمه اسفل
سافلين الخامس انه لا يحسن المقابلة بين ارذل العمر وبين اجزاء المؤمنين وهو سبحانه قابل
بين جزاء هؤلاء وجزاء اهل الايمان فجعل جزاء الكفار اسفل سافلين وجزاء المؤمنين
اجرا غير ممنون السادس ان قول من فسره بارذل العمر يتلزم خلوا الآية عن جزاء الكفار
وما قبله امرهم وتفسيرها بامر محسوس فيكون قد ترك الاخبار عن المقصود الاظم واخبر
عن امر يعرف بالحس والمشاهدة وفي ذلك هضم لمعنى الآية ونقص يربها عن المعنى
اللائق بها السابع انه سبحانه ذكر حال الانسان في مبداء ومعاد فبدأ خلقه في احسن
تقويم ومعه رده الى اسفل سافلين او الى اجر غير ممنون وهذا موافق لطريقة القرآن
وطأته في ذكر مبداء العبد ومعه رده الى ارذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود اثباته
والاستدلال عليه الثامن ان ارباب القول الاول مضطرون الى مخالفة الحس واخراج
الكلام عن ظاهره والتكلف البعيدة فانهم ان قالوا ان الذي يرد الى ارذل العمر هم الكفار
دون المؤمنين كابروا بالحس وان قالوا ان من الزوالين من يرد الى ارذل العمر احتاجوا
الى التكلف لصحة الاستثناء فنهى من قدر ذلك بان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل
اعمالهم اذ اردوا الى ارذل العمر بل تجرى عليهم اعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة فهذا
وان كان حقا فان الاستثناء انما وقع من رد الامن الاجر والعمل ولما علم ارباب هذا القول
ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة فقالوا
من قرأ القرآن لا يرد الى ارذل العمر وهذا ضعيف من وجهين احدهما ان الاستثناء عام
في المؤمنين قارئهم واميمهم انه لا دليل على ما ادعوه وهذا لا يعلم بالحس ولا خبر يجب التسليم
له بقضيه والله اعلم التاسع انه سبحانه ذكر نعمته على الانسان بخلقه في احسن تقويم وهذه

النعمة توجب عليهم أن يشكروها بالآيمان وعبادته وحده لا شريك له فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين فإذا لم يؤمن به وأشرك به وعصى رسوله نقله منها إلى أسفل سافلين وبذلك بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين فذلك نعمته عليه وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته العاشر أن نظير هذه الآية قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فإلذاب الأليم هو أسفل سافلين والمستثنون هنا هم المستثنون هناك والاجر غير ممنون هناك هو المذكور هنا والله أعلم وقوله غير ممنون أي غير مقطوع ولا منقوص ولا مكدر عليهم وهذا هو اصواب وقالت طائفة غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم ويذكر هذا عن حكيمه ومقاتل وهو قول كثير من القدرية قال هؤلاء إن المنة تكدر النعمة فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنم عليه وهذا القول خطأ قطعاً أي أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق وهذا من أبطل الباطل فإن المنة التي تذكر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق وأمانة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها فأنها منة حقيقة قال تعالى يمتن عليك أن أسلموا قل لا تتوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين وقال تعالى ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة وقال موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى وقال أهل الجنة فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم الآية وقال وزيد أن غن على الذين استضعفوا في الأرض الآية وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الانتصار لم أجركم ضالا فهذا كما الله بي لم أجركم حالة فأغناكم الله بي جعلوا يقولون له الله ورسوله آمن فهذا جواب العارفين بالله ورسوله وهل المنة كل المنة إلا الله المان بفضله الذي جمع الخلق في منته وإنما كبرت منة المخلوق لأنما منة باليس منه وهي منة يتأذى بها المؤمنون عليه وأمانة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بجمته وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه فذلك لا يجوز نقيها وكيف يجوز أن يقال أنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة وهل هذا إلا من أبطل الباطل فأن قيل هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء وليس مرادهم ماذا كروا إنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به وإن كانت لله فيه المنة عليهم فإنه لا يمن عليهم به بل يقال هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا وهذا أجركم فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا غن بها عليكم بما أعطيناكم قيل وهذا أيضا هو الباطل بعينه فأن ذلك الاجر ليست الأعمال ثمنا له ولا معاوضة عنه وقد قال أهل الخلق بالله لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل فآخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله وذلك محض منته عليه وعلى سائر عبادته وكما أنه سبحانه المان بارسال رسوله وبالنوحي لطاعته وبالإعانة عليها فهو المان بإعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجوده لاحق لأحده عليه بحيث إذا وقاه إياه لم يكن له عليه منة فأن كان في الدنيا باطل فهذا منته فأن قيل كيف تقولون هذا وقد أخبر رسول الله عنه بأن حق العباد عليه إذا وحده أن لا يذهبهم وقد أخبر عن نفسه أن حقا عليه

نصر المؤمنين قبل لعنهم والله وهذا من أعظم منته على عباده أن جعل عـلى نفسه حقاً بحكم وعده الصادق أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحده فهذا من تمام منته فانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب طاعته واجابة سائله

ما له اعباد عليه حق واجب ❀ كلا ولا يسعى لديه ضائع

ان عذبوا فبعـدله أو نعموا ❀ فبفضله فهو الكريم الواسع

وقوله سبحانه فما يكذبك بعد بالدين أصح القولين انه هذا خطاب للانسان أى فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان فتقول لك لا تبعث ولا تحاسب ولو تفكرت في مبدأ خلقك وصورتك لعلمت ان الذى خلقك أقدر على أن يعيدك بعـدمـه وتك وينشـبك خلقاً جديداً وان ذلك لو أعجزه لا أعجزه وأعياء خلقك الاول وأيضاً فان الذى كل خلقك فى أحسن تقويم بعد أن كنت نقطة من ماء مهين كيف يليق به أن يتركك مدمى لا يكمل ذلك بالامر والنهى وبيان ما ينفعك وبضرك ولا يتقل لدار هى أكل من هذه ويجعل هذه الدار طريفاً لك اليها لحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقتضى خلافة قال منصور قلت لمجاهد فما يكذبك بعد بالدين عني به محمداً فقال معاذ الله اغما عني به الانسان وقال قتادة الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم واختاره الفراء وهذا موضع محتاج الى شرح وبيان يقال كذب الرجل اذا قال الكذب وكذبتة أنا اذا نسبته الى الكذب ولو اعتقدت صدقته وكذبتة اذا اعتقدت كذبه وان كان صادقا قال تعالى وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وقال فانهم لا يكذبونك فالاول بمعنى وان ينسبـوك الى الكذب والثاني بمعنى لا يعتقدون لك كاذب ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعدم معرفته جسمودا وعنادا هذا أصل هذه اللفظة ويتمدى الفعل الى الخبر بنفسه والى خبره بالباء أو بى فيقال كذبت بكذا وكذبت فيه والاول أكثر استعمالاً ومنه قوله بل كذبوا بالحق لما جاءهم وقوله وكذبوا بآياتنا اذا عرف هذا فقولهم فما يكذبك اختلف في ما هل هى بمعنى أى شئ يكذبك أو بمعنى من الذى يكذبك فمن جعلها بمعنى أى شئ تعين على قوله أن يكون الخطاب للانسان أى فاعنى يملك بعد هذا البيان مكذبا بالدين وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ومن جعلها بمعنى فمن الذى يكذبك جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم قال الفراء كانه يقول من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له من خلق الانسان ما وصفناه وقال قتادة فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان مكذبا بالدين وعلى قول قتادة والفراء اشكال من وجهين احدهما اقامة ما قسم من أوامره سهل والثاني ان الجار والمحرور يستدعى متعلقا وهو لكذبك أى فمن يكذبك بالدين فلا يخلو اما أن يكون المعنى فمن يملك كاذبا بالدين أو مكذبا به ولا يصح واحد منهما أما الثاني والثالث فظاهر فان كذبتة ليس معناه جعلته مكذبا أو مكذبا واغما معناه نسبته الى الكذب فالعنى على هذا فمن يملك بعد كاذبا بالدين وهذا اغما يتمدى اليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثى فلا يقال كذب بكذا واغما يقال كذب به وجواب هذا الاشكال ان قوله كذب بكذا معناه كذب الخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلة حتى كأنه نسي منى وعدوا الفعل الى الخبر به فاذا قيل من يكذب بك بكذا فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء أى نسووك الى الكذب فى الاخبار به بل الاشكال

في قول مجاهد والجمهور فان الخطأ اذا كان لانسان وهو المكذب اى فاعل التكذيب فكيف يقال له ما يكذبك اى يجهلك مكذبا والمعروف كذبه اذا جعله كاذبا لمكذبا ومثل فسقه اذا جعله فاسقا لا مفسقا غيره وجواب هذا الاشكال ان صدق وكذب بتشديد رادبه معنيان أحدهما النسبة وهي انما تكون للمفعول كما ذكرتم والثاني الداعي والحامل على ذلك وهو يكون لفاعل قال الكسائي يقال ما صدق بكذا او ما كذب بكذا اى ما جعلك على التصديق والتكذيب قلت وهو نظير ما أجرك على هذا اى ما جعلك على الاجترار عليه وما قد مك وما اخرك اى ماداك وجعلك على التقديم والتأخير وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق ثم ختم السورة بقوله أليس الله بأحكم الحاكمين وهذا تقرير لمضمون السورة من اثبات النبوة والتوحيد والمعاد وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه وجمده ما جاء به بالجنة والقدرة والظهور عليه وحكمه بين عباده في الدنيا وبشرعه وأمره وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه وان احكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الاحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الانسان في احسن تقويم ونقله في اطوار الخلق حالا بعد حال الى اكل الاحوال فكيف يليق بأحكم الحاكمين ان لا يجازي الحسن بالحسن والمسيء بآثامه وهل ذلك الا قدح في حكمه وحكمته فله ما اخصر لفظ هذه السورة واعظم شأنها وانتم معناها والله اعلم

فصل في ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى بالليل اذا بغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكور والانثى وقد تقدم ذكر القسم عليه وانه سعى الانسان في الدنيا وجزاءه في العقبى فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع احواله اذ هو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشائه وانى بصيغة المضارع لانه بغشى شيئا بعد شيء واما النهار فانه اذا طلعت الشمس ظهر ونجلى وهلة واحدة ولهذا قال في سورة الشمس وضهاها والنهار اذا جالها والليل اذا يغشاها واقسم به وقت سرهانه كما تقدم واقسم به وقت ادباره واقسم به اذا عسعس فقيل معناه ادبر فيكون مطابقا لقوله والليل اذا ادبر والصبح اذا اسفر وقيل معناه أقبل فيكون كقوله والليل اذا بغشى والنهار اذا تجلى فيكون قد اقسام باقبال الليل والنهار وعلى الاول يكون القسم واقعا على انصرام الليل ومجيئ النهار عقبيه وكلاهما من آيات ربوبيته ثم اقسام بخلق الذكور والانثى وذلك يتضمن الاقسام بالحيوان كله على اختلاف اصنافه ذكره وانثاه وقابل بين الذكر والانثى كما قابل بين الليل والنهار وكل ذلك من آيات ربوبيته فان اخراج الليل والنهار بواسطة الاجرام العلوية كاخراج الذكور والانثى بواسطة الاجرام السفلية فأخرج من الارض ذكور الحيوان وانثاه على اختلاف انواعه كما اخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها واقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار وبالساعي وهو الذكور والانثى على اختلاف السعي كما اختلف الليل والنهار والذكور والانثى وسعيه وزمانه مختلف وذلك دليل على اختلاف جزائهم وثوابه وانه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء كما لا يسوي بين الليل والنهار والذكور والانثى ثم اخبر عن تفرقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى فتضمنت الايتان ذكر شرعه وقدره وذكر الاعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا

ليسرى وهذا ليسرى وان العبد ميسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحدا وذكر التيسير
 ليسرى ثلاثة أسباب أحدها إعطاء العبد وحذف مفعول الفعل إرادة الإطلاق والتعميم
 أى أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول إعطائه من نفسه الإيمان
 والطاعة والاخلاص والتوبة والشكر وإعطاءه الاحسان والنفع بحاله ولسانه وبدنه
 ونيته وقصده فتكون نفسه نفسها مطبوعة بأدلة لا نتيجة مانعة فالنفس المطبوعة هي النافعة
 المحسنة التي طبعتها الاحسان وإعطاء الخير اللازم والمعنى فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها
 فهي بمنزلة العين التي ينفع الناس بشرهم منها وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم فهم ينفعون
 بها كيف شاؤوا فهي ميسرة لذلك وهكذا الرجل المبارك ميسر لنفع حيث حل فجزاء هذا أن
 ييسره الله ليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء السبب الثانى التقوى وهى اجتناب ما نهى الله
 عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير فالتقى ميسر عليه أمور دينه
 وآخرته وشارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دينه تعمير عليه من أمور آخرته
 بحسب ما تركه من التقوى وأما تيسير ما ييسر عليه من أمور الدنيا فلوانقى الله لكان
 تيسيرها عليه أتم ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير
 النقى فان طبيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وإنها ساجها من أعظم نعيم الدنيا وهو
 أحل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا
 فأخبر أنه يسر على المتقى ما لا يسر على غيره وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه
 من حيث لا يحتسب وهذا أيضا يسر عليه بقواه وقال تعالى ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته
 ويعظم له أجرا وهذا تيسر عليه بإزالة ما يخشاه وإعطائه ما يحب ويرضاه وقال يا أيها الذين
 آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم وهذا يتيسر بالفرقان
 المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة
 الذنوب وذلك غاية التيسير وقال تعالى واتقوا الله اعلمكم تلحون والفلاح غاية اليسر كما أن
 الشقاء غاية العسر وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من
 رحمته ويجعل لكم نورا يمشون به ويغفر لكم فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور أعطاهم
 نصيبين من رحمته نصيبا فى الدنيا ونصيبا فى الآخرة وقد يضاف لهم نصيب الآخرة
 فيصير نصيبين الثانى أعطاهم نورا يمشون به فى الظلمات الثالث مغفرة ذنوبهم وهذا غاية
 التيسير فقد جعل سبحانه التقوى سبيلا لكل يسر وترك التقوى سبيلا لكل عسر السبب
 الثالث التصديق بالحسنى وفسرت بلاله الا الله وفسرت بالجنة وفسرت بالخلف وهى
 أقوال السلف واليسرى صفة لموصوف محذوف أى الحالة والخلقة اليسرى وهى فعلى
 من اليسر والاقوال الثلاثة ترجع الى أفضل الاعمال وأفضل الجزاء فمن فسر بها بلاله
 الا الله فقد فسر بها بمفرد يأتى بكل جمع فان التصديق الحقيقى بلاله الا الله يستلزم
 التصديق بشعبها وفروعها كلها وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة
 فلا يكون العبد مصدقا لها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ولقائه
 ولا يكون مؤمنا بالله اله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ولا يكون مؤمنا

في قول مجاهد والجمهور فان الخطاب اذا كان لانسان وهو المكذب اى فاعل التكذيب فكيف يقال له ما يكذبك اى يجعلك مكذبا والمعروف كذبه اذا جعله كاذبا لا مكذبا ومثل فسقه اذا جعله فاسقا لا فاسقا لغيره وجواب هذا الاشكال ان صدق وكذب بتشديد رادبه معنان أحدهما النسبة وهى انما تكون للفعول كما ذكرتم والثاني الداعى والحامل على ذلك وهو يكون للفاعل قال الكسائي يقال ما صدقت بكذا او ما كذبت بكذا اى ما جعلك على التصديق والتكذيب قلت وهو نظير ما أجازك على هذا اى ما جعلك على الاجترار عليه وما قد مك وما اخرك اى مادماك وجعلك على التقديم والتأخير وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق ثم ختم السورة بقوله أليس الله بأحكم الحاكمين وهذا تقرير لمضمون السورة من اثبات النبوة والتوحيد والمعاد وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه وجمده ما جاء به بالجنة والقدرة والظهور عليه وحكمه بين عباده في الدنيا وبشرعه وأمره وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه وان احكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الاحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الانسان في احسن تقويم ونقله في اطوار التخليق حالا بعد حال الى اكل الاحوال فكيف يليق بأحكم الحاكمين ان لا يجازى المحسن بالحسن والمسيء بالمساءة وهل ذلك الا فصح في حكمه وحكمته فله ما اخصر لفظ هذه السورة واعظم شأنها وانتم معناها والله أعلم

فصل في ومن ذلك قسم سبحانه وتعالى بالليل اذا بغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكور والانثى وقد تقدم ذكر القسم عليه وانه سعى الانسان في الدنيا وجزاءه في العقبى فهو سبحانه بقسم بالليل في جميع احواله اذ هو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشائه وانى بصيغة المضارع لانه بغشى شأ بهـ شئ واما النهار فانه اذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهالة واحدة ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها واقسم به وقت سريره كما تقدم واقسم به وقت ادباره واقسم به اذا عسعس فقيل معناه ادبر فيكون عطفا على لقوله والليل اذا ادبر والصبح اذا اسفر وقبل معناه اقبل فيكون كقوله والليل اذا بغشى والنهار اذا تجلى فيكون قد اقسام باقبال الليل والنهار وعلى الاول يكون القسم واقعا على انصرام الليل وبجيء النهار فقيده وكلاهما من آيات ربوبيته ثم اقسم بخلق الذكور والانثى وذلك يتضمن الاقسام بالحيوان كله على اختلاف اصنافه ذكره وانثاه وقابل بين الذكر والانثى كما قابل بين الليل والنهار وكل ذلك من آيات ربوبيته فان اخراج الليل والنهار بواسطة الاجرام العلوية كاخراج الذكور والانثى بواسطة الاجرام السفلية فأخرج من الارض ذكور الحيوان وانثاه على اختلاف انواعه كما اخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها واقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار والساعي وهو الذكور والانثى على اختلاف السعي كما اختلف الليل والنهار والذكور والانثى وسعيه وزمانه مختلف وذلك دليل على اختلاف جزائهم وثوابه وسجانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكور والانثى ثم اخبر عن تفرقه بين ما قسمه سعى المحسن وما قسمه سعى المسيء فقال فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنمسه لیسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنمسه للعسرى فتضمنت الايتان ذكر شرعه وقدره وذكر الاعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا

ليسرى وهذا ليسرى وان العبد يمسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحدا وذكر للتيسير
 ليسرى ثلاثة أسباب أحدها إعطاء العبد وحذف مفعول الفعل ارادة الاطلاق والتعجب
 اى اعطى ما أمر به وسجحت به طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الايمان
 والطاعة والاخلاص والتوبة والشكر وإعطاءه الاحسان والنفع بحاله ولسانه وبدنه
 وبيته وقصده فتكون نفسه نفسها مطيعة بآلة لآلئمة مائعة فالنفس المطيعة هي النافعة
 المحسنة التي طبعها الاحسان وإعطاء الخير اللازم والمنعوى فتعطى خيرا لها نفسها ولغيرها
 فهي بمنزلة العين التي ينفع الناس بشربهم منها وسقى دوابهم وانعامهم وزرعهم فهم ينفعون
 بها كيف شاؤوا فهي ميسرة لذلك وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل فجزاء هذا أن
 يمسره الله ليسرى كما كانت نفسه ميسرة لإعطاء السبب الثانى التقوى وهي اجتناب ما نهى الله
 عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التيسير فالتقى ميسر عليه أمور دينه
 وآخرته وتارك التقوى وان يسرت عليه بعض أمور دينه ميسر عليه من أمور آخرته
 بحسب ما تركه من التقوى وأما تيسير ما يمسر عليه من أمور الدنيا فلوانقى الله لكان
 تيسيرها عليه أتم ولو قدر انها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير
 النقى فان طبيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وإبتهاجها من أعظم نعيم الدنيا وهو
 أحل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا
 فأخبر أنه يسر على النقى ما لا يسر على غيره وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه
 من حيث لا يحتسب وهذا ايضا يسر عليه بقواه وقال تعالى ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته
 ويعظم له أجرا وهذا تيسر عليه بازالة ما يخشاه وإعطائه ما يحب وبرضاه وقال يا أيها الذين
 آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم وهذا تيسر بالفرقان
 المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة
 الذنوب وذلك غاية التيسير وقال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون والصلاح غاية اليسر كما أن
 الشقاء غاية العسر وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من
 رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم فضيلهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور أعطاهم
 نصيبين من رحمته نصيبا في الدنيا ونصيبا في الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة
 فيصير نصيبين الثانى أعطاهم نورا يمشون به فى الظلمات الثالث مغفرة ذنوبهم وهذا غاية
 التيسير فقد جعل سبحانه التقوى سبيلا لكل يسر وترك التقوى سبيلا لكل عسر السبب
 الثالث التصديق بالحسنى وفسرت بلاله الا الله وفسرت بالجنتى وفسرت بالخلف وهي
 أقوال السلف واليسرى صفة لموصوف محذوف اى الحسالة والخلقة اليسرى وهي فعلى
 من اليسر والاقوال الثلاثة ترجع الى أفضل الاعمال وأفضل الجزاء فمن فسرها بلاله
 الا الله فقد فسرها بفرد يأتى بكل جمع فان التصديق الحقيقى بلاله الا الله يستلزم
 التصديق بشعبها وفروعها كلها وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة
 فلا يكون العبد مصدقا لها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله ولا نكثته وكتبه ورسله ولقائه
 ولا يكون مؤمنا بالله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ولا يكون مؤمنا

بأن الله لا اله الا هو حتى يسلب خصائص الالهية عن كل موجود سواء سلبها من اعتقاده
وارادته كما هي منفية في الحقيقة والخارج ولا يكون مصدقا بها من نفي الصفات العليا ولا
من نفي كلامه وتكليمه ولا من نفي استواءه على عرشه وانه رفع اليه الكلم الطيب والعمل الصالح
وانه رفع المسج اليه وأسرى برسوله صلى الله عليه وسلم اليه وانه يدبر الامر من السماء الى
الارض ثم يرجع اليه الى سائر ما وصف به نفسه ووصفه برسوله صلى الله عليه وسلم ولا
يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفي عموم خلقه لكل شيء وقدرته على
كل شيء وعلمه بكل شيء وبعثه الاجساد من القبور ليوم النشور ولا يكون مصدقا بها من
زعم انه يترك خلقه سدى لم يأمرهم ولم ينههم على السنة رسله وكذلك التصديق به يقتضي
الاذعان والاقرار بحقه وهي شرائع الاسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق
بجميع اخباره وامتناله او امره واجتنابه نواهيه هو تفصيل لا اله الا الله فالصدق به على
الحقيقة الذي يأتي بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الاطلاق الا بها
وبالتبليغ بحقه وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الاطلاق الا بها وبحقها فالعقوبة في الدنيا
والآخرة على تركها أو ترك حقها ومن فسر الحسنى بالجنة فمرها بأعلى أنواع الجزاء وكاله
ومن فمرها بالخلف ذكر نوطا من الجزاء فهذا جزاء ذنوبى والجنة الجزاء في الآخرة فرجع
التصديق بالحسنى الى التصديق بالايمان وجزائه والتعقيب أنها تسأل الامرين وتأمل ما
اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث وهي الاعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى من العلم
والعمل وتضمنته من الهدى ودين الحق فان النفس لها ثلاث قوى - قوة البذل والاعطاء
وقوة الكف والامتناع وقوة الإدراك والفهم ففيها قوة العلم والشعور وبذنها قوة الحب
والارادة وقوة البغض والنفرة فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها وفسادها
يكون فسادها وشقاؤها ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكبذب بالحسنى وفساد
قوة الحب والارادة يوجب له ترك الاعطاء وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الانقاء
فاذا كملت قوة حبسه وارادته باعطائه ما أمر به وقوة بغضه ونفرته بانقائه ما نهى عنه
وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الاسلام وحقوقها وجزائها فقد زكى نفسه وأعدّها
لكل حالة يمرى فصارت النفس بذلك ميسرة ليسرى ولما كان الدين يدور على ثلاث
قواعد فعل المأمور وترك المحذور وتصديق الخبر وان شئت قلت الدين طلب وخبر
والطلب نومان طلب فعل وطلب ترك تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها
فالاعطاء فعل المأمور والتقوى ترك المحذور والتصديق بالحسنى تصديق الخبر فانتظم ذلك
الدين كله وأكل الناس من كليات هذه القوى الثلاث ودخول النقص بحسب نقصانها
أو بعضها فمن الناس من يكون قوة اعطائه وبذله أتم من قوة انكفائه وتركه فقوة الترك
فيه أضعف من قوة الاعطاء ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم
من قوة الاعطاء والمنع ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الاعطاء والمنع
فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الارادية وبالعكس فيدخل النقص بحسب ما نقص من
قوة هذه القوى الثلاث وبقوته من التيسير ليسرى بحسب ما فاته منها ومن كليات هذه القوى

يسرى لكل يسرى قال ابن عباس فسيبته له يسرى أن نهىوه لعمل الخير يسرى عليه أعمال
الخير وقال مقاتل والكلي والقرآن يسرى لهعود إلى العمل الصالح وحقيقة اليسرى أنها
الخلقة والحالة السهلة النافعة الواقعة له وهى ضد العسرى وذلك يتضمن يسرى لهخير وأسبابه
فيجسرى الخير ويسرى على قلبه وبدنه وأساته وجوارحه فتصير خصال الخير يسرى عليه مذكاة
له منقاد لا تستعصى عليه ولا تستعصب لانه مهياً لها يسرى لهعملها يسلك سبلها ذللاً وتقاد له
علماء وعلماء فاذ خالته قلت هو الذى قيل فيه

مبارك الطلعة بميمونها * يصلح للدنيا ولدين

وأما من بخل فعمل قوة الارادة والاعطاء عن فعل ما أمر به واستغنى بترك التقوى عن ربه
فعمل قوة الانكشاف والترك عن فعل ما نهى عنه وكذب بالحسنى فعمل قوة العلم والشعور
عن التصديق بالايان وجزائه فسيبته له يسرى قال عطاء سوف أحول بين قلبه وبين الايمان
بي ورسولى وقال مقاتل يسرى عليه أن يعطى خيراً وقال عكرمة عن ابن عباس يسرى للشر
قال الواحدى وهذا القول لان الشر يؤدى الى العذاب فهو الخلقة العسرى والخير يؤدى
الى اليسر والراحة فى الجنة فهو الخلقة اليسرى يقول سفيان بن عيينة يسرى على يديه قال القراء
العرب تقول قد سرت غم فلان انذمت يأتى ولادة وكذلك اذا ولدت وغزرت ألبانها اى
يسرت ذلك على أصحابها انتهى والتيسر للعسرى يكون بأمرين أحدهما أن يحول بينه وبين
أسباب الخير فيجسرى الشر على قلبه وبدنه وأساته وجوارحه والثانى أن يحول بينه وبين الجزاء
اليسر كما حال بينه وبين أسبابه فان قيل كيف قابل اتقى ما استغنى وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه
طرفه من قبل هذا من أحسن المقابلة فان المتسقى لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته الى ربه
انقضاء ولم يتعرض لخطئه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهى عنه فان كان شديد الحاجة والضرورة
الى شخص فانه يتقى غضبه وخطئه عليه غاية الاتقاء ويحاذى ما يكرهه غاية المجاهدة ويعتمد فعل
ما يحببه ويؤثره مقابل التقوى بالاستغناء بنسب الحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه بأن فعل فعل
المستغنى عن ربه لا فعل الفقير المضطر اليه الذى لا ملجأ له الا اليه ولا غنى له من فضله وجوده
وبره طرفه عين فله ما أحله هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشرور
كلها وأسبابها فسبحان من تعرف الى خصائص عبادته بكلامه ونجلي لهم فيه فهم لا يطلبون
أثراً بعد عين ولا يستبدلون الحق بالباطل والصدق باليمين وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل
الخطاب فى مسألة القدر وإزالة كل لبس واشكال فيها وذلك بين بحمد الله عز وجل وفق لفهمه ولهذا
أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم لمن أورد عليه السؤال الذى لا يزال الناس يلجئون به فى القدر
فأجاب بفصل الخطاب وأزال الاشكال فى الصحيحين من حديث على ابن أبى طالب رضى الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد الا وقد علم مقعده من الجنة والنار
قيل يا رسول الله ألا ندع العمل ونسلك على الكتاب قال اعملوا فكل يسرى لما خلق له ثم قرأ
فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسيبته له يسرى وقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية
والجبرية وإثبات القدر والشرع وإثبات الكتاب الاول التضمن لعلم الله سبحانه الاشياء
قبل كونها وإثبات خلق الفعل الجزائى وهو يطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل

مطلقاً ومن أقر منهم بخلق الفعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله ونقض قاعدته والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر بمنزل ما أخبر به الرب تعالى أن العبد ميسر لما خلق له لا يجبور فالجبر لفظ بدعي والتيسير لفظ القرآن والسنة وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين فانهم تلقوها من أعلم الخلق بالله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق وكانوا إذا امتشكوا شيئاً سألوه عنه وكان يجبهم إزيل الاشكال وبيان الصواب فهم العارفون بأصول الدين حقاً لا اهل البدع والاهواء من المتكلمين ومن ذلك سبيلهم وفي الحديث استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل أصول الدين بالقرآن وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ولا يجوز أن تسفد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه وعبر من ذلك بقوله الأدلة القنطرية لا تفيد اليقين وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة ومنهم من خلق للشقاوة خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة ولكن اخبروا الشقاوة ولم يخلقوا لها وفيه اثبات الأسباب وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ومطابقتها له فتأمل قوله أعملوا فكل ميسر لما خلق له ومطابقته لقوله تعالى فأما من أعطى واتقى إلى آخر الآيتين كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبب وهذا الذي أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فطر الله عليه عباده بالحيوان البهيم بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك فلو قال كل أحد أن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناه وأن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله فلا أسعى ولا أتحرك لعدم السفهاء الجهال ولم يمكنه طرد ذلك أبداً وإن اتقى به في أمر معين فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعاً من طعامه وشربه ولباسه ومسكنه وهرابه بما يضاد بقاءه وينافي مصالحه أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم أعملوا فكل ميسر لما خلق له فإذا كان هذا في مصالح الدنيا وأسباب منافعها فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة وأسباب السعادة والفلاح ورب الدنيا والآخرة واحد فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهييه ويستعمل في إرادة العبد وأمره وأمره وشهوته وهل هذا إلا محض الظلم والجهل والإنسان ظلوم جهول ظلم نفسه جهول بربه فهذا الذي أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم وتلى عنده هاتين الآيتين موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان البهيم وأرسل به جميع رسله وأرسل به جميع كتبه ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع وتعطلت مصالح العالم وفسد أمر الدنيا والدين وانما يستروح إلى ذلك معطلوا الشرائع ومن خلغ ربة الأوامر والنواهي من عنقه وذلك ميراث من أخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهييه ومارضوا شرهه بقضائه وقدره كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى أذقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرون قل فقله الجفة البالغة فلو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الإلزام المبين وقال تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما هداناهم

مالهم بذلك من علم ان هم الايخرون وقال تعالى واذا قيل لهم اتفقوا بما رزقكم الله قال الذين كفروا الذين آمنوا أنظم من أو يشاء الله أطعمه ان انتم الا في ضلال مبين فان قيل فالاعطاء والتقوى والتصديق بالحسن هي من اليسرى بل هي أصل اليسرى من يسرها للعبد أو لا وكذلك أضدادها قيل الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشرو خلق خلقه قسمين أهل سعادة فيسرهم لليسرى وأهل شقاوة فيسرهم لليسرى واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا الغاياتها لا يصلحون لسواها وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا الغاياتها لا يصلحون لسواها وحكمته الباهرة تأتي أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له كما يأتي أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح له ولا يليق به بل حكمته أحاد خلقه تأتي بذلك ومن جعل محل المسك والرجيع واحدا فهو من أسفه السفهاء فان قيل فلم جعل هذا يليق به الا الكرامة وهذا يليق به الا الاهانة قيل هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب كأنه يقول لم خلق الله كذا وكذا فان قيل وعلى هذا فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يشفي من جهله قيل نعم شأن الربوبية خلق الاشياء وأضدادها وخلق الملزومات ولو ازمها وذلك هو محض الكمالات فالعلم لازم والمزوم للسفل والليل لازم والمزوم للنهار وكال هذا الوجود بالحر والبرد والصبر والغم ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض واختلاف الارادات والمرادات ووجود اللازم بدون لازومه ممنوع ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة ولما ظهرت احكام الاسماء والصفات وظهور احكامها وآثارها لا بد منه اذ هو مقتضى الكمال المقدس والملك التام واذا عطي اسم الملك حقه وان تستطيع علمت ان الخلق والامر والثواب والعقاب والاعطاء والحرمان امر لازم لصفة الملك وان صفة الملك تقتضي ذلك ولا بد وان تعطل هذه الصفة أمر ممنوع فالملك الحق يقتضي ارسال الرسل وانزال الكتب وامر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم واكرام من يستحق الاكرام واهانة من يستحق الاهانة كما تستلزم حياة الملك وعلمه وارادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورجته ورضاه وغضبه واستوائه على مريد ملكه بدبر امر عباده وهذه الاشارة تكفي لليب في مثل هذا الموضع وبطلع منها على ارض موقفة وكنوز من المعرفة وبالله التوفيق

فصل ثم قال تعالى ان علينا الهدي وان لنا للآخرة والاولى قيل معناه ان علينا ان نبين طريق الهدي من طريق الضلال قال فتادة على الله البيان بان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته اختاره ابو اسحق وهو قول مقاتل وجماعة وهذا المعنى حق ولكن مراد الآية شئ آخر وقيل المعنى ان علينا الهدي والاضلال قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء يريد ارشاد اوليائي الى العمل بطاعتي واحول بين اعدائي وبين ان يعملوا بطاعتي قال الفراء فترك ذكر الاضلال كما قال سرايل تقيكم الحرارى والبرد وهذا اضعف من القول الاول وان كان معناه صحيحا فليس هو معنى الآية قبل المعنى من سلك الهدي فعلى الله سبيله كقوله وعلى الله قصد السبيل وهذا قول مجاهد وهو اصح الاقوال في الآية قال الواحدى علينا الهدي اى ان الهدي يوصل صاحبه الى الله والى ثوابه وجنته وهذا المعنى في القرآن في ثلاث مواضع ههنا وفي النحل قوله وعلى الله قصد السبيل وفي الحجر في قوله هذا صراط على مستقيم وهو معنى شريف جليل يدل على ان سالك طريق الهدي يوصله طريقه الى الله ولا بد والهدى

هو الصراط المستقيم فمن سلكه اوصله الى الله فذكر الطريق والغاية فالطريق الهدى والغاية الوصول الى الله فهذه اشرف الوسائل وغايتها اعلی الغايات ولما كان المطلوب السالك الى الله تحصيل مصالح دنياء وآخرته لم يتم له هذا المطلوب الا بتوحيد طلبه والمطلوب منه فاعلم سبحانه ان سواء لاملك من الدنيا والآخرة شيئا وأن الدنيا والآخرة جميعا له وحده فاذا يقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده فتضمنت الايتان اربعة امور هي المطالب العالية ذكر اعلی الغايات وهو الوصول الى الله سبحانه واقرب الطرق والوسائل اليه وهي طريقة الهدى وتوحيد الطريق فلا يبدل عنها الى غيرها وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا يبدل عنه الى غيره فانتبس هذه الامور من مشكاة هذه الكلمات فان هذه غاية العلم والفهم وبالله التوفيق والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع ونخاف الوصول يقع من الشراكة في هذه الامور او في بعضها فان الشراكة في المطلوب تنافي التوحيد والاخلاص والشراكة في الطلب تنافي الصدق والعزيمه والشراكة في الطريق تنافي اتباع الامر بالا ول يوقع في الشرك والرياء والثاني يوقع في المعصية والبطالة والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة فتأمله فتوحيد المطلوب بعصم من الشرك وتوحيد الطلب بعصم من المعصية وتوحيد الطريق بعصم من البدعة والشيطان انما يصب فخره بهذه الطرق الثلاثة ولما اقام سبحانه الدليل وانا السبيل ووضح الجسمة وبين الحجة انذر عباده عذابه الذي اعد له لمن كذب خبره ونولى عن طاعته وجعل هذا الصنف من الناس هم اشقاهم كما جعل الله لهم اهل القوى والاحسان والاخلاص فهذا الصنف هو الذي يحب عذابه كما قال وسجنهن بها الانبياء الذين يؤتى ماله بتركها فهذا المنفى المحسن لا يفعل ذلك الا ابتغاء وجهه فهو مخلص في نقواه واحسانه وفي الآية الارشاد الى ان صاحب التقوى لا ينبغي له ان يفصل من الخلق ونعمهم وان حل منهم شيئا باذنه الى جزائهم عليه لئلا يتسقى لاحد من الخلق عليه نعمة تجزى فيكون بعد ذلك عله كاهل الله وحده ايس جزاء للمخلوق على نعمته ونبيه بقوله تجزى على ان نعمة الاسلام التي لرسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الانبياء لا تجزى فان كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمة الانعمة الاسلام فانها لا يمكن النعم به عليه ان تجزى بها وهذا يدل على ان الصديق اول وأولى من ذكر في هذه الآية وانه احق الامه بها فان عليا رضي الله عنه تربى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة غير نعمة الاسلام يمكن ان تجزى ونبيه سبحانه بقوله الا ابتغاء وجهه وجدر به الاعلى على ان من ايس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله الا ابتغاء وجهه وجدر به الاعلى بخلاف من طرق ذم المخلوقين ومنهم فانه مضطر الى ان يفعل لاجلهم ويترك لاجلهم ولهذا كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لاحد من الناس لتكون معاملته كاهل الله ابتغاء وجهه وطلب مرضاته فكما أن هذه الغايات اعلی وهذا المطلوب اشرف المطالب فهذه الطريق اقصد الطرق اليه واقربها واقومها وبالله التوفيق

فصل ومن ذلك اسماؤه سبحانه بالضحى والليل اذا سمى على انعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم واكرامه له واعطائه ما يرزقه وذلك متضمن لتصديقه له فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة فهو قسم على النبوة والمعاد واقسم بالبين عظيمين من آياته

دالين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما ليل والنهار فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضمى
 الذى يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذى وافاه بعد احتباسه عنه حتى
 قال أمدأوه ودع محمدا ربه فأقسم بضوء النصار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد
 ظلمة احتباسه واحتجاباه وأيضاً فإن ملق ظلمة ليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل
 والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للمقسم وهذان للعقل وايضاً فإن الذى اقتضت رحمته
 ان لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النصار الى مصالحهم ومعائشهم لا يلقى
 به ان يتركهم فى ظلمة الجهل والغى بل يهديهم بنور الوحي والنبوة الى مصالح دنياهم
 وآخرتهم فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه وتأمل هذه الجزالة والروافى الذى
 على هذه الالفاظ والجلالة التى على معانيها ونفى صحتها ان يكون ودع نبيه او قلاه
 فأتوديع الترك والقلى البغض فأتركه منذ اعتنى به واكرمه ولا يفضيه منذ أحبه واطلق
 سبحانه ان الآخرة خير له من الاولى وهذا من كل احواله وان كل حالة برقيه اليها هى خير له مما
 قبلها كما ان الدار الآخرة خير له مما قبلها ثم وعده بانقر به عينه وتفرح به نفسه وينشرح
 به صدره وهو ان يعطيه فيرضى وهذا من ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة
 الاتباع ورفع ذكره واعلاء كلمته وما يعطيه بعد ما يعطيه فى مودة القيامة وما يعطيه
 فى الجنة وامام ما يتر به الجهال من انه لا يرضى وواحد من امنه فى النار او لا يرضى ان
 يدخل احد من امنه النار فهذا من غرور الشيطان لهم واعبه بهم فانه صلوات الله وسلامه
 عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من
 الكفار والعصاة ثم يحذر رسوله حذايشف فيهم ورسوله اعرف به وبحقه من ان يقول لا يرضى
 ان يدخل احداً من أمته النار ان يدعه فيها بل ربه تبارك وتعالى بأذن له فيشفع فيمن شاء الله
 ان يشفع فيه ولا يشفع فى غير من اذن له ورضيه ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من
 ابوائه بعد نفعه وهدايته بعد الضلالة واغنائه بعد الفقر فكان محتاجاً الى من يؤويه
 ويهديه ويغنيه فأواه ربه وهداه واغناه فامر سبحانه ان يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها
 من الشكر فنهاه ان يقهر اليتيم وان ينهر السائل وان يكتم النعمة بل يحدث بها فأوصاه
 سبحانه باليتامى والفقراء والمعلمين قال مجاهد ومقاتل لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً
 وقال القراء لا تنهروه على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذلك كانت العرب تفعل فى أمر
 اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلب الخطاب فى أمر اليتيم وكذلك من لا ناصر له بغلاف
 أمره وهو نهى الجميع المكلفين وأما السائل فلأنه قال أكثر المفسرين هو سائل المعروف
 والصدقة لانهزه اذا سألت فقد كنت فقيراً فاما أن تعلمه واما أن ترده رداً لينا قال الحسن
 اما أنه ليس بالسائل الذى يأتبك ولكن طالب العلم وهذا قول يحيى بن آدم قال اذا جاءك
 طالب العلم فلا تنهروه والتحقيق ان الآية تتناول النوعين وقوله وأما بنعمة ربك فحدث
 قال مجاهد بالقرآن وقال الكلبي بمعنى أظهرها والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فامر أن
 يقربه ويعلمه وروى أبو بشر عن مجاهد حدث بالنبوة التى أعطاك الله وقال الزجاج
 بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التى آتاك وهى أجل النعم وقال مقاتل اشكر هذه

النعمة التي ذكرت في هذه السورة والتحقيق ان النعم تم هذا كله فامر أن لا ينهر سائل
المعروف والعلم وان يحدث بنم الله عليه في الدين والدنيا
فصل ومن ذلك اقسامه سبحانه بالعاديات ضبها والموريات قدحا فالفـ يرات
صبها وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك فقل على ابن أبي طالب وعبد الله بن مسعود
رضي الله عنهما هي ابل الحاج تعدو من عرفة الى مزدلفة ومن مزدلفة الى منى وهذا اختيار
محمد بن كعب وابن صالح وجاعة من المفسرين وقال عبد الله بن عباس هي خيل
الغزاة وهذا قول أصحاب ابن عباس والحسن وجاعة واختاره الفراء والزجاج قال أصحاب
الابل السورة مكية ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد وانما اقسم بما يعرفونه وبألفونه
وهي ابل الحاج اذا عدت من عرفة الى مزدلفة فهي عاديات والضبع والضبع مد الناقة ضبها
في السير يقال ضبعت وضبعت بمعنى واحد وانشد ابو عبيدة وقد اختار هذا القول
فكان لكم اجري جمعها واضبعت * في البازل الوجناء في الال تضبج
قالوا فهي تعدو ضبها فتورى باخفافها النار من حرك الاجار بعضها ببعض فتثير النقع وهو الغبار
بمدوها فيتوسط جمعها وهو المزدلفة قال أصحاب الخيل المعروف في اللغة ان الضبع اصوات
انفاس الخيل اذا عدت والمعنى والعاديات ضابحة فيكون ضبها مصدر اعلى الاول وحالا على
الثاني قالوا والخيل هي التي تضبج في عدوها ضبها وهو صوت يسمع من اجوافها ليس
بالصهيل والحكمة ولكن صوت انفاسها في اجوافها من شدة العدو وقال الجرجاني كـ لا
القولين قد جاء في التفسير الان السياق بدل على انها الخيل وهو قوله تعالى قالوريات قدحا والابرأ
لا يكون الا للحنافر لصلابته واما الخلف ففيه ابن واسترخا انتهى قالوا والضبع في الخيل اظهر
منه في الابل والابرأ اسنابك الخيل اي من لا خفاف الابل قالوا والنقع هو الغبار واثارة الخيل
بمدوها له اظهر من اثاره اخفاف الابل والضمير في به جائد على المكان الذي تعدو فيه قالوا
واعظم ما يثير الغبار عند الاثارة اذا توسطت الخيل جمع العدو لكثرة حركتها واضطرابها
في ذلك المكان واما محل الآية في اثاره الغبار في وادي محسر عند الاثارة فليس بالبين ولا
يثور هناك غبار في الغالب اصلاصة المكان قالوا واما قولكم انهم يكن بكفة حين نزول الآية
جهاد ولا خيل تجاهد فهذا لا يلزم لانه سبحانه اقسم بما يعرفونه من شأن الخيل اذا كانت في غزو
فاثارت فاثارت النقع وتوسطت جمع العدو وهذا امر معروف وذكر خيل المجاهدين احق
ما دخل في هذا الوصف فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص فان هذا شأن خيل المقاتلة
وأشرف انواع الخيل خيل المجاهدين والقسم اتفاق بما تضمنه شأن هذه العاديات من
الآيات الدينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من اكرم الميم واشرفه وهو الذي يحصل
به العزو الظفر والنصر على الاعداء فيعدو طالبا للعدو وهاربة منه فيثير عدوها القبار لشدة
وتورى حوافرها وسانبها النار من الاجار لشدة عدوها فتدرك القارة التي طلبتها حتى يتوسط
جمع الاعداء فهذان اعظم آيات الرب تعالى وادلة قدرته وحكمته فذكرهم بنعمه عليهم في خلق
هذا الحيوان الذي ينتصرون به على اعدائهم ويدركون به ثارهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم
في خلق الابل التي تحمل اثقالهم من بلد الى بلد فالابل اخص بحمل الاثقال والخيل اخص

بنصرة الرجال فذكروهم بنعمه بهذا وهذا وخص الاشارة بالضج لان العدول ينتشروا اذذاك
 ولم يفارقوا محالهم واصحاب الاشارة حادون مستريحون يصرون مواقع الغارة والعدول يأخذوا
 اهبتهم بل هم في غرتهم وغفلتهم ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد الغارة صبر حتى
 يطلع الفجر فان سمع مؤذنا امسك والا فارق ولما علم اصحاب الابل ان اخفافها ابعدها من
 وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة فقال محمد بن كعب هم الحجاج اذا اوقدوا نيرانهم
 ليلة المزدلفة وعلى هذا فيكون التقدير فالجساعات الموريات وهذا خلاف الظاهر وانما
 الموريات هي العاديات وهي المغيرات وروى محمد بن جبير عن ابن عباس هم الذي يغيرون
 فيورون بالابل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم كأنهم اخذوه من قوله تعالى افرأيت النار التي تورون
 وهذا ان اريد به التمثيل وان الآية تدل عليه فصحح وان اريد به اختصاص الموريات فليس
 كذلك لان الموريات هي العاديات بعينها ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب فانها عدت فأورثت
 وقال قتادة الموريات هي الخيل توري نار العدواة بين المقتتلين وهذا ليس بشئ وهو بعيد من
 معنى الآية وسياقها واضعف منه قول عكرمة هي الاشارة توري نار العدواة بعظيم ما تكلم به
 واضعف منه ما ذكره مجاهد في افكار الرجال توري نار المكر والخديعة في الحرب وهذه الاقوال
 ان اريد ان اللفظ دل عليها وانها هي المراد فلفظ وان اريد انها اخذت من طريق الاشارة والقياس
 فامر اقرب وتفسير الناس بدور على ثلاثة اصول تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو اليه المتأخرون
 وتفسير على المعنى وهو الذي يذكروا السلف وتفسير على الاشارة والقياس وهو الذي ينحو اليه
 كثير من الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به بأربعة شرائط ان لا يناقض معنى الآية او ان يكون
 معنى صحيحا في نفسه وان يكون في اللفظ اشعار به وان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم فاذا
 اجتمعت هذه الامور الاربعة كان استنباطا حسنا واضعفا من ذلك كلمة قول ابن جرير قد حابه في
 فالمنجحات امر اريد بالبالغين بنجهم فيما طلبوه وعطف قوله فائرن فوسطن وهما فعلان على
 العاديات والموريات لما فيه من معنى الفعل وكان ذكر الفعل في اثرن ووسطن احسن من ذكر
 الاسم لانه سبحانه قسم افعالنا الى قسمين وسيلة وغاية فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الابراء
 والافارة والعابية هي توسط الجمع وما يتبعه من اثاره النقع فهن عاديات موريات مغيرات حتى
 يتوسطن الجمع ويثرن النقع فالاول شأنه الذي اعدد له والثاني فعله الذي انتهين اليه والله اعلم
 فصل في هذا شأن القسم وأما شأن القسم عليه فهو حال الانسان وهو كون الانسان
 كنودا بشهادته على نفسه أو شهادة ربه عليه وكونه بخيلا لحبه المال والكنود للنعمة وفعله كنودا
 يكند كنودا مثل كفر يكفر كفره وراوا الارض الكنود التي لا تبت شيئا وامرأة كندى اى
 كفور لهما عشرة واصل اللفظ منع الحق والخير ورجل كنود اذا كان مانعا لمسا عليه من الحق
 وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى قال ابن عباس رضى الله عنهما واصحابه رحمهم الله تعالى
 هو الكفور وقبل هو البخل الذي يمنع ربه ويبيع عبده ولا يعطى في النأبة وقال الحسن هو
 هو اللوام لربه بعد المصائب وينسى النعم واما قوله وانه على ذلك لشيد فقال ابن عباس يريد ان
 ربه على ذلك لشهد وقيل ان الانسان لشهد على ذلك انكر بلسانه شهد ربه عليه
 حاله ويؤيد هذا القول سياق الضمائر فان قوله وانه لحب الخير لشديد للانسان

فاتضح الخبر عن الانسان بكونه كئودا ثم ثناء بكونه شهيداً على ذلك ثم ختمه بكونه بخيلاً بالله
 لحبه اياه وبؤيد قول ابن عباس رضى الله عنهما انه اثنى على نفعه فقال والله على ذلك لشهيداً على
 مطلع عالم به كقوله ثم الله شهيد على ما يفعلون ولو اراد شهادة الانسان لاثنى بالباء فقبل
 وانه بذلك لشهيد كما قال تعالى ما كان للمشركين ان يعمرؤا مساجد الله شاهدين على انفسهم
 بالكفر فلو اراد شهادة الانسان لقال والله على نفسه لشهيد فان كئوده المشهود به ونفسه
 هي المشهود عليه ثم قال تعالى والله يحب الخير لشديد والخير ههنا المال باتفاق المفسرين والشديد
 البخل من أجل حب المال فحب المال هو الذي حله على البخل هذا قول الاكثرين وقال ابن قتيبة بل
 المعنى انه شديد الحب للخير فتكون اللام في قوله حب الخير متعلقة بقوله شديد على حد اتفاق
 قولك انه يزيد لضارب ومنعت طائفة من النعمان يعمل ما بعد اللام فيما قبلها وهذه الآيات حجة على
 الجواز فان قوله لربه معمول لكئود وقوله على ذلك معمول لشهيد ولا وجه لتكلف البارد
 في تقدير عامل مقدم محذوف بفسره هذا المذكور فالحق جواز ان يزيد لضارب فوصف
 سبحانه الانسان بكفران ثم ربه وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور لانعم ولا محسن الى خلقه
 بل بخيل بشكره بخيل بماله وهذا ضد المؤمن الكريم فانه محض لربه محسن الى خلقه
 فالؤمن له الاخلاص والاحسان والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين
 المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون
 الذين هم يراؤن ويمنون الماعون فالاخلاص والاحسان وكذلك قوله تعالى والله لا يحب
 كل مختال فخور الذين يخولون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله
 فاخثياله وفخره من كفره وكئوده وهذا ضد قوله الذين يؤمنون بالغيب ويتقون الصلاة
 وعمارز قناهم ينفقون وقوله وعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً الآية وكذلك
 ذكر الخلقين الذميين في قوله الذين ينفقون اموالهم راء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم
 الآخر ونظيره وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا عمارز فهم الله ونظيره ما تقدم
 في سورة البقرة من ذم المستغنى البخل ومدح المعطى المصدق بالحسنى وبكل همة لمزة
 الذي جمع مالا وعدده فان الهمة والتميز من الفخر والكبر وجع المال وتعدد من البخل
 وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما ثم خوف سبحانه الانسان الذي هذا وصفه
 حين يبعث ما في القبور ويحصل ما في الصدور اى ميز وجع وبين واظهر ونحو ذلك وجع
 سبحانه بين القبور والصدور كما جمع بينهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ملائكة الله أجوافهم
 وقبورهم ناراً فان الانسان يوارى صدره ما فيه من الخير والشر ويوارى قبره جمعه فبخرج
 الرب جمعه من قبره وسره من صدره فبصير جمعه بارزاً على الارض وسره بادياً على وجهه
 كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وقال سبحانه على الخراطوم

﴿ فصل ﴾ ونفع العلم ان هلت فيه وكسرت لمكان اللام وقيد سبحانه كونه خبيراً بهم
 ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت ابداً بالجزاء وانه يجازيهم في ذلك اليوم بما عمل به منهم
 فذكر العلم والمراد لازمه والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿ فصل ﴾ ومن ذلك اقسامه بالعصر على حال الانسان في الآخرة وهذه السورة على غاية

اختصارها لها شأن عظيم حتى قال الشافعي رحمه الله لو فكر الناس كلهم فيها لكانت لهم والعصر
المقسم به قبل هو اول الوقت الذي يلي المغرب من النهار وقبل هو آخر ساعة من ساعاته وقبل المراد
صلاة العصر واكثر المفسرين على انه الدهر وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصر امر معروف
في لغتهم قال وان يلبث العصر ان يوم وليلة * اذا طلبا ان يدركا ماتهما

ويوم وليلة بدل من العصر ان فاقم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه فان مرور الليل
والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على اكل ترتيب ونظام وتعاقبهما
واعندالهما تارة واخذ احد هما من صاحبه تارة واختلافهما في الضوء والظلام والحرو والبرد
وانتشار الحبوب وسكونه وانقسام العصر الى القرون والسنين والاشهر والايام والساعات
ومادونها آية من آيات الرب تعالى وبرهان من براهين قدرته وحكمته فاقم بالعصر الذي هو
زمان افعال الانسان ومحاملها على عاقبة تلك الافعال وجزئها ونبيه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاصلين
وانعالمهم على المعاد وان قدرته كالم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد وان حكمته التي اقتضت
خلق الزمان وخلق الفاصلين وانعالمهم جعلها قسمين خير او شر اتأني ان يسوي بينهم وان لا يجازي
الحسن باحسانه والمعسي بامائه وان يجعل النورين راجعين او خاسرين بل الانسان من حيث هو
انسان خاسر الا من رحمه الله فهداه ووفقه للايمان والعمل الصالح في نفسه وامر غيره به وهذا نظير
رد الانسان الى اسفل سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين
وتأمل حكمة القرآن لما قال ان الانسان لفي خسر ضيق الاستثناء وخصصه فقال الا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ولما قال ثم رددناه اسفل سافلين وسع
الاستثناء وعمه فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يتحل وتواصوا فان التواصي
هو امر الفير بالايمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم يكن كذلك
فقد خسر هذا الربح انصار في خسر ولا يلزم ان يكون في اسفل سافلين فان الانسان قد يقيم
بما يجب عليه ولا يأمر غيره فان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة وقد تكون فرضا
على الاعيان وقد تكون فرضا على الكفاية وقد يكون مستحبا والتواصي بالحق يدخل فيه
الحق الذي يجب والحق الذي يستحب والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب
فهؤلاء اذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسر اولئك الذين قاموا
بما يجب عليهم في انفسهم ولم يأمروا غيرهم به وان كان اولئك لم يكونوا من الذين خسروا
انفسهم واهليهم فطلق الخسار شي والخسار المطلق شيء وهو سبحانه انما قال ان الانسان
لفي خسر ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه انه في خسر وان خسر كما قال
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لقد فرطنا في قراريط كثيرة فهذا نوع تفریط وهو نوع خسرنا
بالسنة الى من حصل ربح ذلك ولما قال في سورة والتين ثم رددناه اسفل سافلين قال الا الذين
آمنوا وعملوا الصالحات فقسم الناس في هذين القسمين فقاموا ولما كان الانسان له قوتان قوة العلم
وقوة العمل وله حالتان حالة يأمر فيها بأمر غيره وحالة يأمر فيها بنفسه استثنى سبحانه
من كل قوته العلمية بالايمان وقوته العملية بالعمل الصالح وانتقاد لامر غيره له بذلك وأمر
غيره به من الانسان الذي هو في خسر فان العبد له حالتان حالة كمال في نفسه وحالة تكميل لغيره

وكماله وتكميله موقوف على أمرين علم بالحق وصبر عليه فتضمنت الآيات جميع مراتب الكمال الانساني من العلم الدافع والعمل الصالح والاحسان الى نفسه بذلك والى أخيه به وانقياده وقوله لمن يأمره بذلك وقوله تعالى وتواصوا بالصبر والحق وتواصوا بالصبر ارشاد الى منصب الامامة في قوة الدين كقوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فبالصبر واليقين نال الامامة في الدين والصبر نوعان نوع بالمقدور كالاصائب ونوع بالمشروع وهذا النوع ايضا نوعان صبر على الاوامر وصبر عن النواهي هذا صبر على الارادة والفعل وهذا صبر عن الارادة والفعل فالأول من الصبر مشترك بين المؤمن والكافر والبر والفاجر لا يثاب عليه لجرده ان لم يقرن به ايمان واختبار قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق ابنته مرها قالت صبر ولنعتسب وقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير وقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا قال وان تصبروا وتتقوا فالصبر بدون الايمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الايمان والتقوى وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور وقال تعالى فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون فأمره أن يصبر ولا ينشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر فانهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ولو حصل لهم اليقين والحق وخفوا واستخفوا فمن قل يقينه قل صبره ومن قل صبره خف واستخف فالموثق الصابر رزين لانه ذولب وعقل ومن لا يقينه ولا صبر خفيف طائش تلعب به الالهواء والشهوات كانه لعب الرياح بالشيء الخفيف والله المستعان

فان فصل في ذلك اقسامه سبحانه بالسماء ذات البروج التي تنزلها الشمس والقمر وفمرت بالنجوم أنواع منها وفمرت بالقصور العظام وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته فان السماء ككرة متشابهة الاجزاء والشكل الكروي لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع بل هو متساوي الجوانب فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل ان يوجد بغير فاعل ويستحيل ان يكون فاعله غير قادر ولا عالم ولا مرید ولا حي ولا حكيم ولا مبين للمفعول وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربا بانشاء قادرا فاعلا بالاختيار طالما بتفاصيله حكيميا مدبره فبروج السماء هي منازلها او منازل السيارة التي فيها من اعظم آياته سبحانه فلها اقسام بها مع السماء ثم اقسام باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه كما ان القرآن يقسم به وعليه ودال على وقوع اليوم الموعود بانفاق جميع الرسل عليه وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأتي ان يتركهم سدى ويخلتهم حبسا ويفر ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على امكانه تاروقه على وقوعه تارة وعلى تنزيهه عما يقول اعداؤه من انه لا يأتي به تارة فالاسماء به عند من آمن بالله كالاقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان ثم اقسام سبحانه بالشاهد والمشهود مطلقين غير معينين واعمال المعاني فيه أنه المدرك والمدرك والعالم والمعلوم والرائي والمرق وهذا ألقى المعاني به وما عدها من الاقوال ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه التخصيص فان قيل فلو جره الارتباط بين هذه الامور الثلاثة انقسم بها قيل هي بحمد الله في غاية الارتباط والاقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وآلهيته

فأقسم بالعالم العلوي وهي السماء وما فيه من البروج التي هي أعظم الامكنة واودعها ثم
 أقسم بأعظم الايام واجلها قدرا الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه ونوابه وعقابه ومجده
 اوليائه واعداؤه والحقك بينهم بعلمه وعدله ثم أقسم بما هو اعظم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهد
 وناسب هذا القسم ذكر اصحاب الاخدود الذين عذبوا اوليائه وهم شهود على ما يفعلون
 بهم والملائكة شهود عليهم بذلك والانباء وجوارحهم تشهد به عليهم وايضا فالشاهد والمطلع
 والرقب والخبر والمشهد وهو المطلع عليه الخبر والمشاهد من نوع الخليقة الى شاهد ومشهود
 وهو اقدار القادرين كما نوعها الى مرئي لنا وغير مرئي كما قال فلا أقسم بما تبصرون
 وما لا تبصرون كما نوعها الى ارض وسماء وليل ونهار وذكر وانثى وهذا التنويع والاختلاف
 من آياته سبحانه كذلك نوعها الى شاهد ومشهود وفيه سر آخر وهو ان من المخلوقات
 ما هو مشهود عليه ولا يتم نظام العالم الا بذلك فكيف يكون المخلوق شاهدا رقيبا
 حفيظا على غيره ولا يصح كون الخالق تبارك وتعالى شاهدا على عباده مطلقا عليهم رقيبا
 وايضا فان ذلك يتضمن القسم بملائكته وانبيائه ورسله فانهم شاهدون على العباد فيكون
 من باب انحاء القسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود وهو القسم به وعليه وايضا
 في يوم القيامة مشهود كما قال تعالى ذلك يوم مجوع له الناس وذلك يوم مشهود يشهده
 الله وملائكته والانس والجن والوحش من آياته والمشهود من آياته وايضا فكلامه
 مشهود كما قال تعالى وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا نشهده ملائكة الليل وملائكة
 النهار فالشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود
 فهو داخل في هذا القسم فالوجه لتخصيصه ببعض الانواع او الاسبان الاعلى سيدل
 القبول وايضا فكتاب الابرار في عليهم يشهده المقربون فالكتاب مشهود والمقربون
 شاهدون والاحسن ان يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان القصد التنبيه على القسم
 به وانه من آيات الرب العظيمة ويبعد ان يكون الجواب قتل اصحاب الاخدود الذين قتلوا
 اوليائه هو عذبهم بالنار ذات الوقود ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب
 الاخدود شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى واوليائه عيانا ولا تأخذهم بهم رافة
 ولا رجة ولا يعبوا عليهم دينسا سوى ايمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات
 والارض وهذا الوصف يقتضي اكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم فعاملوهم بضد ما يقتضي ان يعاملوا
 به وهذا شأن اعداء الله دائما ينقمون على اوليائه ما ينبغي ان يحبوا ويكرموا لاجله كما قال
 تعالى قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان آمننا بالله وما نزل اليانا وما نزل من قبل وان
 اكثركم فاقنوا وكذلك اللوطية تنقمون من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم فقالوا اخرجوهم
 من قريبتكم انهم اناس يتطهرون وكذلك اهل الاشرار ينقمون من الموحدين تجريدهم
 التوحيد واخلاص الدعوة والعبودية لله وحده وكذلك اهل البدع ينقمون من اهل السنة
 تجريد متابعتها وترك ما خالفها وكذلك المعطلة ينقمون من اهل الاثبات اثباتهم لله صفات
 كماله ونعوت جلاله وكذلك الرافضة ينقمون على اهل السنة محبتهم للصباة جميعهم وترضيهم
 عنهم ولا ينهم اباهم وتقديسهم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وتزليلهم منازلهم

التي أنزلهم الله ورسوله بها وكذلك أهل الرأي المحدث يتعمون على أهل الحديث وحزب
الرسول أخذهم بمحدثه وتركهم مخالفة وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبهة من أصحاب الاختود
وبينهم نسب قريب أو بعيد ثم أخبر سبحانه أنما أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق حيث
لم ينوبوا وأنهم أوتوا بعد أن قتلوا أوليائه وعذبوهم بالنار لغفرانهم ولم يعذبهم وهذا غاية
الكرم والجود قال الحسن انظروا إلى هذا الكرم والجود يقتلون أوليائه ويفتنونهم وهو
يدعوهم إلى التوبة والغفرة انظروا إلى كرم الرب تعالى بدهم وهم إلى التوبة وقد قتلوا
أوليائه فمحقوهم بالنار فلا يأس العبد من مغفرته وعفوه ولو كان منه ما كان فلا عداوة
أعظم من هذه العداوة ولا كفر من حرق بالنار من آمن بالله وحده وعبد وحده ومع هذا
فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين ثم ذكر شدة بطشه
وأنة لا يعجزه شيء فإنه هو المبدئ المعيد ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه وهو مع ذلك
الغفور الودود يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحببه فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ومع
ذلك الغفور الودود المتودد إلى عباده بنعمه الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه وهو الودود
أي المحبوب قال البخاري في صحيحه الودود الحبيب والحقيق أن اللفظ يدل على
الامرئ على كونه وإذا لأوليائه مودودا لهم فأحدهما بالوضع والآخر بالزوم فهو
الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه وقال شعيب ابن ربيع ودود ما أنطف اقترا اسم الودود
بالرحم وبالغفور فإن الرجل قديفر لمن أماء ولا يحببه وكذلك قدير رحم من لا يحب والرب تعالى
يفقر لعبد إذا تاب إليه وبرحه ويحببه مع ذلك فإنه يحب التوابين وإذا تاب إليه عبده أحبه
ولو كان منه ما كان ثم قال ذو العرش فأضاف العرش إلى نفسه كما يضاف إليه الأشياء العظيمة
الشريفة وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به بل يدل على غاية
القرب والاختصاص كما يضيف إلى نفسه بدوصفاته القائمة به كقوله ذو القوة ذو الجلال
والاكرام ويقال ذو العزة وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك فلو كان حظ العرش منه حظ
الأرض السابعة لكان لافرق أن يقال ذو العرش وذو الأرض ثم وصف نفسه بالمجيد وهو
المتضمن لكثرة صفات كماله وسعته وعدم احصاء الخلق لها وسعة أفعاله وكثرة خيريه
ودوامه وأمانه ليس له صفات كمال ولا أفعال جيدة فليس له من المجد شيء والمخلوق إنما يصير
مجيدا بأوصافه وأفعاله فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا وهو معطل عن الأوصاف
والأفعال تعالى الله عما يقول المعطلون علوا كبيرا بل هو المجيد الفعال لما يريد والمجد في لغة
العرب كثرة أوصاف الكمال وكثرة أفعال الخير واحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد كما قالت
الملائكة ليت الخليل رجلا لله وبركاته عليكم أهل البيت انه جيد مجيد وكما شرع لنا في آخر
الصلاة ان نتن على الرب تعالى بأنه جيد مجيد وشرع في آخر الركعة عند الاستدال أن نقول
ربنا ولك الحمد أهل الشاء والمجد فالمجد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد فالحميد الحبيب
المستحق لجميع صفات الكمال والمجيد العظيم الواسع القادر الفتي ذو الجلال والاكرام
ومن قرأ المجيد بالكرم فهو صفة لعرشه سبحانه وإذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه
أحق بالمجد وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس وقال لم يجمع في صفات الخلق مجيد ثم

خرجها على أحد الوجهين إما على الجواز وإما أن يكون صفة لربك وهذا من قلة بضاعة
هذا القائل فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم وهو نظير الحمد ووصفه بالعظمة فهو صفة
سبحانه مطابق لوصفه بالعظمة والكرم بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك لسمته
وحسنه وبهاء منظره فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجله واجمه لصفات الحسن وبهاء
المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ولا يقدر قدر عظمتة وحسنه وبهاء منظره إلا الله ومجده
مستفاد من مجد خالقه ومبدعه والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي الذي بين
يديه تحلقة ملقاة في أرض فلاة والكرسي فيه كتلك الحلقة في القلاة قال ابن عباس السموات
السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس فكيف لا يكون مجيها وهذا شأنه فهو عظيم
كريم مجيد وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجواز أو أنه صفة لربك فتكلف شديد وخروج
عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك وقوله فعال لما يريد دليل على أمور أحدها
أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته الثاني أنه لم يزل كذلك لأنه ما في ذلك في معرض المدح والثناء
على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه فلا يجوز أن يكون مادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات
وقد قال تعالى أغن بخلق لمن لا يخلق أفلا تذكرون وما كان من أوصاف كماله ونفوت جلاله لم
يكن حادثا بعد أن لم يكن الثالث أنه إذا أراد شيئا فعليه فإن ما موصولة عامة أي يفعل كلما يريد
أن يفعله وهذا في إرادته المتعلقة بفعله وإما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر
فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلام بوجود الفعل وإن أرادته حتى يريده
من نفسه أن يجعله فاعلام هذه هي الشكوة التي خفيت على القدرية والجبرية وخبطوا في مسألة
القدر لغفلتهم عنها فإن هنا إرادتين إرادة أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله الرب فاعلام ليسا
متلازمين وإن زعم من الثانية الأولى من غير عكس فبأن أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له
أسباب الفعل فقد أراد فعله وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل فلا
يوجد الفعل فإن اعتناص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فإنظر إلى قول النبي صلى
الله عليه وسلم حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة قد أردت منك أهون من هذا وأنت
في صلب أهلك أن لا تشترك بي شيئا ولم يقع هذا المراد لأنه لم يرد من نفسه إطاقة عليه وتوفيقه
له الرابع أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان فمن أراد أن يفعله فعليه وما فعله فقد أرادته
بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريد فاعلم لما يريد إلا الله وحده الخامس
أثبت إرادة متعددة بحسب الأفعال وإن كل فعل له إرادة تخصه وهذا هو المعقول في
الطهر وهو الذي يعقله الناس من الإرادة فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد
السادس أن كلما صح أن يتعلق به إرادته جاز فعله فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا
وأن يحيى يوم القيامة لفصل القضاء وإن يرى نفسه لعباده وأن يجعل لهم كيف شاء وأن
يخاطبهم ويضحك إليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمنع فعله فإنه فعال لما يريد وأما
يتوقف صحة ذلك على اخبار الصادق به فإذا أخبر به وجب التصديق به وكان رده ردا
لكماله الذي أخبر به عن نفسه وهذا عين الباطل وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو
ما شاء وأثبت ما شاء أمكن فعله وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس وقد

اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة التضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير والمجد التضمن لصفات الكمال والنزاهة عن أضدادها مع محبته والهبة وملكوته السموات والارض التضمن لكمال غناه وسعة ملكه وشهادته على كل شيء التضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الامور وبواطنها واحاطة بصره برئائها وسعته بمسوماتها وعلمه بملوماتها ووصفه شدة البطش التضمن لكمال القوة والعزة والقدرة وقرده بالابداء والامادة التضمن لتوحيد ربوبيته ونصرفه في المخلوقات بالابداء والامادة وانقياده لقدرته فلا يستعصى عليه منها شيء ووصفه بالمغفرة التضمن لكمال جوده واحسانه وغناه ورحمته ووصفه بالودود التضمن لكونه حبيباً الى عبادته محباً اليهم ووصفه بأنة ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه وأن عرشه المختص به الذي لا يليق بغيره أن يستوى عليه ووصفه بالمجد التضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والاحسان والكرم وكونه فعالاً لما يريد التضمن لحبائه وعلمه وقدرته وحسينته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين تكفي من فهمها فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ثم ختمها بذلك فعلمه وعقوبته بمن اشرك به وكذب رسله تحذيراً لعباده من ملوك سبيلهم وان من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته وهو محيط بهم ولا أسوء حالاً ممن هادي من هوى قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه وبكل اعتبار فقال بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط فهذا أعجب ممن كفر بمن هو محيط به وأخذ بناصيته قادر عليه ثم وصف كلامه بأنه مجيد وهو أحق بالمجد من كل كلام كان المنكسر به له المجد كله فهو المجيد وكلامه مجيد وعرشه مجيد قال ابن عباس رضي الله عنهما قرآن مجيد كريم لأن كلام الرب ليس هو كما يقول الكافرون شعروا كسافة وسحر وقد تقدم أن المجد السعة وكثرة الخير وكثرة خير القرآن لا يعلمها الا من تكلم به وقوله في لوح محفوظ أكثر القراء على الجر صفة للوح وفيه اشارة الى ان الشياطين لا يمكنهم التناول به لان محله محفوظ أن يصلوا اليه وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله اننا نحن نزلنا الذكر واتاه لحافظون ووصف محله بالحفظ في هذه السورة فالحمد لله سبحانه حفظ محله وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف والتغيير

فصل ومن ذلك اقسامه سبحانه بالسما والطارق وقد فسره بأنه النجم الثاقب الذي ينقب ضوءه والمراد به الجنس لان نجم معين ومن عينه بأنه الثريا أو زحل فان أراد التمثيل فصحيح وان أراد التخصيص فلا دليل عليه والمقصود انه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته وسمى النجم طارقاً لانه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس فشبهه بالطارق الذي يطرق الناس أو أهله ليلاً قال القراء ما أراك ليلاً فهو طارق وقال الزجاج والمبرد لا يكون الطارق نهارة ولهذا تستعمل العرب الطروق

في صفة الخيال كثيرا كما قال ذو الرمة

الاطرقت حتى هيو ما بذكرها * وأبدى الثريا جنح بالغارب

وقال جرير

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارحني بسلام

ولهذا قيل أول من رد الطيف جرير فلم يزل الناس على قبوله واكرامه كاضيف فالطيف والضيف كلاهما لا يرد وقال الآخر

الاطرقت من آخر الليل زينب * عليك سلام هل لما فات مطلب

فصل في المقسم عليه ههنا حال النفس الانسانية والاعتناء بها واقامة الحفظة عليها وانها لم تترك سدى بل قد امدت عليها من يحفظ عليها اعمالها ويحصى بها فاقسم سبحانه انه ما من نفس الا عليها حافظ من الملائكة يحفظ علمها وقولها ويحصى ما تكسب من خير او شر واختلف القراء في لما فسددها بعضهم وخففها بعضهم فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى الا وهي تكون بمعنى الا في موضعين احدهما بعد ان المخففة مثل هذا الموضع او المثقلة مثل قوله وان كلاما ليوفينهم ربك اعمالهم والثاني في باب القسم نحو سألتك بالله لما فعلت قال ابو علي الفارسي من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة واللام في خبرها هي الفارقة بين ان النافية والخفيفة وما زادت وان هي التي يتلقى بها القسم كما يتلقى بالمثقلة ومن قرأها مشددة كانت ان عنده نافية بمعنى ما وما في معنى الا قال سيويه عن الخليل في قولهم نشدتك بالله لما فعلت قال المعنى الافعلت ثم نبه سبحانه الانسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالبدا فقال فلينظر الانسان ثم خلق اى فلينظر نظر الفكرة والاستدلال ليعلم ان الذي ابتداء اول خلقه من نقطة قادر على اعادته ثم اخبر سبحانه انه خلقه من ماء دافق والدفق صاب الماء يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق فالمدفوق الذي وقع عليه ففعلك كالمكسور والمدفوق المطاوع لفعل الفاعل بقول دفقته فاندفق كما تقول كسرتنه فانكسرو الدافق قيل انه فاعل بمعنى مفعول كقولهم سرعانهم وعيشة راضية وقيل هو على النسب لافعل الفاعل اي ذى دفق وذات ولم يرد الجر يان على الفعل وقيل وهو الصواب انه اسم فاعل على بابه ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق فان اسم الفاعل هو من قام به الفعل سواء فعله هو او غيره كما يقال ماء جار ورجل ميت وان لم يفعل الموت بل لما قام به من الموت نسب اليه على جهة الفعل وهذا غير منكسر في لغة أمة من الامم فضلا عن اوسع اللغات وافصحها واما العيشة الراضية فالوصف بها احسن من الوصف بالرضية فانها اللطيفة بهم فشيء ذلك برضاها بهم كارضوا بها كانوا رضيت بهم ورضوا بها وهذا ابلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله واذا كانوا يقولون الوقت الحاضر والساعة الراهة وان لم يفعل ذلك فكيف يتبع ان يقولوا ماء دافق وعيشة راضية ونبه سبحانه بكونه دافقا على انه ضعيف غير متماسك ثم ذكر محله الذي يخرج منه وهو بين الصلب والترائب قال ابن عباس صلب الرجل وترائب المرأة وهو وضع القلادة من صدرها والولسد بخلف من المائتين جيبا وقيل صلب الرجل وترائبه وهي صدره فيخرج من صلبه وصدره وهذه

الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير اخراجه اللبن الخالص من بين الفرت والدم ثم ذكر الامر المستدل عليه والمعاد بقوله انه على رجعة لقادر اى على رجعه اليه يوم القيامة كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه هذا هو الصحيح فى معنى الآية وفيها قولان ضعيفان أحدهما قول مجاهد على رد الماء فى الاحليل لقادر والثانى قول عكرمة والضحاك على رد الماء فى الصلب وفيها قول ثالث قال مقاتل ان شئت رددته من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الصبا الى النطفة والقول الصواب هو الاول لوجوه أحدها انه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد الثانى ان ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء فى الاحليل الثالث انه لم يأت لهذا المعنى فى القرآن نظير فى موضع واحد ولا انكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه الرابع انه قبل الفعل بالظرف وهو قوله يوم تبلى السرائر وهو يوم القيامة اى ان الله قادر على رجعه اليه حيا فى ذلك اليوم الخامس ان الضمير فى رجعه هو الضمير فى قوله قتله من قوة ولا ناصر وهذا لان انسان قطعاً لالماء السادس انه لا ذكر الاحليل حتى يتبين كون المرجع اليه فلو قال قائل على رجعه الى الفرج الذى صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول ولم يكن أولى منه السابع ان رد الماء الى الاحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة وان كان مقدوراً لرب تعالى ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة ولا هو مما تكلم الناس فيه نفياً وإثباتاً ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وبينه على منكره وهو سبحانه انما يستدل على أمر واقع ولا بد اما قد وقع ووجد أو سيقع فان قيل فقد قال تعالى أحسب الانسان أن ان نجتمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه أن نجعله كغفر البعير قبل هذه ايصافها قولان أحدهما هذا والثانى وهو الارجح أن تسوية بنانه امانته كما كانت بعد مفارقة الدلى فى التراب الثامن أنه سبحانه دعى الانسان الى النظر فيما خلق منه اى رده نظره عن تكذيبه بما أخبر به وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء فى احليله بعد مفارقتها له حتى يدعو الى النظر فيما خلق منه ليستفيع منه صحة امكان رد الماء التاسع انه لا ارتباط بين النظر فى مبدأ خلقه ورد الماء فى الاحليل بعد خروجه ولا يلزم بينهما حتى يجعل أحدهما دليلاً على امكان الآخر بخلاف الارتباط الذى بين المبدأ والمعاد والخلق الاول والخلق الثانى والنشأة الاولى والنشأة الثانية فانه ارتباط من وجوه عديدة ويلزم من امكان أحدهما امكان الآخر ومن وقوعه صحة وقوع الآخر فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر العاشر انه سبحانه به بقوله ان كل نفس لها عليها حافظ على انه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصىه فلا يضيع منه شئ ثم نبه بقوله انه على رجعه لقادر على بعثه جزائه على العمل الذى حفظ واحصى عليه مذكر شأن مبدأ عمله ونهايته فبدؤه بحفظ عليه ونهايته الجزاء عليه ونبه على هذا بقوله يوم تبلى السرائر اى تختبر وقال مقاتل تظهر وتبدو وبلوت الشئ اذا ختبرته ليظهر لك باطنه وما خفى منه والسرائر جمع سريرة وهى سرائر الله التى بينه وبين عبده فى ظاهره وباطنه لله فالإيمان من السرائر وسرائره من السرائر فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيراها من شرها وموداها من مضيقها وما كان لله عالم يكن له قال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما بدى الله يوم

القيام بكل سر فيكون زينا في الوجوه وشينا فيها والمعنى تختبر السرائر باظهارها واظهار
مقنناتها من الثواب والعقاب والحمد والذم وفي التعبير عن الاعمال بالمرادفة وهو ان الاعمال
تتأخر السرائر بالباطنة فمن كانت سريره صالحة كان عمله صالحا فتبدو سريره على وجهه
نورا واشراقا وجيا ومن كانت سريره فاسدة كان عمله قابعا لاسريره لا اعتبار بصورته
فتبدو سريره على وجهه سوادا وظلمة وشينا وان كان الذي يبدو عليه في الدنيا انما هو عمله
لاسريره فيوم القيامة تبدو عليه سريره ويكون الحكم والظهور لها قال الشاعر
كان لها في مضمير القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

ثم اخبر سبحانه عن حال الانسان في يوم القيامة انه غير ممنوع من عذاب الله لا بقوة منه ولا بقوة
من خارج وهو الناصر فان العبد اذا وقع في شدة فاما ان يدفعها بقوته او قوة من ينصره
وكلاهما معدوم في حقه ونظيره قوله سبحانه لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم متناصرون
ثم اقسم سبحانه بالسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع فاقسم بالسماء ورجعها بالمطر
والارض وصدعها بالنبات قال الفراء تبدى بالمطر ثم رجع به في كل عام وقال أبو اسحق الرجع
المطر لانه يجرى ويرجع ويكرر وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما تبدى بالمطر ثم رجع به
في كل عام والتحقيق ان هذا على وجه التمثيل ورجع السماء هو اعطاء الخير الذي يكون من جهتها
حالا بعد حال على مرور الأزمان رجعها كما اى تعطيه مرة بعد مرة والخير كله من قبل السماء
يجرى ولما كان اظهر الخير المشهود بالعبان المطر فمر الرجع به وبحسن تفسيره به مقابلته بصدع
الارض عن النبات وفسر الصدع بالنبات لانه بصدع الارض اى يشقها فاقسم سبحانه بالسماء
ذات المطر والارض ذات النبات وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته
واقسم على كون القرآن حقا وصدقا قال انه لقول فصل وحاهو بالهزل كما اقسم في اول السورة
على حال الانسان في مبدئه ومعاده والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل
فيميز هذا من هذا ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ومصعب الفصل الذى يفصل عنده المراد
ويتميز من غيره كما يقال اصاب الفصل واصاب المرء اذا اصاب بكلامه نفس المعنى المراد منه فصل
الخطاب وايضا قاله الفصل ببيان المعنى ضد الاجال فكون القرآن وصلا يتضمن هذه
المعاني كلها ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل وجدا ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الذى
لا حقيقة له وهو الباطل والهز قابل بين الفصل والهزل وانما يكيد الكاذبون ويحيلون
ويخادعون لردده ولا يردونه بحجة والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده وكيد
سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون والاملاء لهم حتى يأخذهم على غرة كما قال تعالى
وأمل لهم ان كبدى متين فالانسان اذا اراد أن يكيد غيره يظهر له اكرامه واحسانه اليه
حتى يطمئن اليه فيأخذهم كما يفعل المالك فاذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه فكان
كيد الله لهم حسنا لا قبح فيه فيعطيه ويعافيهم وهو يستدرجهم حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذهم
بغتة ثم قال فعمل الكافرين أمولهم رويدا أى أنظرهم قليلا ولا تستجبل لهم والرب تعالى هو الذى
يمهلهم وانما خرج الخطاب لرسول على جهة التهديد والوعيد لهم او على معنى انظر بهم قليلا
ورويدا فى كلامهم يكون اسم فعل فينصب بها الاسم نحو رويدا زيدا أى خله وأمهله وارفق به

الثاني ان يكون مصدرا مضاعفا الى المفعول نحو - ورويد زيد أى ادهال زيد نحو ضرب
الرقاب الثالث ان يكون نعتا منصوبا نحو - وقلت ساروا رويدا تقول العرب ضعه
رويدا أى وضعه رويدا وفي حديث عائشة في خروج النبي صلى الله عليه وسلم بالليل
من عندها الى البقيع فخرج رويدا واجاف الباب رويدا ويجوز في هذا الوجه وجهان
احدهما ان يكون حالا والثاني ان يكون نعتا لمصدر محذوف فان اظهرت المنعوت نعين الوجه
الثاني ورويد في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث والله أعلم

فصل في من ذلك اقسامه بالشفق والليل وما سبق والقمر اذا اتسقى فأقسم بثلاثة اشياء
متعلقة بالليل أحدها الشفق وهو في اللغة الحجرة بعد غروب الشمس الى وقت صلاة العشاء الآخرة
وكذلك هو في الشرع قال الفراء والبيث والزجاج وغيرهم الشفق الحجرة في السماء وأصل
موضوع الحرف رق الشئ ومنه شئ شفق لانما سلك له لرقته ومنه الشفقة وهو الرقة
وأشفق عليه اذا رقى له وأهل اللغة يقولون الشفق بقية ضوء الشمس وجرت لها ولهذا كان
الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بضيوبته هو الحجرة فان الحجرة لما كانت
بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حد الوقت المغرب فاذا ذهبت الحجرة بعدت الشمس
عن الافق فدخل وقت العشاء وأما البياض فانه يمتد وقته بطول ليله ويكون
حاصلا مع بعد الشمس عن الافق ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال الشفق
الحجرة والعرب تقول ثوب مصبوع كأنه الشفق اذا كان احمر حكام الفراء وكذلك قال
الكوفي الشفق الحجرة التي تكون في المغرب وكذلك قال مقاتل هو الذي يكون
بعد غروب الشمس في الافق قبل الظلمة وقال عكرمة هو بقية النهار وهذا يحتمل
ان يريد به ان تلك الحجرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار وقال مجاهد هو النهار
كله وهذا ضعيف جدا وكأنه لما رأى قلبه بالليل وما سبق عن انه النهار وهذا ليس بلازم
الثاني قسمه بالليل وما سبق أى وما ضم وحوى وجع والليل وما ضم - وما آية
أخرى والقمر آية وانساقه آية أخرى والشفق يتضمن ادبار النهار وهو آية واقبال الليل
وهو آية أخرى فان هذا اذا أدبر خلفه الآخر يتعاقبان لمصالح الخلق فادبار النهار آية
واقبال الليل آية وتعب أحدهما الآخر آية والشفق الذي هو متضمن الامرين آية والليل آية
وما حواه آية والليل آية وتزايد كل ليلة آية وانساقه وهو امتلاؤه نورا آية ثم اخذه
في النقص آية وهذه وامثالها آيات دالة على ربوبيته مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا
شرع عند اقبال الليل وادبار النهار ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب وفي الحديث اللهم هذا اقبال
ليلك وادبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر
عند ادبار الليل واقبال النهار ولهذا بقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله والليل اذا دبر والصبح
اذا أفر وهو يقابل اقسامه بالشفق ونظيره اقسامه بالليل اذا شعس والصبح اذا تنفس
ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عند كل واحد من طرفي اقبال الليل والنهار وادبارهما
ما يحسنه ويبث من خلقه ما شاء فينشر الارواح الشيطانية عند اقبال الليل وينشر الارواح
الإنسانية عند اقبال النهار فحدث هذا الانتشار في العالم اثره شرع سبحانه في هذين الوقتين

هاتين الصلاتين العظيمتين مع ما في ذلك من ذكره عندهاتين الآيتين المتعاقبتين وعند اصرام احدهما واتصال الاخرى بها مع ما بينهما من التضاد والاختلاف وانتقال الحيوان عند ذلك من حال الى حال ومن حكم الى حكم وذلك مبدأ ومعاد يومى مشهود للخلق كل يوم وليلة فالحيوان والتبات في مبدأ ومعاد وزمان العالم في مبدأ ومعاد أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير

فصل وقوله لتركن طبقا عن طبق الظاهر انه جواب القسم ويجوز ان يكون من القسم المحذوف جوابه وتركن وما بعده مستأنف وقرئ لتركن بضم الباء للجمع وبفتحها فمن قطعها فالخطاب عنده للانسان اى لتركن أيها الانسان وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وقيل ليست الياء للخطاب ولكنها للغبية اى لتركن السماء طباقا عن طبق ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس الا فمن جعل الكناية للسماء قال المعنى لتركن السماء حالا بعد حال من حالاتها التى وصفها الله تعالى من الانشقاق والانفطار والطى وكونها كالمهل مرة وكالدهان مرة ومورائها ونفخها وغير ذلك من حالاتها وهذا قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ودل على السماء ذكر الشفقى والقمر وعلى هذا فيكون قسما على المعاد وتغيير العالم ومن قال الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فله ثلاث معان لتركن سماء بعد سماء حتى تنتهى الى حيث يصعدك الله هذا قول ابن عباس فى رواية مجاهد وقول مسروق والشعبي قالوا والسماء طبقى ولهذا يقال للسموات السبع الطباق والمعنى الثانى لتصعدن درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة ورتبة بعد رتبة حتى تنتهى الى محل القرب والرفى من الله والمعنى الثالث لتركن حالا بعد حال من الاحوال المختلفة التى نقل الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه وادلة العدو عليه نارة وغناه وفقره وغير ذلك من حالاتها التى تنقل فيها الى أن بلغ ما بلغه اياه ومن قال الخطاب للانسان أو لجملة الناس فالعنى واحد وهو تنقل الانسان حالا بعد حال من حين كونه نقطة الى مستقره من الجنة او النار فيكم بين هذين من الاطباق والاحوال للانسان واقوال المفسرين كلها تدور على هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لتصيرن الامور حالا بعد حال وقيل لتركن ايها الانسان حالا بعد حال من النطفة الى العلقة الى المضغة الى كونه حيا الى خروجه الى هذه الدار ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره ثم ركوبه بعد ذلك طبقا آخر وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الاشدة ثم طبق الشيخوخة ثم طبق الهرم ثم ركوبه طبق ما بعد فى البرزخ وركوبه فى انشاء هذه الاحوال طباقا عديدة لا يزال ينتقل فيها حالا بعد حال الى دار القرار فذلك آخر أطباقه التى يعلمها العباد ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء واختار ابو عبيدة قراءة الضم وقال المعنى بالناس اشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم فانه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمنه وشماله ثم ذكر بعدها قوله فالهم لا يؤمنون فذكر كونهم طبقا بعد طبق قال الواحدى وهذا قول اكثر المفسرين قالوا لتركن حالا بعد حال ومنزلا بعد منزل وامر ابعدا من قال يعيد بن جبير وابن زيد لتكون فى الآخرة بعد الاولى ولتصيرن اغنياء بعد الفقرو فقراء بعد الغناء وقال عطاء شدة بعد شدة وقال ابو عبيدة لتركن سنة من كان قبلكم فى الكذب والاختلاف على الرسل وانت اذا تأملت هذا المقسم به

والقسم عليه وجده من اعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه العالم وتصريفه له كيف اراد ونقله اياه من حال الى حال وهذا محال ان يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له ومحال ان يكون فاعله غير قادر ولاحي ولامريد ولا حكيم ولاعليم وكلاهما في الامتناع سواء فالقسم به وعليه من اعظم الادلة على ربوبيته وتوحيده وصفات كماله وصدقه وصدق رسله وعلى المعاد ولهذا عقب ذلك بقوله قالهم لا يؤمنون انكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لدلوها اثم استلزام وانكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك بأنصح عبارة وأبينها واجزلهاء واجزها فالعنى اشرف معنى والعبارة اشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة بل الذين كفرا يكذبون ولا يصدقون بالحق سجودا وعنادا والله اعلم بما يضمرون في صدورهم ويكتونه وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعده الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون

فصل ومن ذلك قوله سبحانه فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل اذا سمسس والصبح اذا تنفس أقسم سبحانه بالنجوم في احوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها هذا قول على وابن عباس وطاعة المفسرين وهو الصواب والخنس جمع خانس الانقباض والاختفاء ومنه سمى الشيطان خناسا لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه ومنه قول ابي هريرة فان خنس والكنس جمع كنس وهو الداخل في كنانة اى في بيته ومنه تكسبت المرأة اذا دخلت في هودجها ومنه كنست الظباء اذا أوت الى اكناسها والجوارى جمع جارية كغاشية وغواش قال على ابن ابي طالب رضى الله عنه النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم قالوا الكواكب تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى وتكنس في وقت غروبها ومعنى تخنس على هذا القول تأخر عن البصر وتوارى عنه باختفاء النهار لها وفيه قول آخر وهو ان خنوسها رجوعها وهى حركتها الشرقية فان لها حركتين حركة بفعلا وحركة بنفسها فتحنوسها حركتها بنفسها راجعة وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب وهى السيارة وهذا قول القراء وفيه قول ثالث وهو ان خنوسها كونها اختفاؤها وقت مغيبها فتغيب في مواضعها التى تغيب فيها وهذا قول الزجاج ولما كان للنجوم حال ظهر وحال اختفاء وحال جريان وحال غروب أقسم سبحانه بها في احوالها كلها ونبه بخنوسها حال ظهورها لان الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ولا يقال لم لا يزال مختفيا انه قد خنس فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا وخنوسها وظهورها واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع فالطلوع اول جريانها فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفاءها وذلك من آياته ودلائل ربوبيته وليس قول من فسرهما بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه احدها ان هذه الاحوال في الكواكب السيارة اعظم آية وهبة الثانية اشراك أهل الارض في معرفته بالمشاهدة والعيان الثالث ان البقر والظباء ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان مطلقا بل لانزال ظاهرة في الفلوات الرابع ان الذين فسرُوا الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء قال الواحدى هو من الخنس فى الانف وهو تأخر الارنبه وقصر القصبه والبقر والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء والظبي أخنس ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها ومعلوم ان هذا أمر خفى

يحتاج الى تأمل وأكثرت الناس لا يعرفونه وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون الا ظاهرة جليلة
 يشترك في معرفتها الخلائق وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال
 في أنف ابن آدم فالآية فيه أظهر الخامس ان كنوسه في اكنتها ليس بأعظم من دخول الطير
 وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوى فيه ولا ظهر منه حتى تعين للقسم السادس انه لو كان
 جمعا للظبي لقال الخنس بالتسكين لانه جمع جمع أخنس فهو وكأجر وجر ولو اراد به جمع بقرة
 خنساء لكان على وزن فعلاء ايضا كحمراء وجر فلما جاء جمعه على فعل بالتشديد استحال أن يكون
 جمعا لواحد من الظباء والبقر وتعين ان يكون جمعا لخانيس كشاهد وشهد وصائم وصوم
 وقائم وقوم ونطارها السابع انه ليس بالبين اقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان وليس هذا
 حرف القرآن ولامادنه وانما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه كما انه لما أقسم بالنفس وأقسم
 بأعلاها وهي النفس الانسانية ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله وهو القرآن ولما أقسم
 بالملويات أقسم بأشرفها وهي السماء وشمسها وقمرها ونجومها ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه
 وهو الليالي العشر واذا أراد سبحانه ان يقسم بغير ذلك ادرجه في العموم كقوله فلا أقسم
 بما تبصرون وما لا تبصرون وقوله والذكر والانثى في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ونحو ذلك الثامن ان اقتران القسم بالليل والصبح يدل على انها النجوم والافليس باللائق
 اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد وبهذا احتج ابو اسحق على انها النجوم
 فقال هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش التاسع انه لو اراد ذلك سبحانه ليقينوا ذكر
 ما يدل عليه كما انه لما اراد بالجواري السفن قال ومن آياته الجوار في البحر كالعظام وهنا
 ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على انها البقر والظباء وفيه ما يدل على انها النجوم من الوجوه
 التي ذكرناها وغيرها العاشر ان الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للمساكين ورجوم
 للشياطين وبين المقسم عليه وهو القرآن الذي هو هدى للعالمين وزينة للقلوب وداحض لشبهات
 الشيطان اعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن والله اعلم

فصل واختلف في خمسة الليل هل هي اقبال ام ادباره فلا يكثر على ان خمسة
 بمعنى ولي وذوهاب وادبر هذا قول علي وابن عباس واصحابه وقال الحسن اقبل بظلامه وهو
 احدى الروايتين عن مجاهد فزرحم الاقبال قال أقسم الله سبحانه وتعالى باقبال الليل واقبال النهار
 فقوله والصبح اذا نفث مقابل الليل اذا خمسة قالوا لهذا أقسم الله بالليل اذا بغنى والنهار
 اذا نجلى وبالصبح قالوا فغشيان الليل نظير خمسة ونجلى النهار نظير نفس الصبح اذ هو مبدؤه
 وأوله ومن رجع انه ادباره احتج بقوله تعالى كلا والقمر والليل اذا دبر والصبح اذا أسفر فأقسم
 بادبار الليل واسفر الصبح وذلك نظير خمسة الليل ونفث الصبح قالوا والاحسن أن يكون
 القسم بانصرام الليل واقبال النهار فانه عقيقه من غير فصل فهذا اعظم في الدلالة والعمارة بخلاف
 اقبال الليل واقبال النهار فانه لم يعرف القسم في القرآن بهما ولان بينهما زمانا طويلا فالآية
 في انصرام هذا ومجيئ الآخر عقيقه بغير فصل ابلغ فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وادباره
 وحالة قوة هذا وانفسه واقباله بطرد ظلمة الليل بنفسه فكلمنا بنفسه هرب الليل وادبر
 بين يديه وهذا هو القول والله اعلم

فصل ثم ذكر سبحانه المقسم عليه وهو القرآن وأخبر أنه قول رسول كريم وهو ههنا جبريل قطعاً لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما عينه به وأما الرسول الكريم في الحاقه فهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نفي بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله فقال وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون فاضافه إلى الرسول المسمى تارة وإلى البشري تارة واضافه إلى كل واحد من الرسولين اضافة بتبليغ الاضافة انشاء من عنده والا تناقضت النسبتان ولفظ الرسول يدل على ذلك فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم وأن كلامهما بلغه عن الله فهو قوله مبلغة وقول الله الذي تكلم به حقاً فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً في هاتين الآيتين بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى وأنه ليس لرسولين الكريمين منه إلا التبليغ فجبريل سمعه من الله ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ووصف رسول الله المسمى في هذه السورة بأنه كريم قوى مكين عند الرب تعالى مطاع في السموات أمين فهذه خمس صفات تضمن نزكية سنة القرآن وأنه سماح محمد من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين فناهيك بهذا السند علو وجلالة قول الله سبحانه بنفسه نزكيته الصفة الأولى كون الرسول الذي جاء به إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريماً ليس كما يقول أعداؤه أن الذي جاء به شيطان فإن الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير باطنه أقبح من ظاهره وظاهره أشنع من باطنه وليس فيه ولا عنده خير فهو بعد شيء من الكرم والرسول الذي أتى القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريم جليل المنظر بهي الصورة كثير الخير طيب مطيب معلم الطيبين وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان ور فيه وما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي الوصف الثاني أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر علمه شديد القوى وفي ذلك تنبيه على أمور أحدها أنه يقوته يمنع الشياطين أن تدنونه وإن ينالوا منه شيئاً وإن يزدوا فيه وينقصوا منه بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه الثاني أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضده ومواده وناصر كما قال تعالى وإن نظاهراً عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ومن كان هذا القوى وليه ومن أنصاره وأعدائه ومعلمه فهو المهدي المنصور والله هاديه وناصره الثالث أن من مادي هذا الرسول فمقدمادي صاحبه وولي جبريل ومن مادي ذا القوة والشدة فهو حرسه لهلاك الأربع أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ولا يعجز عن ذلك مودله كما أمر به لأماته فهو القوى الأمين واحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غير ها فأنما ينتدب له القوى عليه الأمين على فعله وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً عظيماً ذا مكانة عنده مطاعاً في الناس كما وصف عبده جبريل بهذه الصفات وهذا يدل على عظمت شأن المرسل والرسول والرسالة والمرسل إليه حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده المطاع في الملأ الأعلى الأمين حتى الأمين فإن الملوك لا ترسل في مهماتهم إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية وقوله عند ذي العرش مكين أمي له مكانة ووجاهة عنده وهو أقرب الملائكة إليه وفي قوله عند ذي العرش إشارة إلى علو منزلة جبريل إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه وفي قوله مطاع ثم إشارة

الى أن جنوده واعوانه يطيعونه اذ اندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم
وفيه اشارة أيضا الى أن هذا الذي تكذبونه وتصادونه سبب مطامع في الارض كما أن
جبريل مطاع في السماء وان كلام الرسلين مطاع في محله وقومه وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة
الملوك المطاعين في قومهم فلم يندب لهذا الامر العظيم الا مثل هذا الملك المطاع وفي وصفه
بالامانة اشارة الى حفظه ما حمله وأدائه على وجهه ثم تزه رسول البشري وزكاه عما
يقول فيه أعداءه فقال وما صاحبكم بمجنون وهذا أمر يعلمونه ولا بشكون فيه وان قالوا
بألسنتهم خلافة فهم يعلمون انهم كانوا كاذبين ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل
وهذا يتضمن انه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك البصر لا كما يقوله المتفلسفة
ومن قلدتهم انه العقل الفعال وانه ليس مما يدرك بالبصر وحقيقته عندهم انه خيال موجود
في الاذهان لافي الاعيان وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأنبياءهم وخرجوا به عن جميع الملل
ولهذا كان تقرير رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى
فان رؤيته لجبريل هي أصل الايمان الذي لا يتم الا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعاً وأما
رؤيته لربه تعالى فتأنيها أن تكون مسألة نزاع لا يكثر جاحدها بالاتفاق وقد صرح جماعة
من الصحابة بأنه لم يره وحسبى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك فمن الى
تقرير رؤيته لجبريل اخرج منسأ الى تقرير رؤيته لربه تعالى وان كانت رؤية الرب أعظم من
رؤية جبريل ومن دونه فان النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة ثم تزه رسوليه كليهما احدهما
بطريق النطق والثاني بطريق الزوم ما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو والضنة
والجمل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة فقال وما هو على الغيب بضنين فان الرسالة
لا يتم مقصودها الا بأمرين ادائها من غير كتمان وادائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان
والقراءتان كالتين قضمت احدهما وهي قراءة الضاد تزبه عن الجمل فان الضنين البطل
يقال ضننت به اضمن بوزن بخلت به البخل ومعناه ومنه قول جيل بن ممر

أجود بمضنون التلاواني * بصرك عن سألني لضنين

قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس بخيل بما نزل الله وقال مجاهد لا يضمن عليهم بما يعلم
وأجمع المفسرون على ان الغيب ههنا القرآن والوحى وقال الفرابي يقول تعالى بأنه غيب السماء وهو
منفوس فيه فلا يضمن به عليكم وهذا معنى حسن جداً فان مادة النفوس الشئ بالشيء النفيس ولا سيما
عن لا يعرف قدره ويذمه ويذم من هو عنده ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحى الذي هو
أنفس شئ وأجله وقال ابو علي الفارسي المعنى بأنه الغيب في دينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم
الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانا وفيه معنى آخر وهو أنه على ثقة من الغيب الذي
يخبر به فلا يخاف ان ينقض ويظهر الامر بخلاف ما أخبر به كما يقع للكاهن وغيرهم عن يخبر بالغيب
فان كذبهم اضعاف صدقهم واذا أخبر احدهم بخبر لم يكن على ثقة منه بل هو خائف من ظهور
كذبه فاقدم هذا الرسول على الاخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو اعظم الغيب واتقاه مقيماً
عليه مبدئاً في كل مجمع ومعيداً منادياً به على صدقه مستجلباً به لاعدائه من اعظم الأدلة على
صدقته وامراً من قرأ بظنين بالظاء فعناه المتهم يقال ظننت زيدا بمعنى اتهمته وليس من الظن

الذي هو الشعور والادراك فان ذلك يتعدى الى مفعولين ومنه ما انشده ابو عبيدة

اما وكتاب الله لامن شهادة * هجرت ولكن الحب ظنين

والمعنى وما هذا الرسول على القرآن بتهمة بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص وهذا يدل على ان الضمير يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم لانه قد تقدم وصف الرسول المسمى بالامانة ثم قال وما صاحبكم بمجنون ثم قال وما هو اى وما صاحبكم بتهمة ولا بخيل واختار ابو عبيدة قراءة الظاهر للمعنيين احدهما ان الكفار لم يخجلوه وانما اتهموه فبنى التهمة الاولى من فنى الخجل الثانى انه قال على الغيب ولو كان المراد الخجل لقال بالغيب لانه يقال فلان ضنين بكذا او قيل ما يقال على كذا قلت ويرجمه انه وصفه بما وصف به رسوله المسمى من الامانة فبنى هذه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين ويرجمه ايضا انه سبحانه فى اقسام الكذب عن كلها عاجباه من الغيب فان ذلك لو كان كذبا ظاهرا لم يكن منه او ممن علمه وان كان منه ظاهرا لم يكن تهمته او لم يتعمده فان كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم وان كان منه مع التعمد فهو المتهم ضد الامين وان كان عن غير تعمد فهو المجنون فبنى سبحانه عن رسوله ذلك كله وزكى سند القرآن اعظم تزكية فلماذا قال سبحانه وما هو بقول شيطان رجيم اى ليس تعلم الشيطان ولا يقدر عليه ولا يحسن منه كما قال تعالى وما تورات به الشياطين وما يذبغى لهم وما يستطيحون فبنى فعله وانفعاه منهم وقد رتهم عليه وكل من له ادنى خبيرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين واحوال الرسل يعلم علما لا يارى فيه ولا يشك بل علما ضروريا كسائر الضروريات منافاة احدهما للآخر ومضادته له كمنافاة احد الضدين لصاحبه بل ظهور المناقاة بين الامرين للعقل ايين من ظهور المناقاة بين النور والظلمة لبعصروا لهذا اوضح سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين فقال ابن تذهبون قال ابو امصق فأى طريق تسلكون ايين من هذه الطريقة التى بينت لكم قلت هذا من احسن الازم وايدنه ان تبين للسامع الحق ثم نقول له ايش نقول خلاف هذا وابن تذهب خلاف هذا قال تعالى فأى حديث بعده يؤمنون وقال فأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون فالامر مختصر فى الحق والباطل والهدى والضلال فاذا حددتم عن الهدى والحق فأين العدول وابن المذهب ونظير هذا قوله فهل حسنت ان تولىتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم اى ان افسدتم عن الايمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس الا لفساد فى الارض والشرك والمعاصى وقطيعة الرحم ونظيره قوله تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى امر مرجح لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرجح عليهم امرهم والتبس فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون بل لا يقواون شيئا الا كان باطلا ولا يفعلون شيئا الا كان ضائعا غير نافع لهم وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل الى المقصود ونظيره قوله تعالى فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل فذلكم الله ربكم الحق فاذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون

فصل ثم اخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين وفى موضع آخر ذكر للمؤمنين وفى موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه وفى موضع آخر ذكر مطلقا

وفي موضع آخر ذكر مبارك وفي موضع آخر وصفه بأنه ذوالذکر ويجمع هذه المواضع
تبيين المراد من كونه ذكراً عاماً وخصوصاً وكونه ذاكراً فانه بذکر العباد بمصالحهم في معاشهم
ومعادهم وبذکرهم بالمبدأ والمعاد وبذکرهم بالرب تعالى واسماؤه وصفاته وافعاله وحقوقه
على عباده وبذکرهم بالخير ليقتصدوه وبالشر ليحذروه وبذکرهم بنفوسهم واحوالها وآفاتهما
وماتكمل به وبذکرهم بعدوهم وما يريد منهم وبما لا يحب تترزون من كبره ومن اى الابواب
والطرق يأتى اليهم وبذکرهم بفاقتهم وحاجتهم اليه وانهم مضطرون اليه لا يستغنون عنه
نفساً واحداً وبذکرهم بنعمه عليهم وبعدهم بها الى نعم أخرى اكبر منها وبذکرهم بأسماءه
وشدة بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رساله وبذکرهم بثوابه وعقابه ولهذا بأمر
سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه كما قال خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون
واذا كان كذلك فأحق أو اولى وأول من كان ذكراً له من أنزل عليه ثم لقومه ثم لجميع العالمين
وحيث خص به المتقين فلا نهم الذين انتفعوا بذكره واماماً وصفه بأنه ذوالذکر فلانه
مشمول على الذکر فهو صاحب الذکر ومنه الذکر فهو ذکر وفيه الذکر كما أنه هدى وفيه الهدى
وشفاء وفيه الشفاء ورحمة وفيه الرحمة وقوله سبحانه لمن شاء منكم ان يستقيم بدل من العالمين
وهو بدل بعض من كل وهذا من احسن ما يستدل به على ان البدل في قوة ذکر حاملين
مقصودين فان جهة كونه ذكراً للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكراً لاهل الاستقامة فانه ذکر للعموم
بالصلاحية والقوة وذكراً لاهل الاستقامة بال حصول والنفع فكما ان البدل اخص من البدل
منه فالعامل المقدر فيه اخص من العامل الملقوط في البدل منه ولا بد من هذا فتأمل
وقوله لمن شاء منكم رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو ان مشيئته مجرد علامة
على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه لا مجرد اقتران عادي من غير ان يكون سبباً فيه وقوله
وما نشاؤن الا ان يشاء الله رد عن القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير ان يكون
على مشيئة الله بل متى شاء العبد الفعل وجد ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد
بل هو بفعله بدون مشيئة الله فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين فان قال الجبري هو سبحانه
لم يقل ان الفعل واقع بمشيئة العبد بل اخبر ان الاستقامة تحصل عند المشيئة ونحن قائلون بذلك وقال
القدرى قوله وما نشاؤن الا ان يشاء الله مختلفة بمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي به يقع ومشيئة
الله لفعله هو أمره بذلك ونحن لا نشكر ذلك فالجواب ان هذا من تحريف الطائفتين اما
الجبري فيقال له اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر
اغراضه التي لا تأثير لها في الفعل فان نسبة جميع اغراضه الى الفعل في عدم التأثير نسبة ارادية
عندك والاقتران حاصل بجميع اغراضه فما الذي أوجب تخصيص المشيئة وهل سوى الله
سبحانه في فطر الناس أو عقولهم أو شرائعهم بين نسبة المشيئة والارادة الى الفعل ونسبة
سائر اغراض الحى اذا كان عندك ليس الا مجرد الاقتران مادة والاقتران العادي حاصل مع
الجميع واما القدرى فحريفة أشد لانه جعل المشيئة على الامر وقال المعنى وما نشاؤن الا بما شاء الله
وهذا باطل قطعاً فان المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك وانما استعملت في مشيئة التكوين
كقوله ولو شاء ربك ما فعلوه وقوله ولو شاء الله ما اقتتلوا وقوله ولو شئنا لآتينا كل نفس

هداها وقوله أُمِّيَاس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ونظائر ذلك مما لا يصح فيه
 حل المشيئة على الامر ألينة والذي دلل عليه الآية مع سائر ادلة التوحيد وادلة العقل
 الصريح ان مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فلم يشأ لم
 يكن ألينة كما ان ما شاء كان ولا بد ولكن ههنا امر يجب التنبيه عليه وهو ان مشيئة الله سبحانه
 تارة تتعلق بفعله وتارة تتعلق بفعل العبد فتعلقها بفعله وهو ان يشاء من نفسه اما ان عبيده
 ونوفيقه ونهيئته للفعل فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته ولا يكتفى في وقوع الفعل بمشيئة
 الله لمشيئة عبده دون ان يشاء فعله فانه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها فيشاء العبد
 الفعل ويريد ولا يفعله لانه لم يشأ من نفسه اطاعته عليه وتوفيقه له وقد دل على هذا
 قوله تعالى وما نشأؤن الا ان يشاء الله رب العالمين وقوله وما يذكرون الا ان يشاء الله
 وهاتان الآيتان منضممتان اثبات الشرع والقدر والاسباب والمسببات وفعل العبد وامتداده
 الى فعل الرب ولكل منهما عبودية مختص بهما عبودية الآية الاولى والاجتهاد واستفراغ
 الوسع والاختيار والسعي وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه والرجاء اليه واستئذان
 التوفيق والعون منه والعلم بأن العبد لا يمكنه ان يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله
 رب العالمين ينظم ذلك كله ويتضمنه لمن عطل احد الامرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها
 وبالله التوفيق

فصل في ذلك قوله تعالى والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا
 فالسابحات سبحا فالمدبرات امرا * فهذه خمسة امور وهي صفات الملائكة فأقسم سبحانه
 بالملائكة الفا حلة لهذه الافعال اذ ذلك من اعظم آياته وحذف مفعول النزاع والنشاط لانه لو
 ذكر ما ننزع وننشط لا وهم التقييده وان القسم على نفس الافعال الصادرة من هؤلاء الغافلين لم
 يتعلق الغرض بذلك المفعول كقوله فأما من اعطى واتقى ونظائره فكان نفس النزاع هو المقصود
 لا هين المنزوع واكثر المفسرين على انها الملائكة التي ننزع ارواح بنى آدم من اجسامهم وهم
 جماعة كقوله توفئرسنا وقوله ان الذين قواهم الملائكة واما قوله قل بثوبا كم لك الموت الذي
 وكل بك فاما ان يكون واحدا وله امر وان اما ان يكون المراد الجنس لا الواحدة كقوله وصدقت
 بكلمات ربها وكتبه وقوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة والاغراق
 في النزاع هو ان يجذب به الى آخره ومنه اغراق النزاع في جذب القوة بأن يبلغ بها غاية المدفعية قال اغرق
 في النزاع ثم صار مثلا لكل من بالغ في فعل حتى وصل الى آخره والفرق اسم مصدر اقيم مقامه كالاعطاء
 والكلام اقيم مقامه الاعطاء والتكلم واختلف الناس على النازعات متعدولا زم فاعلى القول
 الذي حكيناه يكون متعديا وهذا قول على ومسروق ومقاتل وابي صالح وعطية عن ابن
 عباس وقال ابن مسعود هي أنفس الكفار وهو قول قتادة والسدي وعطاء عن ابن عباس
 وعلى هذا فهو فعل لازم وغرقا على هذا معناه نزعا شديدا ابلغ ما يكون واشده وفي هذا
 القول ضعف من وجوه أحدها ان عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة فهي السابحات
 والمدبرات والنازعات الثاني ان الاقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ولا في اللفظ
 ما يدل عليه الثالث ان النزاع مشترك بين نفوس بنى آدم والاغراق لا يختص بالكافر وقال

الحسن النازعات هي النجوم تنزع من المشرق الى المغرب وغرقا وغروبها قال تنزع من
ههنا وتفرق ههنا واختاره الاخفش وأبو عبيدة وقال بجاهد هي شداث الموت وأهواله
التي تنزع الارواح نزما شديدا وقال عطاء وعكرمة هي القسي والنازعات على هذا القول
بمعنى النسب أي ذوات النزع التي ينزع بها الراحي فهو النازع قلت النازعات اسم فاعل من
نزع ويقال نزع كذا اذا اجتذبه بقوة ونزع عنه اذا خلاه وتركه بعدملاسته له ونزع اليه اذا
ذهب اليه ومال اليه وهذا لما توصف به النفوس التي لها حركة ارادية لميل الى الشيء أو الميل
عنه واحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة لان هذه القوة فيها أكل وموضع الآية فيها
أعظم فهي التي تفرق في النزع اذا طلبت ما تنزعه أو تنزع اليه والنفوس الانسانية أيضا لها هذه القوة
والنجوم أيضا تنزع من أفق الى أفق فالنزع حركة شديدة سواء كانت من ملك أو نفس انسانية
أو نجم والنفوس تنزع الى أوطانها والى ما ألفها وعند الموت تنزع الى ربها والملائكة تنزع النفوس
والقسي تنزع بالسهام والملائكة تنزع من مكان الى مكان وتنزع ما وكلت بنزعه والخيل
تنزع في أعتها نزما تفرق فيه الاعنة لطول أعناقها فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة
التي هي آية من آيات الرب تعالى فانه هو الذي خلقها وخلق محلها وخلق القوة والنفوس
التي بها تتحرك ومن ذكر صورة من هذه الصور فلما أراد التمثيل وان كانت الملائكة أحق
من تناولها هذا الوصف فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم فهم النازعات التي تنزع الارواح
من الاجساد والناشطات التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة من قولهم نشط الدلو من
البئر اذا أخرجهما وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأمرع والسباحات التي تسبح في الهواء في
طريق ممرها الى ما أمرت به كما تسبح الطير في الهواء فالسباحات التي تسبح وتسرع الى ما أمرت به
لا تبطئ عنه ولا تتأخر فالمدبرات أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها وهذا أولى الأقوال وقد
روى عن ابن عباس أن النازعات الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف والناشطات
الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بسر وسهولة واختار الفراء هذا القول وقال هي الملائكة
نشط نفس المؤمن فتقبضها وتنزع نفس الكافر قال الواحدى انما اختار ذلك لما بين النشاط والنزع
من الفرق في الشدة واللين فالنزع الجذب بشدة والنشط الجذب برفق ولين والناشطات هي
النفوس التي تنشط لما أمرت به والملائكة أحق الخلق بذلك ونفوس المؤمنين ناشطة
لما أمرت به وقبل السباحات هي النجوم تسبح في الفلك كما قال تعالى كل في ذلك يسبحون وقبل هي
السفن تسبح في الماء وقبل هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة الى ربها قلت
والصحيح انها الملائكة والسياق يدل عليه وأما السفن والنجوم فلما تسمى جارية وجواري
كما قال تعالى ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام وقال جلنا كم في الجارية وقال الجوارى الكنس
ولم يسمها سباحات وان أطلق عليها فعل السباحة كقوله كل في ذلك يسبحون وبدل عليه
ذكره السباحات بعدها والمدبرات بالقاء وذكره الثلاثة الاول بالواو ولان السبق والتدبير
مسبب عن المذكورة قبله فلما تزهت ونشطت وسبحت فسبقت الى ما أمرت به فدبرته ولو كان
السباحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الأدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير
بالقاء فقام له قال مسروق ومقاتل والكلبي فالسباحات سباقها الملائكة قال مجاهد وأبو روق

سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والايان والتصديق قال مقاتل تسبق بأرواح المؤمنين الى الجنة وقال الفراء والزجاج هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي الى الانبياء اذ كانت الشياطين تسترق السمع وهذا القول خطأ لا يخفى فساد اذ يقتضى الاشتراك بين الملائكة والشياطين فى القائه الوحي وان الملائكة تسبقهم به الى الانبياء وهذا ليس بصحيح فان الوحي الذى تأتى به الملائكة الى الانبياء لا تسترقه الشياطين وهم معزولون عن سماعه وان استرقوا بعض ما يسمعون من ملائكة السماء الدنيا من أمـور الحوادث فآله سبحانه صمان وحيد به الى الانبياء أن تسترق الشياطين شيئاً منه وعزلهم عن سمعه ولو ان قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التى تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل القاء الكلمة التى استرقها لكان له وجه فان الشيطان يدبر مسرعا بالقائه الى وليه فتسبقه الملائكة فى نزوله بالشهب الثواب فتملكه وربما أنقذ الكلمة قبل ادراك الشهاب له وفمرت السابقات سبعا بالانفس السابقات الى طاعة الله ومرضاته وأما المديرات أمرا أجمعوا على انه الملائكة قال مقاتل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملوك الموت يدبرون أمر الله تعالى فى الارض وهم المقسمات أمرا قال عبد الرحمن بن سابط جبريل موكل بالرياح والجنود وميكائيل مـوكل بالقطر والنبات وملوك الموت مـوكل بقبض الانفس واسرافيل ينزل بأمر الله عليهم وقال ابن عباس هم الملائكة وكلهم الله بأمر مرفهم العمل بها والوقوف عليها بعضهم ابني آدم يحفظون ويكتبون وبعضهم وكلوا بالامطار والنبات والخسف والمسخ والرياح والمصائب انتهى وقد أخبر ان الله وكل بالرجم ملكا وللرؤيا ملك موكل بها وللجنة ملائكة موكلون بممارتها وعمل آلانها وأوابها وعراسها وفرشها وغارقتها وأرائكها وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإبقاها وغير ذلك فالدنيا وما فيها والجنة والنار والموت وأحكام البرزخ فوكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك ولهذا كان الايمان بالملائكة احد أركان الايمان الذى لا يعم الايمان الابيه وأما من قال انها النجوم فليس هذا من قول أهل الاسلام ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئا من الخلق بل هى مدبرة مخخرة كما قال تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره فآله سبحانه هو المديرة لملائكته لأمرا العالم العلوى والسفلى قال الجرجاني وذكر السابقات والمديرات بالفام ما قبلها بالاولان ما قبلها اقسام مستأنفة وهذا القسم منشأ عن الذى قبلها كما أنه قال فاللانى سجين فسبقن كما تقول قام فذهب أو جب الفاء ان القيام كان سببا للذهاب ولو قلت قام وذهب لم يجعل القيام سببا للذهاب واعترض عليه الواحدى فقال هذا غير مطرد فى هذه الآية لانه بعد أن يجعل السبق سببا للتدبير مع أن السابقات ليست الملائكة فى قول المفسرين قلت الملائكة داخلون فى السابقات قطعا وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل وأما قوله يبعد أن يكون السبق سببا للتدبير فليس كإزعاج بل السبق المبادرة الى تنفيذ ما يؤمر به الملك فهو سبب لفعل الذى أمر به وهو التدبير مع أن الفاء دالة على التعقيب وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ بخلاف الاقسام الثلاثة والله أعلم وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن وأوانه من القسم الذى اريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالقسم به دون أن يراد به مقسم عليه بعينه وهذا القسم يتضمن الجواب

المقسم عليه وان لم يذ كر لفظا ولعل هذا مراد من قال انه محذوف للعلم به انكن هذا الوجه
 اطف مسلكا فان المقسم به اذا كان دالا على المقسم عليه مستلزما استغنى عن ذكره بذكره
 وهذا غير كونه محذوفا لدلالة ما بعده عليه فتأمل له ولعل هذا قول من قال انه انما أقسم
 رب هذه الاشياء وحذف المضاف فان معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه
 فان اقسامه سبحانه بهذه الاشياء لظهور دلالتها على ربوبيته ووحديته وعلمه وقدرته وحكمته
 فالاقسام بها في الحقيقة اقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمل له ثم قرر سبحانه بعده هذا القسم امر المعاد
 ونبوته موسى المستلزما لنبوته محمد صلى الله عليه وسلم اذ من المحال أن يكون موسى نبيا
 ومحمد ليس نبيا مع أن ما ثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه وقرر سبحانه تكليمه
 لموسى بندا له بنفسه فقال اذ ناداه ربه فأثبت المستلزم للكلام والتكليم وفي موضع
 آخر أثبت النجا والنداء والجا نوع من التكليم ومحال ثبوت النوع بدون الجنس ثم امره ان
 يخاطبه بالبين خطاب فيقول له هل لك الى أن تزكي وأهديك الى ربك فخشي نفي هذا
 من لطف الخطاب ولينه وجوه أحدها اخراج الكلام بخرج العرض ولم يخرج بخرج الامر
 والالزام وهو اطف ونظيره قول ابراهيم لصيفه المكرم بين الاثنا تكون ولم يقل كانوا الثاني
 قوله الى أن تزكي والتزكي التمس والتمهارة والبركة والزيادة فعرض عليه أمرا يقبله كل
 قافل ولا يردده الاكل أحق جاهل الثالث قوله تزكي ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية الى نفسه
 وعلى هذا يخاطب الملوك الرابع قوله وأهديك اى كون دليلا لك وهاديا بين يديك فنسب
 الهداية اليه والتزكي الى المخاطب اى كون دليلا لك وهاديا فتزكى انت كما تقول لرجل
 هل لك ان ادلك على كسرتى تأخذ منه ماشئت وهذا احسن من قوله اعطيك الخامس قوله
 الى ربك فان في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهوانه يدعو ويوصله الى ربه فاطره وخالقه
 الذى اوجده ورباه بنعمه جنينا وصغيرا وكبيرا وآثام الملك وهو نوع من خطاب الاستعطاف
 والالزام كما تقول لمن خرج من طاعة سيده الا تطع سيدك ومولاك ومالكك وتقول له ولد
 الا تطيع اباك الذى ربك السادس قوله فخشي أى اذا اهتديت اليه وعرفته خشيته لان من
 عرف الله خافه ومن لم يعرفه لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بعرفته وعلى قدر المعرفة
 تكون الخشية السابع ان في قوله هل لك فائدة لطيفة وهى ان المعنى هل لك في ذلك حاجة
 أو ارب ومعلوم ان كل قافل يبادر الى قول ذلك لان الداعى اغايد عوالى حاجته ومصلحته
 لا الى حاجة الداعى فكأنه يقول الحاجة لك وانت المتزكى وانا الدليل لك والمرشد لك
 الى أعظم مصالحك فقابل هذا بغاية الكفر والعناد وادعى أنه رب العباد هذا وهو يعلم
 أنه ليس بالذى خلق فسوى ولا قدر فهدى فكذب الخبر وعصى الامر ثم أدبر يسبح بالخدعة
 والمكر فحشر جنوده فأجابوه ثم نادى فيهم بأنه ربهم الاعلى واستخفهم بالطمع وه فطش به
 جبار السموات والارض بطشه عزيز مقتدر وأخذ نكال الآخرة والاولى ليصير بذلك
 من يعتبر فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين ثم أقام سبحانه
 جهنم على العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر وأعظم وأعلى وأرفع وهو خلق السماء وبنائها
 ورفع سمكها وتسويتها وظلام ليلاها واخراج ضحاها وخلق الارض ومدها وبسطها

وتهيئتها لما يراد منها وأخرج منها شراب الحيوان وأقوا قنهم وأرسي الجبال فجعلها
رواسي للارض ثلاثين بأهلها وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق
والبهيم فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن اعادة خلقها جديدا فتأمل دلالة القسم به
المذكور في أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور
وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجا إلى جواب والله أعلم

فصل ومن ذلك قوله تعالى والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا
فالفاقرات فرقا فالمقبات ذكر اعذارا أو نذرا إنما توعدون لواقع فسمت الرسائل باللائكة وهو
قول أبي هريرة وابن عباس في رواية مقاتل وجاعة وفسمت بالرياح وهو قول ابن مسعود
واحدى الروایتين عن ابن عباس وقول قتادة وفسمت بالصحاب وهو قول الحسن وفسمت
بالانبياء وهو رواية عطية عن ابن عباس قلت الله سبحانه يرسل الملائكة ويرسل الانبياء
ويرسل الرياح ويرسل الصواب فيسوقه حيث يشاء ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء فارسله
واقع على ذلك كله وهو نوعان ارسال دين يحبه ويرضاه كارسال رسوله وانبيائه وارسال كون وهو
نوعان نوع يحبه ويرضاه كارسال ملائكته في تذكير امر خلقه ونوع لا يحبه بل يخطئه ويغضه
كارسال الشيطان على الكفار فالارسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف فلما أن يكون ضد
المنكر فهو ارسال رسله من الملائكة ولا يدخل في ذلك ارسال الرياح ولا الصواعق ولا
الشياطين وأما ارسال الانبياء فلم أر يد لقال والمرسلين وليس بالفصح تسمية الانبياء مرسلات
وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المأثور من استعمال اللفظ فلم يطق في القرآن جمع ذلك
الاجمع تذكير لاجمع تأنيث وايضا فاقترا اللفظ بما بعدها من الاقسام لا يناسب تفسيرها
بالانبياء وايضا فان الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله تالله لقد أرسلنا الى أمم
من قبلك وقوله وانك لمن المرسلين وقوله يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وان كان العرف
من التابع كعرف الفرس وعرف الديك والناس الى فلان عرف واحد أى سابقون في قصده
والتوجه اليه جاز ان تكون المرسلات الرياح ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات وجاز
أن تكون الملائكة وجاز أن يتم النوعين لواقع ارسال عرفا عليهم ما يؤيده أن الرياح موكل بها
ملائكة تسوقها وتصرفها ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب
فكأنها أرسلت فعصفت ومن جعل المرسلات الملائكة قال هي تعصف في مضيقها مسرعة كما
تعصف الرياح والا كثرون على انها الرياح وفيها قول ثالث انها تعصف بروح الكافر يقال تعصف
بالشيء اذا أباده وأهلكه قال الاعشى تعصف بالدارع والحامر حكاه أبو اسحق وهو قول
متكلف فان المقسم به لابد ان يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية وأما الامور الغائبة التي يؤمن
بها فلما يقسم عليه وانما يقسم سبحانه بملائكته وكتبته لظهور شأنهما ولقيام الأدلة
والاعلام الظاهرة الدالة على ثبوتها وأما الناشرات فنشرا فهو استئناف قسم آخر ولهذا أتى
به بالواو وما قبله معطوف على القسم الاول بالفاء قال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة هي
الرياح تأتي بالطر ويدل على صحة قولهم قوله تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي
رحمته يعني انها تنشر الصواب ونشرا وهو ضد الطي وقال مقاتل هي الملائكة تنشر كتب

بني آدم وصحائف أعمالهم وقوله مسروق وعطاء عن ابن عباس وقالت طائفة هي الملائكة تنشر
اجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وقيل تنشر أو أمر الله في الأرض والسماء وقيل تنشر
النفوس فخصيها بالآيمان وقال أبو صالح هي الأمطار تنشر الأرض أي تحييها قلت ويجوز
أن تكون الناشرات لازما لا مفعول له ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا فإنه يقال نشر الميت حي
وأشهره الله إذا أحياه فيكون المراد بها الأنفس التي حيت بالعرف الذي أرسلت به الرسائل
أو الأشباح والأرواح والبساق التي حيت بالرياح الرسائل فإن الرياح سبب لنشور الأبدان
والنبات والوحى سبب لنشور الأرواح وحياتها لكن هنا أمر بغيره أي التفتن له وهو أنه
سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر وجعل العاصفات
معطوفا على الرسائل بفساء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ثم جعل الناشرات كأنه قسم
مبتدأ فأتى فيه بالواو ثم عطف عليه الفارقات والملقبات بالفاء وأوهم هذا أن الفارقات والملقبات
مرتبطة بالناشرات وأن العاصفات مرتبطة بالرسائل وقد اختلفت في الفارقات والآخر ثرون
على أنها الملائكة ويدل عليه عطف الملقبات ذكر أهلها بالفاء وهي الملائكة بالاتفاق وعلى هذا
فيكون القسم بالملائكة التي تنشر اجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل فألقت
الذكر على الرسل اعدوا وانذروا ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها وقال هي
تفرق السحاب ههنا وههنا ولكن يأتي ذلك عطف الملقبات بالفاء عليها ومن قال الفارقات
أي القرآن يفرق بين الحق والباطل في قوله يلتئم مع ككون الناشرات الملائكة أكثر من
الثلاثة إذا قبل أنها الرياح ومن قال هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر وإن
أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول وبظهور الله أعلم بما أراد من كلامه
أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين الرياح والملائكة ووجه المناسبة أن حياة الأرض
والنبات والأبدان الحيوان بالرياح فأنهم من روح الله وقد جعلها الله تعالى نشورا وحياة القلوب
والأرواح بالملائكة فهذين النوعين يحصل نوما للحياة ولهذا والله أعلم فصل أحد
النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء وتأمل كيف وقع القسم
في هذه السورة على المساد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والاشتقاء فيها وقررها
بالحياة الأولى في قوله ألم نخلقكم من ماء مهين فذكر فيها المبدأ والمسار وخلص السورة
لذلك فحسن الأقسام بما يحصل به نوما للحياة المشاهدة وهو الرياح والملائكة فكان في القسم
بذلك إين دليلا واضحا على صحة ما قسم عليه وتضمنته السورة ولهذا كان المكذب بعد ذلك
في غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل فتضاعف عليه الويل كما تضاعف
منه الكفر والتكذيب فلا احسن من هذا التكرار في هذا الموضع ولا أعظم موقعاته تكرر
عشر مرات ولم يذكر إلا في دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب
التصديق به فتأمل

فصل في ذلك قوله تعالى لا أقسم بيوم القيمة ولا أقسم بالنفس الواهية وقد تقدم
ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر وكون الجواب غير مذكور وأنه يجوز
أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه

على دلالة المقسم به وكونه آية ولم يقصده مقسما عليه معينا فكأنه يقول اذكر يوم القيمة والنفس اللوامة مقسما بها لكونها من آياتنا وادلة ربوبيتنا ثم انكر على الانسان بعد هذه الآية سبحانه وظنه ان الله لا يجمع عظامه بعد ما فرقها البلى ثم اخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه وعلى هذا فيكون سبحانه قد اخرج على فعله لما انكره اعداؤه بقدرته عليه واخبر عن فعله بانه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور والمعنى بل نجعلها قادرين على تسوية بنانه ودل على هذا المعنى المحذوف قوله بلى فانها حرف استحباب لما تقدم من التثنية فلماذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه فذات الآية على الفعل وذكرت القدرة لا بطلان قول المكذبين وفي ذكر البنان لطيفة أخرى وهي أنها اطرافه وآخر ما يتم به خلقه فن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه مع دقتها وصغرها ولطافتها فهو على ما دون ذلك اقدر فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام قبل ان يجمع ونسوى اكثر منها تفرقا وادفعها اجزاء وأخر اطراف البدن وهي عظام الانامل ومفاصلها وقالت طائفة المعنى نحن قادرون على أن نسوى اصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئا واحدا كخنف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينهما ولا يمكنه ان يعمل بهما شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والانامل من فنون الاعمال والبسط والقبض والثاني لما يريد من الحواشي وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين والمعنى على هذا القول اتاني الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق فكيف لا تقدر على جمعها بعد تفرقها فهذا وجه من الاستدلال غير الاول وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها ولم يجمعها والاول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفرقها وهما وجهان حسنان وكل منهما له الترتيب من وجه غير جمع الاول أنه هو المقصود وهو الذي انكره الكفار وهو اجراء على نسق الكلام واطراد ولان الكلام لم يسبق لجمع العظام وتفرقها في الدنيا وانما سبق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت ويرجح القول الثاني ولعله قول جمهور المفسرين حتى أن فيهم من لم يذكر غيره وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة وهي تقرى البنان مع انتظامها في كف واحد وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ويحرك واحدة والآخرى ساكنة ويعمل بواحدة والآخرى معطلة وكلها في كف واحدة درجة واحدة واحد ولو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كبطان الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفرقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت ثم اخبر سبحانه عن سوء حال الانسان واصراره على العصية والفجور وانه لا يرهوى ولا يتخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا بل هو يريد للفجور ما عاش فيعجز في الحال ويريد للفجور في غد وما بعده وهذا عند الذي يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقطع في الحال ولا يعزم في المستقبل على الترك بل هو حازم على الاستمرار وهذا عند النائب المنيب ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك وهو استعباده ليوم القيامة وليس هذا استعبادا لزمته مع اقراره بوقوعه بل هو استعباد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله ذلك رجع بعبد اى بعيد وقوعه ليس المراد انه واقع بعيد لزمته هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه قال

ابن عباس يقدم الذنب ويؤخر التوبة وقال قتادة وعكرمة قدما قدما في معاصي الله لا ينزع عن فجوره وفي الآية قول آخر وهو أن المعنى بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة وهذا قول ابن زيد واختيار ابن قتبية وأبي اسحق قال هؤلاء ودليل ذلك قوله بسئل أيان يوم القيامة ويرجح هذا القول لفظة بل فانها تعطى ان الانسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والجملة بل هو مرید للتكذيب به ويرجحه أيضا ان السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر وأيضا فان ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد فانه قال يحسب الانسان ان ان نجتمع عظامه على قادرين على أن نسوي بنانه فأنكر سبحانه عليه حسبانه ان الله لا يجمع عظامه ثم قرر عليه قدرته على ذلك ثم أنكر عليه ارادة التكذيب بيوم القيامة فالاول حسبان منه أن لا يحياه بعد موته والثاني تكذيب منه بيوم البعث وانه يريد أن يكذب بما وضح وبأن دليل وقوعه وثبوتة فهو مرید للتكذيب به ثم أخبر عن نصر مجرته بالتكذيب فقال بسئل أيان يوم القيامة فالاول ارادة التكذيب والثاني نطقه بالتكذيب وتكلم به وهذا قول قوي كما ترى لكن ينبغي ابراغ هذه الالفاظ في قول الب هذا المعنى فان لفظة يفجر انما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وابقاء الصلة خلاف الاصل فان اصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبيضة فالجواب ان الامر كذلك لكن الفعل اذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم اعطاء حكمه من جميع الوجوه بل من جملة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها ان يذكر المتكلم فعلا وما يضمنه معنى فعل آخر ويجرى على المضمن احكامه لفظا واحكام الفعل الآخر معنى فيكون في قوة ذكر الفعلية مع غاية الاختصار ومن تدبر هذا وجده كثيرا في كلام الله تعالى فلفظ يفجر اقتضت امامه بلا واسطة حرف ولا اسم موصول فأعطيت ما اقتضته لفظا واقتضى ما تضمنته من الفعل ذكر الحرف والموصول فأعطيته معنى فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى والله اعلم ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الانسان اذا شاهد اليوم الذي كذب به فقال فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر فيمصرق بصره اى يشخص لما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها وخسف القمر ذهب ضوءه وانمحى وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك بل يجمعهما الذي يجمع عظام الانسان بعد ما فرقا البلى ومزقاها ويجمع الانسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وآخره من خير أو شر ويجمع ذلك من جميع القرآن في صدر رسوله ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر اليه ويجمع المكذبين في دار الهوان وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الانسان من نقطة من معنى ثم جملة علاقة مجتمعة الاجزاء بعدما كانت نقطة متفرقة في جميع بدن الانسان وكما يجمع بين الانسان وملك الموت ويجمع بين الساق والساق اما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر ومن يجهز روحه من الملائكة أو يجمع عليه شدة الدنيا والآخرة فكيف هذا الانسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه وأن يجمع مع معنى جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه وهو دينه فلا يترك سدى مطلقا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه

ذلك فاجمع هذه السورة لمعان الجمع والضم وقد افتتحت بالتميم يوم القيمة الذي يجمع الله فيه بين الاولين والاخرين وبالنفس الواحدة التي اجتمع فيها همومها وغموها وارادتها واعتقاداتها وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد والقيامة الصغرى والكبرى واحوال الناس في المعاد وانقسام وجوههم الى ناظرة منعمة وباسرة معذبة وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان الى مكان فيجتمع من تضاريف البدن حتى تبلغ التراق ويقول الحاضرون من راق اى من يرقى من هذه العلة التي اُفيت على الحاضرين اى التمسوا له من يرقيه والرقية آخر الطب وقبل من يرقى بها ويصعد الملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب فعلى الاول تكون من رقى يرقى كرمى يرمى وعلى الثانى من رقى يرقى كشقى بشقى ومصدره الرقا ومصدر الاول الرقية والقول الاول اظهر لوجوه احدها انه ليس كل ميت بقول حاضروه من يرقى بروحه وهذا لما يقوله من يؤمن برقى الملائكة بروح الميت وانهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهى الدماء فانه قل ما يخلو منه المحتضر الشا فى ان الروح انما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها واما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين انسب من طلب علم من يرقى بها الى الله الثالث ان فاعل الرقية لا يمكن العلم به فبحسن السؤال عنه ويفيد السامع واما راقى الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسئل عنه ومن انما يسئل به اهل تعيين ما يمكن السائل ان يصل الى العلم بتعيينه الرابع ان مثل هذا السؤال انما يراد به تخصيص واثارة هو - يوم الى فعل ما يقع بعده من قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا او يراد به انكار فعل ما يذكر بعدهما كقوله من ذا الذى يشفع عنده الاباذنه وفعل الراقى الى الله لا يحسن فيه واحد من الامرين هنا بخلاف فاعل الرقية فانه يحسن فيه الاول الخامس ان هذا خرج على عادة العرب وغيرهم فى طلب الرقية لمن وصل الى مثل تلك الحال فحسب الله سبحانه ما جرت مادتهم بقوله وحذف فاعل القول لانه ليس الغرض متعلقا بالقائل بالقول ولم يجر مادة مخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه فكان محل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله اولى اذهوئذ كيراهم يا شاهدهونه ويسمعونه السادس انه لو اريد هذا المعنى لكان وجه الكلام ان يقال من هو الراقى ومن الراقى لا وجه للكلام غير ذلك كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا فى الحديث من القائل كلمة كذا السابع ان كلمة من انما يسئل به اهل التعيين كما يقول من الذى فعل كذا ومن ذا الذى قاله فيعلم ان فاعلا وقائلا فعل وقال ولا يعلم تعيينه فيسأل عن تعيينه من تارة وبأى تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقى بالروح الى الله فان قيل بل علموا ان ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه ولم يعلموا تعيينه فيسألوا عن تعيين احدهما قبل هم يعلمون ان تعيينه غير ممكن فكيف يسألون عن تعيينه ما لا يسئل للسامع الى تعيينه ولا الى الكلمة بالعلم به الثامن ان الآية انما صيقت لبيان بأسه من نفسه وبأس الحاضرين معه ومحقق اسباب الموت وأنه قد حضر ولم يبق شيء يجمع فيه ولا يخلص منه بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة فالحاضرون قد علموا أنهم يبقون لاسباب الحياة المعتادة تأثيرى بقائه فطلبوا اسبابا خارجة عن المقدور تسجلب الراقى والدعوات فقالتوا من راق أى من يرقى هذا العليل من اسباب الهلاك والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدى الدواء

التاسع ان مثل هذا اغمايراديه النفي والاستبعاد وهو أحد التقديرين في الآية أي لا أحد يرقى من هذا العلة بعدما وصل صاحبها الى هذه الحال فهو استبعاد لنفي الرقبة لاطالب لوجود الراقى كقوله قل من يحيي العظام وهي رميم أي لا أحد يحييها وقد صارت الى هذه الحال فان أريد بها هذا المعنى استحصال ان يكون من الرقي وان أريد بها الطلب استحصال أيضا ان يكون منه وقد ينسأ أنها في مثل هذا اغما تستعمل للطلب أولا نكارا وحينئذ فنقول في الوجه العاشر انها اما ان يراد بها الطلب أو الاستبعاد والطلب اما ان يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين ولا سبيل الى حل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه والله أعلم

فصل في ومن أسرار هذه العورة أنه سبحانه جمع فيها لاولياته بين جلال الظاهر والباطن فزبن وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر اليه فلا أجعل لبسواطنهم ولا أنم ولا أحلى من النظر اليه ولا أجعل لظواهرهم من نضرة الوجهه وهي اشراقه وتحسينه وبهجته وهذا كما قال في موضع آخر ولقاهم نضرة وسرورا ونظيره قوله يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشافه هذا جلال الظاهر وزينته ثم قال ولباس القوى ذلك خير فهذا جلال الباطن ونظيره قوله انا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب فهذا جلال ظاهرها ثم قال وحفظا من كل شيطان مارد فهذا جلال باطنها ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد ان قالت لبوسف اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم قالت فذلك الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاتعصم مذكرها لهذا هو من تمام وصفها لحسانته وأنه في غاية الحسن ظاهرا وباطنا وينظر الى هذا المعنى ويناسبه قوله ان لك ان لا نجوع فيها ولا تعري وانك لا تنظم فيها ولا تضحي فقابل بين الجوع والعري لان الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر وقابل بين الظمأ وهو حر الباطن والضحي وهو حر الظاهر بالبروز للشمس وقريب من هذا قوله وتزودوا فان خير الزاد التقوى في ذكر الزاد الظاهر الحصى والزاد الباطن المعنوي فهذا زاد سفر الدنيا وهذا زاد سفر الآخرة ويلم به قول هود يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم فالاول القوة الظاهرة المتصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم ويشبهه قوله فغاله من قوة ولا ناصر فنسفي عنهم الدافعين الدافع من أنفسهم والدافع من خارج وهو الناصر

فصل في ومن أسرارها أنها تضمنت اثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله وهذا على أحد القولين في قوله بلى قادرين على أن نسوي بنانه فآخرا أنه قادر عليه ولم يفعله ولم يردده وأصرح من هذا قوله تعالى وأزلنا من السماء ماء بقدر فآكناه في الارض وانا على عذاب به لقادرون وهذا أيضا على أحد القولين أي تغور العيون في الارض فلا يقدر على الماء قال ابن عباس يريدان يغيض فيذهب فلا يكون من هذا الباب بل يكون من باب القدرة على ما يفعله وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم مذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزول هذه الآية اهوذ وجهك ولكن قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم

انه لا بد ان يقع في امته خسف ولكن لا يكون ما ما وهذا عذاب من تحت الارجل وروى
انه كان في الامة قذف ايضا وهذا عذاب من فوق فيكون هذان باب الاخبار بقدرته على
ما يفعل وان اريد به القدرة على عذاب الاستئصال فهو من القدرة على ما لا يريد
وقد صرح سبحانه بانه لو شاء لفعل ما لم يفعل في غير موضع من كتابه كقوله ولو شاء ربك
لاكن من في الارض كلهم جمعيا وقوله ولو شئنا لا تديننا كل نفس هداها ونظائر
وهذا مما اخفاه فيه بين اهل السنة وبه تبين فساد قول من قال ان القدرة لا تكون الا مع
الفعل لاقبله وان الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والصحة فبني القدرة عن
الفعل قبل الملازمة مطلقا خطأ والله اعلم

فصل ومن امرارها انها تضخت الثأني والثبث في تلقى العلم وان لا يحمل السامع شدة
محبه وحرصه وطلبه على مبادرة العلم بالاخذ قبل فراغه من كلامه بل من آداب الرب التي
أدب بها نبيه صلى الله عليه وسلم امره بترك الاستعجال على تلقى الوحي بل يصبر الى ان يفرغ
جبريل من قراءته ثم يقرأ بعد فراغه عليه فكذا ينبغي لطالب العلم واسامعه ان يصبر
على معلمه حتى يقضى كلامه ثم يعيده عليه او يسأل عما اشكل عليه منه ولا يسأله
قبل فراغه وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا احدها
والثاني قوله وكذلك انزلناه حكما عربيا وصرفنا فيه من الوحي ما علمهم يتقون
او يحدث لهم ذكرنا فتعالى الله الملك الحقي ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى اليك
وحيه وقل رب زدني علما والثالث قوله سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله فضمن لرسوله
ان لا ينسى ما قرأه اياه وهذا تناول القراءة وما بعد ما وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من
يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا الاستعجال بالتمتع بما يقضى وايشاره ما يقرب ورتب كل ذم ووعيد
في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة فارادته ان يفجر امامه هو من استعجاله
وحب العاجلة وتكذيبه يوم القيامة من فرط حب العاجلة وايشاره لها واستعجاله بنصيبه
ومتممه به قبل اوانه واو لاحب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة اكل
ما يكون وكذلك تكذيبه ونوياه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبه العاجلة والرب
سبحانه وصف نفسه بضد ذلك فلم يعجل على عبده بل امره الى ان بلغت الروح التراقي
وايقن بالموت وهو الى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي والرب تعالى لا يعاجله
بل يعمله ويحدث له الذكر شيئا بعد شي وبصرف له الآيات ويضربه الامثال وينبهه على
مبدئه من كونه نطفة من منى معنى ثم علقه ثم خلقا -ويا فلم يعجل عليه بالخلق وهلة
واحدة ولا بالعقوبة اذ كذب خبره وهصى امره بل كان خلقه وامره وجزاؤه بعد تقبل
وتدريج وانهذ ذم الانسان بالعجلة بشؤله وكان الانسان عجولا وقال خلق
الانسان من عجل ساركم آياتي فلا تستعجلون

فصل ومن أسرارها ان اثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل وهذا احد القولين لاصحابنا
وغيرهم وهو الصواب فان الله سبحانه انكر على من حسب انه يترك مدعى فلا يؤمر ولا ينهى
ولا يثاب ولا يعاقب ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد بل نفاه نفي مالا يليق نسبتة اليه

ونفى منكر على من حكم به وظنه ثم استدل سبحانه على فساد ذلك وبين ان خلقه الانسان في هذه الاطوار وتنقله فيها طورا بعد طور حتى بلغ نهايته بأبى ان يتركه سدى فانه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص وهذه طريقة القرآن في غير موضع كاقال تعالى اخفيتم انما خلقناكم عبثا وانكم اليها ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم فجعل كمال ملكه وكونه سبحانه الحق وكونه لا اله الا هو وكونه رب العرش المستازم لربوبيته اسكل مادونه مبطلا لذلك الظن الباطل والحكم الكاذب وانكار هذا الحسابان عليهم مثل انكاره عليهم حساباتهم انه لا يسمع سرهم ونجواهم وحسابان انه لا يراهم ولا يقدر عليهم وحسابان انه يسوى بين اوليائه وبين اعدائه في محابهم ومعاتهم وغير ذلك مما هو منزله عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص وان نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق من اتخاذ الواد والشريك ونحو ذلك مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الانكار فدل على أن ذلك قبيح ممنوع نسبته اليه كما يمنع أن ينسب اليه سائر ما ينافي كماله المقدس ولو كان نفي تركه سدى انما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك ألم يك نقطة الى آخره وما يدل ان تعطيل اسمائه وصفاته ممنوع وكذلك تعطيل موجدها ومقتضاها فان ملكه الحق يستلزم امره ونهيه وثوابه وعقابه وكذلك يستلزم ارسال رسله واتزال كتبه وبعث المعاد ليوم يحجزى فيه المحسن باحسانه والمسيء باساءته فمن انكر ذلك فقد انكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه وان زعم انه يقر بصانع العالم فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال والمستحق لنوع الكمال كما ان المعطل للكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه فانه آمن برب لا يشككم ولا يأمر ولا ينهى ولا يصعد اليه قول ولا عمل ولا ينزل من عنده ملك ولا أمر ولا ينهى ولا ترفع اليه الايدي ومعلوم ان هذا الذى آمن به رب مقدر في ذهنه ليس هو رب العالمين واله المرسلين وكذلك اذا اعتبرت اسمه الحى وجدته مقتضيا الصفات كماله من علوه وسمعه وبصره وقدرته وارادته ورجته وفعله ما يشاء واسمه القيوم مقتضى التدبير امر العالم العلوى والسفلى وقيامه بمصالحه وحفظه له فمن انكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحى القيوم وان اقر بذلك الحد فى اسمائه وعطل حقائقها حيث لم يمكنه تعطيل الفاظها وبالله التوفيق

فصل ومن ذلك قوله تعالى كلا والقمر والليل اذ بدرو والصبح اذا أفرانها الاحدى الكبرى نذير للبشر لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر اقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وباريه وحكمته وعلوه وعنايته بخلقها ما هو معلوم بالمشاهدة وهو سبحانه اقسم بالسماء وما فيها مما لا تراه من الملائكة وما فيها مما تراه من الشمس والقمر والنجوم وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته ومن نذر امره هذين النيرين العظيمين وجدهما من اعظم الآيات فى خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران دأبين ولا يبع فى حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة والرجوع والاستقامة والانخفاض والارتفاع ولا يجرى احدهما فى ذلك صاحبه ولا يدخل عليه فى سلطانه ولا تدرك الشمس القمر ولا يجئ الليل قبل انقضاء النهار بل لكل حركة مقدرة ونهج معين لا يشركه فيه الاخر كما ان له تأثيرا

ومنفعة لا يشرك فيها الاخر وذلك بما يدل من له ادنى عقل على انه بتسخير مسخر وامر آمر وتدبير مدبر يهت حكيمته العقول واحاط علمه بكل دقيق وجليل وفرق ما علمه الناس من الحكم الذي في خلقهم اما لا تصل اليه عقولهم ولا تنتهي الى مبادئها او هاهم ففاقنا الاعتراف بحلال خالقهما كمال حكمته ولطف تدبيره وان نقول ما قاله اولو الاباب قبلنا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فكما عذاب النار ولو ان العبد وصف له جرم او دمه مستدير عظيم الخلق يبدو فيه النور كخيطة منسج من يتر ايد كل ليلة حتى يتكامل نوره فيصير اضوا شئ واحسنه واجله ثم يأخذ في النقصان حتى يعود الى حاله الاول فيحصل بسبب ذلك معرفة الاشهر والسنين وحساب آجال العالم من مواقيت جهنم وصلاتهم ومواقيت اجارهم ومدابنا تهم ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم الا بها فصالح الدنيا والدين متعلقة بالالهة وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه احدها قوله يسألونك عن الالهة قل هي مواقيت للناس والحج والثانية قوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق بفصل الآيات لقوم يعلمون والثالثة قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا فلو لا ما يحمد الله سبحانه في آية الليل من زيادة ضوئها ونقصانها لم يعلم ميقات الحج والصوم والعدد ومدة الرضاع ومدة الحمل ومدة الاجارة ومدة آجال الخاملات فان قيل كان يمكن هذا بحركة الشمس والايام التي تحفظ بطول الشمس وغروبها كما يعرف اهل الكتابين مواقيت صيامهم واعيادهم بحساب الشمس قيل هذا وان كان ممكنا الا انه يفسر ضبطه ولا يقف عليه الا الاحاد من الناس ولا ريب ان معرفة اوائل الشهور واواسطها واواخرها بالقمر امر يشترك فيه الناس وهو اسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس واقل اضطرابا واختلافا ولا يحتاج الى تكلف حساب وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر اظهر وانفع واصح واقل اختلافا من تقديرها بسير الشمس فارب جل جلاله دبر الالهة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه في مصالح دينهم ودنياهم مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب وكال حكمته وعلمه وتدبيره فشهادة الحق بتغير الاجرام الفلكية وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها هي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها ازلية ابدية لا ينطرق اليها التغير ولا يمكن عدمها فاذن امل البصير القمر مثلا وافتقاره الى محل يقوم به وسيره دأبا لا يفتقر مسير مسخر مدبر وهو طه تارة وارتفاعه نارة وأفوله تارة وظهوره تارة وذهاب نوره شيئا فشيئا ثم هو دأبه كذلك وذهاب ضوئه بجله واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف علم قطعا انه مخلوق مر بوب مسخر تحت امر خالق قاهر مسخر له كما يشاء وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا وان هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي الى الانقطاع والسكون وان هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي الى ضده وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي الى العزل وسيمجم بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين وبذهب بهما حيث شاء ويرى المشركون من عبدهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه كما يرى عباد الكواكب انتشارها وعباد السماء انقطارها

وعباد الشمس تكويرها وعباد الاصنام اهانتها والقاءها في النار احرقشي* واذله واصغره كما رى
عباد الجمل في الدنيا حاله ومبادر عبادته تحمقه ونمقه والريح تحرقه وتذروه وتفسده في الهم وكما
أرى الاصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردة ملقاة بالامكنة القذرة ومعاول الموحدين قد هتمت
منها تلك الوجوه وكسرت تلك الرؤس وقطعت تلك الايدي والارجل التي كانت لا يوصل
اليها يغير التقيل والاستلام وهذه سنة الله التي لا تبدل ومادته التي لا تحول انه يرى ما بدغيره حال
معبوده في الدنيا والآخرة وان كان المعبود غير راضى بعبادة غيره اذ ارادة تربيته منه ومعادته له اذ وج
ما يكون اليه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ويعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين
تأمل سطور الكائنات فانها * من الملك الاعلى اليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها * ألا كل شيء ما خلا الله باطل
ولو شاء تعالى لابقى القمر على حالة واحدة لا يتغير وجعل التغيير في الشمس ولو شاء لغيرهما
وما لو شاء لابقاهما على حالة واحدة ولكن يرى عباد آياته في انواع تصاريها ليدلهم على
انه الله الذي لا اله الا هو الملك الحق المبين النعال لما يريد ألا اله الا هو الخلق والامر ببارك الله
رب العالمين واما تأثير القمر في ترطيب ابدان الحيوان والنبات وفي المياه وجزر البحر ومد
وبحارات الامراض ونقلها من حال الى حال وغير ذلك من المنافع فأمر ظاهر
فصل * واما اقسامه سبحانه بالليل اذ أدبر فلما في ادباره واقبال النهار من أبين
الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد فانه مبدأ ومعاد يومى مشهود بالعيان بينما الحيوان في
سكون الليل قد هدأت حركاتهم وسكنت اصواتهم ونامت حيوتهم وصاروا اخوان الاموات
اذ قبل من النهار داعيه واسمع الخلائق مناديه فانقضت منهم الحركات وارتفعت منهم
الاصوات حتى كأنهم قاموا احياء من القبور يقول قائلهم الحمد لله الذي احيانا بعد ما ماتنا واليه
النشور فهو معاد جديد ابداء وأعاد الذى يبدى ويعيد فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى
الواحد النهار فمن تأمل حال الليل اذا سمس وادبر والصبح اذا تنفس وأسفر فهزم جيوش
الظلام بنفسه واضاء افق العالم بقبسه وفل كنائب المواقب بعساكره واضحك نواحي الارض
بداشيره وبشارته فبالها آياتان شاهدتان بوحديته منشيها وكال ربوبيته وعظم قدرته
وحكمته فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها مقيما لسلطان الليل والنهار فلو لا طلوعها
لبطل امر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في امورهم والدنيا
مظلمة عليهم وكيف كانت تهيئهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه وأى ثمار ونبات وحيوان
كان يوجد وكيف كانت ثم مصالح ابدان الحيوان والنبات ولو لا غروبها لم يكن للناس هدو
ولا قرار مع علم حاجتهم الى الهدو لراحة ابدانهم وجوهم حواسهم فلو لا جنوم هذا الليل
عليهم بظلمة ما هادوا ولا قروا ولا سكنوا بل جعله احكم الحاكمين سكتا ولما ساكنا جعل النهار
ضياء ومعاشا ولو لا الليل وبرده لاحتزقت ابدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس
عليها وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان فانقضت حكمة احكم الحاكمين ان جعلها
سراجا يطلع على العالم في وقت حاجتهم اليه ويغيب في وقت استغنائهم عنه
فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين

متعاونين منظارين على مصلحة هذا العالم وقوامه فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً الى يوم
 القيامة والليل سرمداً الى يوم القيامة لفانته مصالح العالم واشتدت الضرورة الى تغيير ذلك وزالته
 بضده وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لاقامة هذه الازمنة الاربعه من السنة
 وما في ذلك من مصالح الخلق في الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فيتو لدنهما مواد
 الثمار ويكف الهواء فينشأ منه المحاب وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الارض وغذاء ابدان
 الحيوان والنبات وحصول الافعال والقوى وحركات الطبايع وفي الصيف يخدم الهواء فينضج
 الثمار وتشتد الحبوب ويحفف وجه الارض فيتهيأ العمل وفي الخريف يصفو الهواء وتبرد
 الحرارة ويمتد الليل وتستريح الارض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية بمنزلة راحة الحامل
 بين الحملين ففي هذه الازمنة مبدأ ومعاد مشهود وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي والمقصود ان بحركة
 هذين النيران يتم مصالح العالم وبذلك يظهر الزمان فان الزمان مقدار الحركة فالسنة الشمسية
 مقدار سير الشمس من نقطة الحمل الى مثلها والسنة القمرية مقدرة بسير القمر وهو اقرب
 الى الضبط واشترك الناس في العلم به وقدر احكم الحاكمين ثقلهما في منازلهما لما في ذلك
 من تمام الحكمة واطف التدبير فان الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لاتعداه
 لما وصل ضرؤها وشعاعها الى كثير من الجهات فكان نفعها يقدح هناك فجعل الله سبحانه
 طلوعها ودولابها في الارض لينال نفعها وتأثيرها البقاع فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن
 ان تطلع عليها الا اخذ بقسطه من نفعها واقتضى هذا التدبير المحكم ان وقع مقدار الليل
 والنهار على اربعة وعشرين ساعة وبأخذ كل منهما من صاحبه ومنتهى كل منهما اذا امتد
 خمسة عشر ساعة فلو زاد مقدار النهار على ذلك الى خمسين ساعة مثلاً او اكثر لاختل
 نظام العالم وفسد اكثر الحيوان والنبات ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام ايضا
 وتعطلت المصالح ولو احتويا دائماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد
 والحيوان فكان في هذا التدبير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن
 ذلك تقدير العزيز العليم ولهذا يذكر سبحانه هذا التدبير ويضيقه الى عزته وعلمه كما قال
 تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقرها ذلك تقدير
 العزيز العليم وقال تعالى قل انكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين ونجعلون له اناددا
 ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام
 سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض انبيا طوعاً أو كرها قالتا انبينا
 طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وادحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح
 وحفظنا ذلك تقدير العزيز العليم وقال تعالى فاقى الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر
 حسبنا ذلك تقدير العزيز العليم فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها ان تقدير حركات الشمس
 والقمر والاجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه وأنه قدره بهاتين
 الصفتين وفي هذا تكذيب لامعاء الله الا حدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغيبات
 فصل في اقسام سبحانه بهذه الاشياء الثلاثة وهي القمر والليل اذ ادبر والصبح
 اذا اسفر على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه فانه يتضمن كمال قدرته

وحكمته ونسائه بخلقه وابداء الخلق واعادته كما هو مشهود في ابداء النهار
والليل واعادتهما وفي ابداء النور واعادته في القمر وفي ابداء الزمان واعادته الذي هو حاصل
بسير الشمس والقمر وابداء الحيوان والنبات واعادتهما وابداء فصول السنة واعادتها وابداء
ما يحدث في تلك الفصول واعادته فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به
الرسول كلهم عنه فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رساله ونوعها وجعلها لفظ نارة
ولسمع نارة وللمشاهدة نارة فجعلها آفاقية ونفسية ومنقولة ومعقولة ومشهودة بالعيان
ومذكورة بالجلال فأبى الظالمون الا كفورا واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم
يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضررا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ولما اقام
الجنة وبين المحجة ارتقن كل نفس بكسبها وواخذها بذنبها واستثنى من اولئك من قبل هداة
واتبع رضاهم اصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وملكوا غير مبدل
المجرمين الذين ليسوا من المصلين ولا من مطعمى المسكين وهم من اهل الخوض مع الخائضين
المكذابين بيوم الدين فهذه اربع صفات أخرجهن من زمرة الفالحين وادخلنهم في جملة
الهالكين الاولى ترك الصلاة وهي عمود الاخلاص للمعبود الثانية ترك اطعام المسكين الذي
من هو مراتب الاحسان للعبيد والاخلاص للخالق والاحسان للمخلوق كما قال تعالى الذين هم
يراؤون ويعمرون الماعون وقال لا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون
وهذا ضد ما وصف به اصحاب اليمين بقوله الذين يقيمون الصلاة ويمارزونها ينفقون
وقال تعالى في جنوبيهم من المضجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ويمارزونها ينفقون وقرن
سبحانه بين هذين الاصلين في غير موضع في كتابه فأمر بهما نارة وأثنى على فاعليهما
نارة وتوعد بالويل والعقاب تاركهما نارة فان مدار النجاة عليهما ولا فلاح لمن اخل بهما
الصفة الثالثة والرابعة الخوض بالباطل والتكذيب بالحق فاجتمع لهم عدم الاخلاص
والاحسان والخوض بالباطل والتكذيب بالحق واجتمع لاصحاب الاخلاص والاحسان
والصدق بالحق والتكلم به فاستقام اخلاصهم واحسانهم وبقيتهم وكلامهم واستبدل
اصحاب الشمال بالاخلاص شركا وبالاخصان اساءة وبالبينة شكاً وتكذيباً وبالكلام
النافع خوضاً في الباطل فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين أي لم يكن لهم من شفيع فيهم
لان الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بهاراً ما وجعلوا
عن سماعها كما نجفل جبال وحش من الامداد ومن الرماة ثم ختم السورة بان تجمع فيها بين
شرعه وقدره واقامة المحجة عليهم باثبات المشيئة لهم وبيان مقتضى التوحيد والربوبية
وان ذلك البه لا اليهم فالاول مدله والثاني فضله فالاول يوجب السعي والطلب والحرص
على ما يجنبهم كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم بل أشد الثاني يوجب الاستعانة والتوكل
والنفويض والرغبة الى من ذلك يده ليسهل وبوفهم والله المستعان وعليه التكلان
فصل ومن ذلك قوله فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه يقول رسول كريم الى
آخرها قال مقاتل ما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه وقال قتادة أقسم بالاشياء كلها ما يبصر
منها وما لا يبصر وقال الكلبي تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء وهذا أعم قسم وقع في

القرآن فانه بيم العلويات والسفليات والدياوالآخرة وما يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم
والجن والانس والعرش والكرسی وكل مخلوق وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته وهو سبحانه
بصرف الاقسام كما يصرف الآيات ففي ضمن هذا القسم ان كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل
على صدق رسوله وان ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن
ومن تأمل المخلوقات ما رآه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجاري الخلق
والامر ظهر له ان هذا القرآن من عند الله وانه كلامه وهو اصدق الكلام وانه حق ثابت كما ان
سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق كما قال تعالى فو رب السما والارض انه خلق مثل ما انكم
تنطقون اي ان كان نطقكم حقيقة وهو امر موجود لا تقارون فيه ولا تشكون فهكذا
ما اخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق كما في الحديث انه خلق مثل ما لك ههنا فكانه
سبحانه يقول ان القرآن حق كما ان ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود بل
لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لادلكم ذلك على ان القرآن حق ويكني الانسان من
جميع ما لا يبصره وما لا يبصره بعينه ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من احواله ظاهرا
وباطنا في ذلك ايب دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما اخبر به رسوله وما لم يباشره
قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه ثم ذكر سبحانه القسم عليه فقال انه لقول رسول كريم
وهذا رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم وفي اضافته اليه باسم الرسالة بين ذلك انه كلام
المرسل فمن انكر ان يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد انكر حقيقة الرسالة ولو كانت اضافته اليه
اضافة انشاء ابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك اضافته الى رسوله المسمى في سورة التكاوير
ثم بين سبحانه كذب اعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى الى غيره وانه لم يشككم به بل قال
من تلقاه نفسه كما بين كذب من قال ان هذا الاقول البشر فمن زعم انه قول البشر فقد كفر
وسب عليه الله فمر ثم اخبر سبحانه انه تنزل من رب العالمين وذلك يتضمن امورا احدها انه
تعالى فوق خلقه كلهم وان القرآن نزل من عنده والثاني انه تكلم به حقيقة لقوله من رب العالمين
واو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير ونظير هذا قوله ولكن حق القول مني ونظيره قوله
قل نزل به روح القدس من ربك بالحق وقوله تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم تنزيل من حكيم
حجيد وما كان من الله فليس بمخلوق ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والارض
جميعا منه وهو مخلوق لان ذلك كله اعيان قائمة بنفسها وصفات وافعال لتلك الاعيان
فاضافتها الى الله سبحانه وانها منه اضافة خلق كاضافة بيته وعبيده وناذته وروحه وبابه
اليه بخلاف كلامه فانه لا بد ان يقوم بتكلمه اذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع وبصر
من غير مبصر وذلك عين المحال فاذا اضيف الى الرب كان بمنزلة اضافة سمعه وبصره وحياته
وقدرته وهله ومشيئته اليه ومن زعم ان هذه اضافة لمخلوق الى خالق فقد زعم ان الله لا يسمع له
ولا يبصر ولا حياة ولا قدرة ولا مشيئة تقوم به وهذا عا والتعطيل الذي هو شر من الاشراك وان
زعم ان اضافة السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة اضافة صفة الى موصوف فاضافة الكلام
اليه اضافة لمخلوق الى خالق فقد تناقض وخرج من موجب العقل والفطرة والشرع ولفات
الامم وفرق بين متماثلين حقيقة وعقلا وشرعا وفطرة ولغة وتأمل كيف اضافته سبحانه

الى الرسول بلفظ القول واضاهه الى نفسه بلفظ الكلام في قوله حتى يسمع كلام الله فان الرسول يقول للمرسل اليه ما امر بقوله فيقول قلت كذا وكذا وقلت له ما امرتني ان اقوله كما قال المسيح ما قلت لهم الا ما امرتني به والمرسل يقول للرسول قل لهم كذا وكذا كما قال تعالى قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن قل لله وؤمنوا بين يعضو امن ابصارهم ونظاره فاذا بلغ الرسول ذلك صح ان يقال قال الرسول كذا وهذا قول الرسول أي قاله مبلغا وهذا قوله مبلغا عن مرسله ولا يجيئ في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ولا تكلم الرسول بكذا او كذا ولا أنه بكلام رسول كريم ولا في موضع واحد بل قيل للصديق وقد تلى آية هذا الكلام وكلام صاحبك فقال ليس بكلامي ولا كلام صاحبي هذا كلام الله

فصل في الامر الثالث ما تضمنه قوله تنزيل من رب العالمين ان ربوبيته الكاملة خلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم الى ما ينفعهم ويحذرهم ما يضرهم بل يتركهم هملا بمنزلة الانعام السائمة فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه الى ما لا يليق به تعالى تعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله وأنه لم يتقول عليه فيما قاله وأنه لو تقول عليه لما قرء ولما جله بالاهلاك فان كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وامتنى عليه وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحرىهم وأموالهم وأظهر في الارض الفساد والجور والكذب وخالف الخلق فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظهره بأهل الحق يسفك دماهم ويستبيح أموالهم وأولادهم وفسادهم قائلا ان الله امرني بذلك وأباح لي بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها فيصدقه باقراره وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها فكل آية على انفرادها مصدقة لهم بمحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ثم يعجز الخلق عن معارضته ثم يصدقه بكلامه وقوله ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه فيشهد له باقراره وتعله وقوله فمن أعظم المحال وأبطل الباطل وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه الذي هو شر الخلق على الإطلاق فمن جاوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعا ولا عرف الله ولا هذا هو رب العالمين ولا يحسن نسبة ذلك الى من له مسكة من عقل وحكمة وجي ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ونادى على جهله وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود قلت له بعد أن أنقض في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم الى أن قلت له انكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين ونقصه بأقبح النقص فكان الكلام معكم في الرسول والكلام الآن في تنزيه الرب تعالى فقال كيف تقول مثال هذا الكلام فقلت له بيانه على قاصع الاكن أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا وانما كان ملكا قاهرا قهر الناس بسيفه حتى دناؤه ومكث ثلاثا وعشرين سنة

يكذب على الله ويقول أوحى الي ولم يوح اليه وأمرني ولم يأمره ونهاني ولم ينهه وقال الله كذا ولم يقل ذلك وأحل كذا وحرم كذا وأوجب كذا وكره كذا ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله وعلى أنبيائه وعلى رسله وملائكته ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده بسفك دماءهم وبأخذ أموالهم ويسترق نساءهم وأبناءهم ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته وهو في ذلك كله يقول الله أمرني بذلك ولم يأمره ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان رسل ونسخ شرائعهم وحل نواويسهم فهذه حاله عندكم فلا تبالوا بما أن يكون الرب تعالى طالما بذلك مطلعا عليه من حاله براه ويشاهده أم لا فان قلتم ان ذلك جبهه فائب عن الله لم يبعلم به قد حتم في الرب تعالى ونسبتموه الى الجهل المفرط اذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه وان قلتم بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته قيل لكم فهل كان قادرا على ان يغير ذلك ويأخذ على يده ويحول بينه وبينه أم لا فان قلتم ليس قادرا على ذلك نسبتموه الى العجز المنافي للربوبية وكان هذا الانسان هو أتباعه أقدر منه على تنفيذ اراداتهم وان قلتم بل كان قادرا ولكن مكينه ونصره وسلطه على الخلق ولم ينصر أوليائه واتباع رسله نسبتموه الى أعظم السفه والظلم والاخلال بالحكمة هذا لو كان محلي بينه وبين مافعله فكيف هو وفي ذلك كله فاصره ومؤيده ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه ومصدق بأشياء التصديق ومظهر الآيات على يديه التي واجتمع أهل الارض كلهم على أن بأنوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك وكل وقت من الاوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الاتباع أمرا خارجا عن العادة فظهر ان من أنكر كونه رسولا نبيا فقد سب الله وقذح فيه ونسبه الى الجهل والعجز والسفه قتل له ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنتهم في الارض وقتنا ثم قطع دابرهم وأبطل سنتهم ومحا آثارهم وجورهم فان أولئك لم يعيدوا شيئا من هذا ولا أيدوا ونصروا وظهرت على أيديهم الآيات ولا صدقهم الرب تعالى بأمراره ولا بفعله ولا بقوله بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول وكفره ونهوه وغرود وأضرابه ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين فان حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول ومن كلمة الله سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء الى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين وكان ظهروهم من آيين الأدلة على صدق الرسل والفرق بين هؤلاء وبينهم فبضدها تبين الأشياء والضد يظهر حسنه الضد معرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحقي وبراهينه فلما سمع ذلك قال معاذ الله لا نقول انه ملك ظالم بل نبي كريم من أتبعه فهو من السعداء وكذلك من أتبع موسى فهو من أتبع محمدا قتل له بطل كما تموهون به بعد هذا فانكم اذا أقررتم انه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة انه دعى الناس كلهم الى الايمان وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر محتل في النار وقائل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وأجعل عليهم بالكفر واعتباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم فان كان ذلك عدوانا منه وجورا لم يكن نبيا وطادا لأمرا الى القدح في الرب تعالى وان كان ذلك بأمر الله ووحيه

لم يسع مخالفته وترك اتباعه وولم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر وقد ارشد سبحانه
 الى هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال ولوقول علينا بعض الاقويل لاخذنا منه باليمين
 ثم لقطعنا منه الوتين فامكنكم من احدعه حاجزين بقول سبحانه لوقول علينا قولا واحدا من تلقاء
 نفسه لم نقله ولم نوحه اليه لما اقررناه ولاخذنا بيئته ثم اهلكناه هذا احد القويلين قال ابن قتيبة في هذا
 قولان احدهما ان اليمين القوة والقدره واقام اليمين مقام القوة لان قوة كل شئ في ميامنه قلت
 وعلى هذا تكون اليمين من صفة الاخذ وهذا قول ابن عباس في اليمين قال ولاهل اللغة في هذا مذهب
 آخر وهو ان الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الاخذ بيد من يعاقب وهو قولهم اذا ارادوا عقوبة
 رجل خذ به واكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم خذ به واسفع يده
 فكأنه قال لو كذب علينا في شئ اليكم عنا لاخذنا بيئته ثم ما قبلناه بقطع الوتين والى
 هذا المعنى ذهب الحسن انتهى فقد أخبر سبحانه انه لو نقول عليه شئاً من الاقويل لما اقره
 ولعاجله بالعقوبة فان كذبا على الله ليس ككذب على غيره ولا يليق به ان يقر الكاذب عليه
 فضلا عن أن ينصره ويؤيده وبصدقه وقوله ثم لقطعنا منه الوتين والوتين يباط القلب
 وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب اذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه هذا
 قول جبيع اهل اللغة قال ابن قتيبة ولم يرد أن انقطع ذلك العرق بعينه ولكنه ان أراد لو كذب
 علينا لا مثاء او قلناه وكان كمن قطع ويده قال ومثله قوله صلى الله عليه وسلم ما زالت اكلة
 خبير تعاودني وهذا أو ان قطعة ابهرى والابهر عرق يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه
 فكأنه قال بهذا أو ان قلني المم فكنت كمن انقطع ابهره ثم قال تعالى فامكنكم من احدعه
 حاجزين اى لا يحجزه مني احد ولا يمنعه مني الموضع الثاني قوله تعالى ام يقولون افترى
 على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه علم
 ذات الصدور وفي معنى الآية فاناس قولان احدهما قول مجاهد ومقاتل ان يشأ الله يربط
 على قلبك بالصبر على اذاهم حتى لا يشقى عليك والثاني قول قتادة ان يشأ الله ينسبك
 القرآن ويقطع عنك الوحى وهذا القول دون الاول اوجوه أحدها ان هذا خرج حوايلهم
 وتكذيبا لقولهم ان محمدا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن فأجابهم بأحسن جواب
 وهو ان الله تعالى قادر لا يجره شئ ولو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه ان يأبى بشئ
 منه بل يصير القلب كالشئ المنحوم عليه فلا يصل الى ما فيه فيعود المعنى الى انه لو افترى
 على لم امكنه ولم اقره ومعلوم ان مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب منحوم عليه فان فيه
 من علوم الاولين والآخرين وعلوم المبدأ والمعاد والدينا والآخرة والعلم الذي لا يعلمه الا الله
 والبيان التام والجزلة والفصاحة والجلالة والاخبار بالغيوب مالم يمكن من ختم على قلبه
 ان يأبى فيه ولا يعصيه فلو انى أتزله على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه ان يأبى بكم بشئ
 منه فابن هذا المعنى الى المعنى الذى ذكره الآخرون وكيف يلتم معنى حكاية قولهم وكيف
 يتضمن الرد عليهم الوجه الثاني أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على اذاهم يصدر من الحق
 والمبطل فلا يدل ذلك على التميز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم فان الصبر على اذى المكذب
 لا يدل بمجرد صدق الخبر الثالث أن الربط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ولا

هكذا يابض في

يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المهود في القرآن بل المهود استعمال الختم
على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله ختم الله على قلوبهم وقوله
أمرأت من اتخذ الله هواه وأضله الله - على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره
غشاوة ونظائر - وأما ربطه - على قلب العبد بالصبر فكقوله وربطنا على قلوبهم إذ قاموا
فقالوا ربنا رب السموات والأرض وقوله وأصبح نؤادهم موسى فارغاً ان كادت لتبدي به لولا
ان ربطنا على قلبها والانسان يسوغ له في الدماء أن يقول اللهم اربط على قلبي ولا يحسن ان
يقول اللهم اختم - على قلبي الرابع انه سبحانه حيث يحكي أقوالهم انه افتراء لا يجيبهم - على
هذا الجواب بل يجيبهم بأن لو افترأ لم يملكوا له من الله شيئاً بل كان يأخذه ولا يقدرون
- على تخليصه كقوله أم يقولون افترأه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً
ونارة يجيبهم بالمطالبة بمسارضة بمثله أو شيء منه ونارة باقامة الادلة القاطعة - على أنه
الحق وانهم هم الكاذبون المنزورون وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال
لا مجرد الصبر الخامس أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا يمكنه وتفسير
القرآن بالقرآن من أبلغ التفاهة - السادس انه لا دلالة في سياق الآية - على الصبر
بوجه ما لا بالمطابقة ولا التضمن ولا الزوم فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ولم يستقر هذا المعنى
في غير هذا المعنى فيحصل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد
ذكره في مواضع السابغ انه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما أتاه عليهم ولا أدراهم به وأن ذلك
انما هو بمشيئته واذنه وعلمه كما قال تعالى ولو شاء الله ما تلوونه عليكم ولا أدراككم به وهذا
من أبلغ الجميع وأظهرها أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن أؤثر به
على الله ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالفة الناس
والعلم منهم ولكن الله يثبتني واوشاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بل ساقى فلم يدعني أتله - وه
عليكم وان أهلكم به ألبسة لا على اساني ولا على لسان غيري وانكنه أوحاه إلى وأذن لي
في تلاوته عليكم وأدراككم به بعد أن لم تنكروا دارين به فلو كان كذباً وافتراءً كما تقولون
لا يمكن خبري أن يتلوه عليكم وتدون به من جهته لان الكذب لا يعجز عنه البشر وأنهم لم يندروا
بهذا ولم تسمعوا الامني ولم تسمعوه من بشر غيري ثم اجاب عن سؤال مقدر وهو انه تعلم من
غيره او افتراء من تلقاء نفسه فقال قد ثبتت فيكم عمراً من قبله تعلمون حالى ولا يخفى عليكم
سري ومدخلى ومخرجى وصدقى وامانتى ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبسة ولا
كان لي به علم ولا بعضه ثم أيتكم به وهلة من غير تعلم ولا تعلم ولا معانة الاسباب التي أتمكن
بإمائه ولا من بعضه وهذا من اظهر الادلة وابين البراهين انه من عند الله اوحاه إلى واتزله
على ولو شاء ما فعل فلم يكن من تلاوته ولا امكنكم من العلم به بل مكنتني من تلاوته ومكنكم
من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا بعضه ولم أكن قبل ان يوحى إلى نأيا له ولا بعضه فتأمل
صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالة ومن هذا قوله سبحانه واتخذنا لندب
بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا كيداً وهذا هو المناسب لقوله ام يقولون افترأه
على الله كذباً فان يشاء الله نختم على قلبك ولقوله ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه

باليقين هو برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة والله أعلم بالثامن ان مثل هذا التركيب انما جاء في القرآن للنفي لا للاثبات كقوله تعالى واثن شذالذين بالذي اوحينا اليك وقوله ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بآخرين وقوله ان يشأ يسكن الريح فيظللان رواكد على ظهره وقوله ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ونظاثره لم يأت الا فيما كان مابعد فعل المشيئة منفيا التاسع ان الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره بل اذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فانه يستلزم الصبر كما قال تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ومعنى الربط في اللغة الشد ولهذا يقال لكل من صبر على امر ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ومنه يقال هو رابط الجأش وقد ظن الواحدى ان على زائدة والمعنى يربط قلوبكم وائس كما ظن بل بين ربط الشيء وربط عليه فرق ظاهر فانه يقال ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها فاذا احاط الرباط بالشيء وعنه قبل ربط عليه كأنه احاط عليه بالرباط فلهذا قيل ربط على قلبه وكنان احسن من ان يقال ربط قلبه والمقصود ان هذا الربط هو يكون الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم العاشر ان الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو ما ذبح مع العلم والتقصير والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول احدائه انه افترى القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه مانعا من شعوره بذلك وعلم به فاذا قيل الامر كذلك ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التأذى بقولهم قيل هذا اولى ان يسمى ختما وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه كما قال تعالى قد تعلم انه ليحزنك الذي بين يديه وكان وصول هذا الاذى اليه من كرامة الله فانه لم يؤذني ما يؤذى فالقول في الآية هو قول قتادة والله أعلم ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للذين يتذكرون المتقي فيبصر ما ينفعه فيأتيه وما يضره فيجتنبه ويتذكره اسماء الرب تعالى وصفاته وافعاله فيؤمن ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعده وامره ونهيته وآياته في أوليائه واعدائه ونفسه وما يزيها ويطهرها ويعلمها وما يبدسها ويخفيها ويحقرها ويتذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار وعلم الخير والشر فهو التذكير على الحقيقة تذكرة حجة للعالمين ومنفعة وهداية للعلمين ثم قال سبحانه وانما تعلم ان منكم مكذبين اي لا يخفون علينا فسيجازيهم بتكذيبهم ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حمرة على الكافرين اذا طابوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التمسر وهكذا كل من كذب بحق وصدق بساطل فانه اذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حمرة عليه كن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى اذا اشتدت حاجته اليه وطأ في فوز المحصلين صار تقربطه عليه حمرة ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين قليل هومن باب اضافة الموصوف الى صفته اي الحق اليقين نحو مسجد الجامع وصلاة الاولى وهذا موضع يحتاج الى تحقيق فنقول وبالله التوفيق ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين كما قال تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها بين اليقين فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علم وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة

تدح في تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلا وثيقتهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين بهذه مرتبة العلم كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وثيقتهم صدق الخبر المرتبة الثانية عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ثم لترونها عين اليقين وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة فاليقين للسمع وعين اليقين للبصر وفي المسند للإمام أحمد مرفوعا ليس الخبر كالمعين وهذه المرتبة هي التي سألتها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه فيسكن القلب عند المعاينة ويطمان لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان وعلى هذه المسافة أطلق النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال نحن احنى بالشك من إبراهيم ومعاذ الله أن يكون هناك شك منه ولأن إبراهيم وانما هو عين بعد علم وشهود بعد خبر ومعاينة بعد سماع المرتبة الثالثة مرتبة حق اليقين وهي مباشرة الشيء بالاحساس به كما اذا دخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين وفي الموقف عين تراق وتقرّب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين واذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين وبمباشرة المعلوم نارة يكون بالحواس الظاهرة ونارة يكون بالقلب فلهذا قال وانه لحق اليقين فان القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها فينتدخض بالباطن بشاشة القلوب ويبقى لها حق اليقين وهذه أعلى مراتب الايمان وهي الصديقية التي تفاوتت فيها مراتب المؤمنين وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثلا فقال اذا قال لك من تجزم بصدقه عندي حصل أريد أن اطعمك منه بصدقه كان ذلك علم يقين فاذا حضره بين يديك صار ذلك عين اليقين فاذا ذقته صار ذلك حق اليقين وعلى هذا فليست هذه الاضافة من باب اضافة الموصوف الى صفته بل من اضافة الجنس الى نوعه فان العلم والعين والحق اعم من كونها يقينا فأضيف العام الى الخاص مثل بعض المنافع وكل الدراهم ولما كان المضاف والمضاف اليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن أنها من اضافة الموصوف الى صفته وليس كذلك بل هي من باب اضافة الجنس الى نوعه كثوب خز وخاتم فضة فالضاف اليه قد يكون مقابرا للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد والله أعلم ثم ختم السورة بقوله فسبح باسم ربك العظيم وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة وذكر عظمته تعالى في ارسال رسوله وانزال كتابه وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذبا متقولا عليه مفترى عليه يبدل دينه وينسخ شرائعه ويتنزل عباده ويخبر عنه بالاحقية فله وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ويحبب دعوته ويأخذ أهداه ويرفع قدره ويعلّي ذكره فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأفجع أنواع الكذب والعظم فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسبه اليه الجاهلون علوا كبيرا

فصل ومن ذلك قوله عز وجل فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على

أن تبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين أقسم سبحانه رب المشرق والمغرب وهي اما
مشارك النجوم ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها وان كل موضع من الجهة مشرق
ومغرب فكذلك جمع في موضع وأفرد في موضع وثني في موضع آخر فقال رب المشرقين
 ورب المغربين فقبل هما مشرقا الصيف والشتاء وجاء في كل موضع ما يناسبه فجاء في سورة
الرحمن رب المشرقين ورب المغربين لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق
والتعليم والشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والارض والحب والتمر والجن والانس
ومادة أبي البشر وأبي الجن والبحرين والجنة والنار وقسم الجنة الى جنتين عاليتين وجنتين
دونهما وأخبر أن في كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين وأما
سورة سأل سائل فإنه أقسم سبحانه على عوم قدرته وكآلهما وصحة تعلفها بأما دلتهم بعد العدم
فذكر المشرق والمغرب بلفظ الجمع اذ هو أدل على المقسم عليه - واه أريد مشارق النجوم
ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب فكل ذلك
آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل امثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون
فيأتيهم في نشأ آخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع وتذهب في مغرب وأما في
سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الافراد لما كان المقصود ذكر ربوبيته
ووحدايته وكما انه تفرد برؤية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب ان يتفرد
برؤية التوكل عليه وحده فليس للمشرق والمغرب رب سواه فكذلك ينبغي أن لا يتخذ
الله ولا وكيل سواه وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله وما رب العالمين فقال رب المشرق
والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون وفي ربوبية سبحانه للمشارك والمغرب تنبيه على ربوبية
السموات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم وربوبية ما بين الجهتين وربوبية الليل والنهار
وما تضمنه ثم قال انما لقادرون على ان تبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين اى لقادرون
على ان نذهب بهم ونأى بأطوع لانهم وخير امنهم كما قال تعالى ان يشأ يذهبكم أيها الناس
ويأتى بآخرين وكان الله على ذلك قديرا وقوله وما نحن بمسبوقين اى لا يفوتنى ذلك اذا ارادته
ولا يمنع منى وعبر عن هذا المعنى بقوله وما نحن بمسبوقين لان المغلوب يسبقه الغالب الى ما يريد
فيفوت عليه ولهذا هدى يعلى دون الى كافي قوله وما نحن بمسبوقين على ان تبدل امثالكم
فانه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين هداه الى بخلاف سبقه اليه فانه فرق بين سبقته اليه وسبقته
عليه فالاول بمعنى غلبته وقهرته عليه والثاني بمعنى وصلت اليه قبله

فصل وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم وفي بعضها
تبديل امثالهم وفي بعضها استبداله قوم اخرهم ثم لا يكونوا امثالهم فلهذا ثلاثة امور يجب
معرفة ما بينها من الجمع والفرق فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو اخبار عن قدرته
على ان يذهب بهم ويأى بأطوع واتقوا له منهم في الدنيا وذلك قوله وان تولوا يستبدل قوما غيركم
ثم لا يكونوا امثالكم معنى بل يكونوا خيرا منكم قال مجاهد يستبدل بهم من شاء من عباده
فيجعلهم خيرا من هؤلاء فلم يتولوا بحمد الله فليستبدل بهم واما ذكره تبديل امثالهم في سورة
الواقعة - سورة الانسان فقال في الواقعة نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين
على ان تبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون وقال في سورة الانسان نحن خلقناهم وشددنا

امرهم واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا قال كثير من المفسرين المعنى انما اذا اردنا ان نخلق غيركم لم يسبقنا سابق ولم يمتدنا ذلك وفي قوله واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا اذ شئنا اهلكناهم واتيئنا بأشباههم فجعلناهم بدلا منهم قال المهدوي قوما واقفين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل ولم يذكروا الواحد ولا ابن الجوزي غير هذا القول وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بآخرين فيكون استدلالا بقدرة الله على اذهابهم والاتيان بامثالهم على اتيانه بهم انفسهم اذا ما انوا انما استدل سبحانه بالنشأة الاولى فذكرهم بها فقال ولقد علمنا النشأة الاولى فلو لا انه كرون فيهم بما حملوه وطابوه على صدق ما اخبرتهم به رساله من النشأة الثانية والذي عندي في معنى هاتين الآيتين وهما آية الواقعة والانسان المراد بتبديل امثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها وقد وفق الزمخشري لفهم هذا من سورة الانسان فقال وبدلنا امثالهم في شدة الامر يعني النشأة الاخرى ثم قال وقبل وبدلنا غيرهم عن بطيع وحقه ان يأتي بان لا ياباذا كقوله وان تولىوا يستبدل قوما غيركم قلت واتيانه باذا التي لا تكون الا للصفة الوقوع بدل على تحق وقوع هذا التبديل وانه واقع لا محالة وذلك هو النشأة الاخرى التي استدل على امكانها بقوله ولقد علمنا النشأة الاولى واستدل بالمثل على المثل وعلى ما ذكره بما ينويه وشاهدوه وكونهم امثالهم هو انشاءهم خلقا جديدا بعينه فهم هم باعيانهم وهم امثالهم فهم انفسهم بعد ان قلنا المعاد هذا هو الاول بعينه صدقت وان قلت هو مثله صدقت فهو هو معاد او هو مثل الاول وقد اوضح هذا سبحانه بقوله بل هم في لباس من خلق جديد فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم امثالهم وقد سماه الله سبحانه وتعالى اعادة والمعاد مثل المبدأ وسماه نشأة اخرى وهي مثل الاول وسماه خلقا جديدا وهو مثل الخلق الاول كما قال امسينا بالخلق الاول بل هم في لباس من خلق جديد وسماه امثالا وهم هم فتطابقت الفاظ القرآن وصدق بعضها بعضا وبين بعضها بعضا ولهذا تزول اشكالات اوردها من لم يفهم المعاد الذي اخبرت به الرسل عن الله ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين انهم غيرهم من كل وجه فهذا خطأ قطعاه الله من اعتقاده بل هم امثالهم وهم اعيانهم فاذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة الاضيق العطن صغير العقل ضعيف العلم وتأمل قوله تعالى في الواقعة افرأيتم ما تمنون انتم تخلقونه ام نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلا بها على النشأة الثانية الاولى بقوله وتما نحن عاصونين على ان تبدل امثالكم وتنشئكم فيما لا تعملون فانكم انما علمنا النشأة الاولى في بطون اسمائكم ومبدأها معتمنون وان تغلب على ان تنشئكم نشأة ثانية فيما لا تعملون فاذا انتم امثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته او قد كنتم احوال النشأة الاولى لذلك ذلك على قدرة منشيئها على النشأة التي كذبتم بها فأى استدلال وارشاد احسن من هذا واقر الى العقل والفهم وابعده من كل شبهة وشك وليس بعد هذا البيان والاستدلال الا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والايمان وقال في سورة الانسان نحن خلقناهم وشددنا أسرهم فهذا النشأة الاولى ثم قال واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا فهذا النشأة الاخرى ونظير هذا ان الله خلق الزوجين الذكور والانثى من نطفة

اذا غنى وان عليه النشأة الاخرى وهذا في القرآن كثير جدا يقرن بين النشأتين مذكرا
 للفطر والعقول باحدهما على الاخرى وبالله التوفيق
 فصل في ما اقام عليهم الحجة وقطع المذرة قال مذرهم بخوضوا ويا لبوا حتى يلاقوا
 يومهم الذي يوعدون وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجة فلم يقبلوها
 ولم يخافوا بأسى ولا صدق وارسالاتى في خوضهم بالباطل ولعبهم بالخوض في الباطل ضد
 التكلم بالحق والعب ضد السعى الذى يعود نفعه على داعيه فالاول ضد العلم النافع والثاني ضد
 العمل الصالح والالتكلم بالحق والاعمال بالصواب وهذا شأن كل من اعرض عما جاء به الرسول
 لايديته من هذين الامرين ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور فقال يوم يخرجون
 من الاجداث سرا كما أنهم الى نصب يوفضون اى يسهرون والنصب العلم والغاية التى نصب
 فيؤمونها وهذا من اطفاف التشبيه وايته واحسنه فان الناس يقومون من قبورهم مهطعين
 الى الداعي يؤمون الصوت لا يعرفون عنه عينة ولا بصيرة كما قال يومئذ يبعثون الداعي لا هوج
 له اى يقبلون من كل اوب الى صوته وناحيته لا يعرفون عنه قال القراء وهذا كما تقول
 دعوتنى دعوة لا هوج لك عنها وقال الزجاج المعنى لا هوج لهم عن دماثة اى لا يقدر
 الام الى اتباعه وقصده فان قلت اذا كان المعنى لا هوج لهم عن دعوتى فكيف قال
 لا هوج له قيل قالت طائفة اللام بمعنى عن اى لا هوج عنه وقالت طائفة المعنى لا هوج
 لهم عن دماثة كما قال الزجاج وفي القوافى تكلف ظاهر ولما كانت الدعوة تجمع الجميع
 لانه هوج عنهم وكلام يؤم صوت الداعي ويتبعه لا هوج عنه كان مجي اللام منتظما
 للمعنيين ودالا عليهما والمعنى لا هوج لدماثة لافى اسماءهم اياه ولا فى اجاباتهم لهم ثم قال تعالى
 خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الابصار وذلل الباطل وهو
 ما يرهقهم من الذلل الذى خشعت عنه ابصارهم وقريب من هذا قوله ووجوه يومئذ باسرة
 تظن ان يفعل بها فاقرة ونظيره قوله وترهقهم ذلة ما لهم من الله من ماصم كأنما غشيت وجوههم
 قطما من الليل مظلما وضدهذا قوله تعالى انك ان لا تجوع فيها ولا تعرى فنحن منه الجوع الذى
 هو ذلل الباطن والعرى الذى هو ذلل الظاهر وضده ايضا قوله ولقاهم نضرة وسرورا
 فالنضرة عز الظاهر وجاله والسرور عز الباطن وجاله ومثله ايضا قوله قال لهم ثياب من
 خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا فجمع له بين زينة الظاهر
 والباطن ومثله قوله يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سواكم وربشا ولباس التقوى ذلك
 خير فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن ومثله قوله انا انزلنا السماء زينة الكواكب وحفظا من
 كل شيطان مارد فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم ومثله قوله ايضا
 وصوركم أحسن صوركم وورزقكم من الطيبات وقريب منه قوله تعالى وتزودوا فان خير
 ازاد التقوى ومنه قوله فأما الذين اسودت وجوههم كفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما
 كنتم تكفرون وأما الذين ابضت وجوههم فى رحمة الله هم فيها خالدون فجمع لهؤلاء الذين
 جال الظاهر والباطن ولاواك بين تسويد الظاهر والباطن ومنه قول امرأة العزيز فذا لکن
 الذى لئننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة

فوصفته بجمال الظاهر والباطن فكأنها قالت هذا ظاهره وباطنه أحسن من ظاهره وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا والله أعلم بالصواب

فصل ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَالْقُلُوبَ مَا يَاسْطُورُونَ ﴾ ما أنت بنعمت ربك بمحسبون الصحيح أن ن وق و ص من حروف الهجاء التي يفتح بها الارب سبعمائة بعض السور وهى أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخاسية ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط فى اول سورة الا وعقبها بذكر القرآن اما مقسماته واما مخبرها عنه ما خلا سورتين سورة كهيعص ون كقوله الم ذلك الكتاب الم الله لاله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل اليك المرنك آيات الكتاب وهكذا الى آخره فى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها اذ هى مباني كلامه وكتبه التى تكلم سبحانه بها وأ نزلها على رسله وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووحيه وعدده وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبح وأقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون بها أقصى ما فى انفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة واوصله الى المقصود وأدله عليه وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته ولهذا ما با سبحانه على من عبده الا يتكلم وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته وكمال احسانه وانعامه فهى اولى ان يقسم بهامن الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والجموم وغيرهما من المخلوقات فهى دالة اظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكلامه وصدق رسله وقد جمع سبحانه بين الامرين أعنى القرآن ونطق اللسان وجعل تعليمهما من مقام نعمته وامتنانه كما قال الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان فهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان وبها فضل الانسان على سائر انواع الحيوان وبها أنزل كتبه وبها أرسل رسله وبها جمعت العلوم وحفظت وبها انتظمت مصالح العباد فى المعاش والمعاد وبها تميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد وبها جمعت أشنات العلوم وبها يمكن نقلها فى الأذهان وكما جلب بها من نعمة ودفع بهامن نعمة وأقبلت بهامن عثرة وأقيمت بهامن حرمة وهدى بهامن ضلالة وأقيم بهامن حق وهدم بهامن باطل فأياته سبحانه فى تعليم البيان كآياته فى خلق الانسان ولولا عجايب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب فسمعان من هذا صنعته فى هواء يخرج من قصبة الرئة فينضم فى الخلقوم بنفث فى أقصى الخلق ووسطه وآخره وأغلاه واسفله وعلى وسط لسان واطرافه وبين التنابؤ فى الشفتين والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له فاذا هو حرف فألهم سبحانه الانسان بضم بعضها الى بعض فاذا هى كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها الى بعض واذا هى كلام دال على انواع المعانى امر او نهي وخبر واستخبارا ونقيا واثباتا واقرارا وانكارا وتصديقا وتكذيبا وإيجابا واستخبارا وسؤالا وجوابا الى غير ذلك من انواع الخطاب نظمته ونثره ووجيزه ومطولاه على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى هواء مجر دخارج من باطن الانسان الى ظاهره فى مجار قد هيئت واحدت لتطبعه وتنفصه ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين فهذا شأن الحرف المخلوق وأما الحرف الذى به تكون المخلوقات

مشأته اعلی وأجل واذا كان هذا شأن الحروف فسحق ان تنفتح بها السور كما افتتحت الاقسام
لما فيها من آيات الربوبية وادلة الوجدانية فهي دالة على كمال قدرته سبحانه وكمال علمه وكال
حكيمته وكال رحمنه وعنايته بتخلقه واطفه واحسانه واذا اعطيت الاستدلال بها حقا احتدلت
بها على المبدأ والمعاد والخلق والامر والنهي والرسالة فهي من اظهر ادلة شهادة ان لا اله الا الله
وان محمدا عبده ورسوله وان القرآن كلام الله تكلم به حقا وانزله على رسوله وحيا وبلغه
كما أوحى اليه صدقا ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف واشتملها على آيات هذه
المطالب وتقرر بها وبالله التوفيق

فصل ثم اقسام سبحانه بالقلم وما يسطرون فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو
احدى آياته واول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي وقيد به الدين
وانتبه به الشريعة وحفظت به العلوم وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فأطدت به
الممالك وامنت به السبل والمسالك واقام في الناس ابلغ خطب وافصحهم وانفعهم لهم وأنصحه
وواعظا تشفى مواضع القلوب من السقم وطيبا يبرى بأذنه من انواع الالم يكسر العساكر
العظيمة على انه ضعيف الوحيد ويخاف سطونه وبأمره ذو البأس الشديد وبالاقلام تدبر الاقاليم
وتساق الممالك والعلم لسان الضمير يتناجيه بما استتر من الاسماع فينمج حلال المعاني في الطرفين
فتعود احسن من الوشى المرقوم ويودعها حكمة فتصير بواذر الفهوم والاقلام نظام للفهوم
وكما ان اللسان يبريد القلب فالقلم يبريد اللسان ويولد الحروف المسموعة من اللسان كنسول
الحروف المكتوبة عن القلم والقلم يبريد القلب ورسوله ورجانه ولسانه الصامت

فصل والاقلام متفاوتة في الرتب فأعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذي
كتب الله به مقادير الخلائق كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول أن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يا رب وما اكتب
قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة واختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات
أو العرش على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلي الهمداني أحدهما أن العرش قبل القلم لما ثبت
في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم قدر الله مقادير
الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء فهذا صريح أن
التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لم يحدث عبادة هذا ولا يخلو
قوله أن أول ما خلق الله القلم إلى آخره اما ان يكون جملة أو جلتين فان كان جملة وهو
الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له اكتب كافي اللفظ أول ما خلق الله القلم قال له
اكتب بنصب أول والقلم لم كان جلتين وهو مروي برفع أول والقلم فيعين جملة على أنه
أول المخلوقات من هذا العالم لينفي الحديثان اذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق
على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب فهذا
القلم أول الاقلام وأفضله وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به
فصل القلم الثاني قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحى الله الى أنبيائه ورسوله واصحاب
هذا القلم هم الحكماء على العالم والمعلم خدم لهم واليهام الحل والعقد والاقلام كلها خدم لاقلامهم

وقد رجع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الامراء الى مستوى يجمع فيه صريف الاقدام وهذه الافلام هي التي تكتب ما يوحى به الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبر بها امر العالم العلوي والسفلي
 ﴿فصل﴾ والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم ايضا حاكم غير محكوم عليه فاليه التحاكم في الدماء والفروج والحقوق واصحابه يخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده واصحابه حكام وملوك على ارباب الافلام واقلام العالم خدام لهذا القلم

﴿فصل﴾ القلم الرابع قلم طب الابدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وتزدها بصحتها المفقودة وتُدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم انفع الافلام بعد قلم طب الاديان وحاجة الناس الى اهله تلحق بالضرورة

﴿فصل﴾ القلم الخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهم هذا كان اصحابه اعز اصحاب الافلام المشاركون للملوك في تدبير الدول فان صلحت اقلامهم صلحت المملكة وان فسدت اقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

﴿فصل﴾ القلم السادس قلم الحساب وهو القلم الذي تضبط به الاموال مستخرجها ومصرفها ومقاديرها وهو قلم الارزاق وهو قلم الكم المنصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما يندرجها من التفاوت والتناصب ومبناه على الصدق والعدل فاذا كذب هذا القلم وظلم فسد امر المملكة

﴿فصل﴾ القلم السابع قلم الحكم الذي ثبتت به الحقوق ونقضت به القضايا وتراق به الدماء وتؤخذ به الاموال والحقوق من اليد العسادية فتزد الى اليد الحققة وتثبت به الانسان وتقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص في ذلك النفوذ والازوم وذلك له العموم والشمول وهو قلم قائم بالصدق فيما يشتهه وبالعدل فيما يحضيه وينفذه

﴿فصل﴾ القلم الثامن قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتضامن عن الاضاعة ونحوه بين الفاجر وانكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويشهد للحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو الامين على الدماء والفروج والاموال والانساب والحقوق ومتى خان هذا القلم فسد العالم اعظم فسادا وبانتمائه يستقيم امر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان

﴿فصل﴾ القلم التاسع قلم التعبير وهو كاتب وحى المنام وتفسيره وتعبيره وما اريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم لحواس المنام كاشف له وهو من الاقلام التي تصلح للدين والدنيا وهو يعقد طهارة صاحبه ونزاهته وامانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمنهاج السديدة مع عدم راسخ وصفاء باطن وحسن مؤيد بالنور الالهي ومعرفة بأحوال الخلق وهياكلهم وسيرهم وهو من الطف الاقلام واعمالها جولانا واسرها انصرفا واشدها تشبها بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه

﴿فصل﴾ القلم العاشر قلم تواريخ العالم وقائمه وهو القلم التي تضبط به الحوادث وتنقل من امة الى امة ومن قرن الى قرن فيحصر ماضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المسادر وحاتي وهذا القلم قلم العجائب

فانه بعد ذلك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده بصيرتك

فصل في القلم الحادي عشرة - لم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني الفاظها المفردة ونحوها وتصريفها واسرار تراكيدها وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو - لم التعبير عن المعاني بأخبار أحسن الالفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها وهذا القلم واسع النصرف جدا بحسب سعة الالفاظ وكثرة مجازيها ونسبها

فصل في القلم الثاني عشر القلم الجامع وهو - لم الرد على المبطلين ورفع شبهة المحققين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم ونهايتهم وخروجهم من الحق ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الاقلام نظير الملوك في الانام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لاعدائهم وهم الداعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدل وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسول فهم في شأن وغيرهم من اصحاب الاقلام في شأن فهذه الاقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ويكفي في جلالة الله - لم أنه لم تكتب كتب الله الا به وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه وتعرف الى غيره بأن علم بالقلم وانما وصل اليها ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم ولقد ابدع ابراهيم اذ يقول في وصفه

لك القلم الماضى الذى بثبانه * يصاب من الامر الكلى والمفاصل
له ربة طل ولكن وقعها * بأثارة في الغرب والشرق وابل
اماب الاغنى القاتلات لمسا به * وارش الجا شتارته أبدع وامل
له الخلدوات الاى لا ولا نجبها * لما اختلفت لملك تلك المفاصل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب * واعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ما تلى الخس اللطاف وأفرغت * عليه شفا الكفرو هى حوافل
المساعته اطراف القنا وتقوضت * لنجواه تقويض الخيام الجمافل
اذا استعذر الذهن الذى واقلت * اعاليه في القرطاس وهى اسافل
وقدر فدنه الخنصران وشدت * ثلاث نواحيه الثلاث الانامل
رايت جللا شأنه وهو مرهف * ضنا وميما خطبه وهو هازل

فصل في القلم الثالث عشر القلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه اعداؤه وهو قوله تعالى ما انت بنعمة ربك بمجنون وانت اذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر دالة وابينها فان ما طر الكاتب بالقلم من انواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ولا تصدر الا من عقل وافر فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى في اعلى درجات العلوم بل العلوم التى تضمنها ليس في قوى البشر الا تيان بها ولا سيما من أمي لا يقرأ كتابا ولا يخط بيده مع كونه في اعلى انواع الفصاحة سليما من الاختلاف ربما من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد ان يأتوا بمثل ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون

لا عقل له يميزه ماضى كثير من الحيوان ان يميزه وهل هذا الامن اقبح الهيات واطهر الافات
فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه اثم دلالة ولوان رجلا انشأ رسالة
واحدة بديعة منتظمة الاول والاخر مساوية الاجزاء يصدق بعضها بعضا او قال قصيدة
كذلك او صنف كتابا كذلك لشهاده العقلاء بالعقل ولما استجاز احد ربه بالجنون مع
امكان بل وقوع معارضتها ومشاكلتها والاثبات بثلثها واحسن منها فكيف يرمى بالجنون
من اتى بما جرت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومما ثلثه وعرفهم من الحق ما لا تهتدى
عقولهم بحيث اذعن له عقول العقلاء وخضعت له ابواب الاولياء وتلاشت في جنب ما جاء به
بحيث لم يسعها الا التسليم له والانقياد والا ذناب طائفة مختارة وهى ترى عقلها
اشد فقا واجة الى ما جاء به ولا كمالها الا بما جاء به فهو الذى كل عقولها كما يكمل الطفل
برضاع الثدي ولهذا اتباعه اعقل الخلق على الاطلاق وهذه مؤلفاتهم وكتبهم
في الفنون اذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهرت التفاوت بينها ويكنى في عقولهم
انهم همروا الدنيا بالعلم والعدل والقلوب بالايمان والتقوى فكيف يكون متبوعهم مجنون
وهذا حال كتابه وهديه وسيرته وحال اتباعه وهذا انما حصل له ولا يتابعه بنعمة الله
عليه وعليهم فنحن عنه الجنون بنعمته عليه وقد اختلف في تقدير الآية فقلت فرقة الباء في بنعمة
وبك باء القسم فهو قسم آخر اعترض بين المحكوم به والمحكوم عليه كما يقول ما انت بالله بكاذب وهذا
التقدير ضعيف جدا لانه قد تقدم القسم الاول فكيف يقع القسم الثاني في جوابه ولا يحسن
أن تقول والله ما انت بالله بقائم وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهده في كلامهم وقالت
فرقة العامل في بنعمة ربك أداة معنى النفي أو معنى اننى هنك الجنون بنعمة ربك وردا بوجع الحاجب
وغيره هذا القول بان الحرف لا تعمل معانيها وانما تعمل الماظها وقال الزمخشري يتعلق بنعمة ربك
بمجنون منفي كما يتعلق بعاقلة مثبتي قولك أنت بنعمة الله قائل يستويان في ذلك الاثبات والنفي
استواءهما في قولك ضرب زيد عمر او ما ضرب زيد عمرا يعمل الفعل مثبتا ومنفي افعالا واحدا ومجمله
الصعب على الحال اى ما انت بمجنون منكما عليك بذلك ولم تنع الباء ان يعمل مجنون فيما قبله لانها
زائدة لتأكيد النفي واعترض عليه بأن العامل اذا تسلط على محكوم به وله معمول فانه يجوز فيه
وجهان احدهما نفي ذلك المعمول فقط نحو قولك ما زيد بذهاب مسرعا فانه ينفي الاسراع دون
القيام ولا يمنع أن يثبت له ذهاب في غير اسراع والثاني ينفي المحكوم به فينفي معموله بانتفاءه
فينفي الذهاب في هذه الحال فينفي الاسراع بانتفاءه فاذا جعل بنعمة ربك معمول لا يجوز لم
احد الامرين وكلاهما متف جزما وهذا الاعتراض هنا فاسد لان المعنى اذا حصل ما انت
بمجنون منكما عليك لم من صدق هذا الخبر تنفيها قطعا ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل
في هذا الكلام ولا يفهم منه من له آله الفهم وانما يفهم الآدمي من هذا الكلام ان الجنون انتنى
عنك بنعمة الله عليك وانتى هنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا ثم اخبر سبحانه عن كمال
حالتى نبيه صلى الله عليه وسلم في دنياه واخراه فقال وان لك لا تجرا غير ممنون اى غير
مقطوع بل هو دائم مستمر ونكر الاجرت تكبير تعظيم كما قال ان في ذلك لعبرة وان في ذلك لاية
وان في ذلك لذكرى وان للمنتقين مغازا وان له عندنا لزقى وحسن مأب وهو كثير وانما كان

التكبر لعظم لانه صور السامع بمنزلة امر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير ثم قال وانك اعلى خلق عظيم وهذه من اعظم آيات نبوته ورسالتهم ان منعه الله فهموا لقد مثلت ام المؤمنين من خلقه صلى الله عليه وسلم بأجابت بما شقي وكفى نقالت كان خلقه القرآن فهم سائلها ان يقوم لا يسألها شيئا بعد ذلك ومن هذا قال ابن عباس وغيره ان على دين عظيم وسعى الدين خلقا لان الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وارادات زائفة وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة واقوال مطابقة للحق تصدر تلك الاقوال والاعمال من تلك العلوم والارادات فنكتسب النفس بها اخلاقا هي اذكي الاخلاق واشرفها وافضلها فهذه كانت اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له وتبيينا وعلومه علوم القرآن وارادته واعماله ما اوجبه وندب اليه القرآن واعراضه وتركه لما منع منه القرآن ورغبه فيما رغب فيه وزهد فيما زهد فيه وكراهته لما كرهه ومحبه لما احبه وسعيه في تنفيذ اوامره وتبليغه والجهاد في اقامته فترجعت ام المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها كان خلقه القرآن وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى فاكتفى به واشتفى فاذا كانت اخلاق العباد وعلومهم واراداتهم واعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون وكان في خلق القلم والكتابة انعام عليهم واحسان اليهم اذ وصلوا به الى ذلك فكيف يشكرون انعامه واحسانه على عبده ورسوله الذي اعطاه اعلى الاخلاق وافضل العلوم والاعمال والارادات التي لا تهتدى العقول الى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة فهل هذا الامن اعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالته وسيعلم اعداؤه المكذبون له ايهم المفتون هو ام هم وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا وبزداد علمهم به في البرزخ وينكشف ويظهر لكل الظهور في الآخرة بحيث تتساوى اقدام الخلائق في العلم به وقد اختلف في تقدير قوله بأيكم المفتون فقال ابو عثمان المازني هو كلام مستأنف والمفتون عنده مصدر اي بأيكم الفتنة والاستفهام عن امر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعا فتعين حصوله للآخر والجمهور على خلاف هذا التقدير وهو عندهم متصل بما قبله ثم لهم فيه أربعة أوجه أحدها ان الباء زائدة والمعنى ايكم المفتون وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك بحسبك ان تفعل قاله ابو عبيد الثاني ان المفتون بمعنى الفتنة اي ستبصر وبصرون بأيكم الفتنة والباء على هذا ليست زائدة قاله الاخفش الثالث ان المفتون مفعول على بابه ولكن هنامضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون وليست الباء زائدة قاله الاخفش ايضا الرابع ان الباء بمعنى في والتقدير في اي فريق منكم النوع المفتون والباء على هذا ظرفية وهذه الاقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة الى شيء منه وستبصر مضمين معنى تشمر وتعلم فتعدي بالباء كما تقول تشمر بكذا وتعلم به قال تعالى ألم يعلم بأن الله يرى واذا دناك اللفظ الى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دناك اليه من مكان بعيد

فصل يكون من ذلك قوله تعالى فلا تسمعوا لغيرهم وانهم ليعلمون عظيم انه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يسهو الا المطهرون تنزيل من رب العالمين ذكر سبحانه هذا القسم حقيق ذكر القبامة الكبرى واقسام الخلق فيها ثم ذكر الادلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة

الاولى واخراج الثبات من الارض واتزال الماء من السماء وخلق النار ثم بعد ذلك احوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن وأقسم بواقع الجيوم على ثبوت القرآن وانه تنزيله وقد اختلف في الجيوم التي أقسم بواقعها قبل هي آيات القرآن ومواقعهاز ولها شيئا بعد شئ وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء وقول سعيد بن جبير والكلبي ومقاتل وقتادة وقيل الجيوم هي الكواكب ومواقعها ساقطها عند غروبها هذا قول ابن عبدة وغيره وقيل مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة وهذا قول الحسن ومن جهة هذا القول ان له ظ مواقع تقتضيه فانه مفاعل من الوقوع وهو السقوط فكل نجم موقع وجعها مواقع ومن جهة قول من قال هي مساقطها عند الغروب ان الرب تعالى يقسم بالجيوم وطلوعها وجريانها وغروبها اذ فيها وفي احوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله تعالى في الاقسام بالخمس الجوار الكنس وقال والنجم اذا هوى وقال فلا أقسم برب المشارق والمغرب و يرجع هذا القول ايضا ان الجيوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى وأدبار النجوم وقوله والشمس والقمر والنجوم وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه احدها ان الجيوم جعلها الله بهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن بهتدى بها في ظلمات الجهل والغي فتلك هداية في الظلمات الحسية وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فيجمع بين الهديتين مع ما في الجيوم من الرجوع للشياطين وفي آيات القرآن من رجوع شياطين الانس والجن والجيوم آياته المشهودة المعاينة والقرآن آياته المتلوة المعينة مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية وموقعها عند النزول ومن قرأ بعاد الجيوم على الافراد فدلالة الواحد المضاف الى الجمع على التعدد والموقع اسم جنس والمصادر اذا اختلفت جهت واذا كان النوع واحدا افردت قال تعالى ان انكر الاصوات لصوت الجيم فجمع الاصوات لتعدد النوع وافردت صوت الجيم لوحده فانفراد موقع الجيوم لوحدة المضاف اليه وتعدد المواقع لتعدد موقع

فصل في المقسم عليه ههنا قوله انه لقرآن كريم ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى لو تعلمون عظيم فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض الطف شئ واحسنه موقعا واحسن ما يقع هذا الاعتراض اذا تضمن تأكيذا او تنبيها او احترازا كقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الاوسعها أولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون فاعتراض بين المبتدأ والخبر بقوله لانكلف نفسا الاوسعها لا تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم ان الوعد اغما يستحقه من اتى بجمع الصالحات ورفع ذلك بقوله لانكلف نفسا الاوسعها وهذا احسن من قول من قال انه خبر عن الذين آمنوا ثم اخبر عنهم بخبر آخر فهم اخبر ان من مخبر واحد فان عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من اخلاء جملة الخبر عن الرابط وتقدير

صفة محدوفة أى نفساً منهم وتعطيل هذه الفائدة الجذيلة ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون فاعتراض بقوله سبحانه بين الجملين وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام من قصد الاعتناء والتقريب والتوكيد وتعظيم المقسم به والخبر عنه ورفع توهم خلاف المراد والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك فن الاعتراض الذى يقصده التقرير والتوكيد قول الشاعر

لوان الباخلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

وما يقصده الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر

فلاجرة تبدو وفي اليأس راحة * ولاوصلة تصفو لها فتكارمه

فقوله وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغنى عنك جرحه فقال وفي اليأس راحة أى المطلوب أحد أمرين إما يأس مريح أو وصال صاف ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي

الآزمت بنو جعد بآنى * وقد كذبوا كبير السن فانى

ومنه قول نصيب

فكذبت ولم أخلق من الطير ان بدا * منابارق نحووا لجاز أطيرو

فقوله ولم أخلق من الطير رفع استهزام يتوجه عليه على سبيل الإنكار أو قال فكذبت أطيرو فيقال له وهل خلقت من الطير فاحتراز بهذا الاعتراض وعندى ان هذا الاعتراض يفيد غير هذا وهو قوة شوقه وتزوجه الى أرض الجاز فأخبرانه كاذب طير على انه ابعثشى من الطير ان فانه لم يخلق من الطير ولا يعجب طير ان من خلق من الطير وانما العجب طير ان من لم يخلق من الطير اشدة تزوجه وشوقه الى جهة محبوبة فتأمله ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر

فكذبت أبكى وأنت راضيه * حذار هذا الصدود والغضب

ان ثم ذا الهجر يا غلوم ولا تم * فغالى فى العيش من أرب

وقول الآخر

ان سلبى والله يكلوها * ضفت بشى ما كان يزورها

وقول الآخر

ان الثمانين وان بلغتها * قدأحوجت سمعى الى ترجان

ومنه الاعتراض بالقسم كقوله

ذاك الذى وأبك يعرف مالكا * والحق بدفع ترهات الباطل

ومن اعتراض الاستعطاف قوله

فمن لى بالعين التى كنت مرة * الى بهما نفسى فداؤك نظرو

فاعتراض بقوله نفسى فداؤك استعطافاً فتأمل حسن الاعتراض وجزالته فى قول الرب تعالى واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر فقوله والله اعلم بما ينزل اعتراض بين الشرط وجوابه فاذا مورامها الجواب عن سؤال سائل ما حكمة هذا التبديل وما فائدته ومنها ان الذى يدل واتى بغيره منزل محكم تزوله قبل الاخبار بغيره لهم ومنها ان مصدر الامر من علمه تبارك وتعالى وان كان منهما منزل فيجب التسليم والايمان بالاول والثانى

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى ووعدنا الإنسان بالدين جلت له
 أمه وهنا على وهن وفصله في طمين ان اشكر لي ولو الذي قاله ترضي بذكر شأن حمله
 ووضعه بين الوصية والموصى به تؤكد الامر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها وتذكرا
 اولدها بحقها وما قاتله من حله ووضعها عالم يتكلفه الاب ومنه قوله تعالى واذ قلتم نفسا
 فادار آثم فيها والله يخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها قاله ترضي بقوله والله
 يخرج ما كنتم تكتمون بين الجمل المطوف ببعضها على بعض اعلا ما بان تداره هم وتدافعهم
 في شأن القتل ليس نافعهم في كتمانهم فانه يظهره ولا بد ولا تستطيل هذا الفصل
 وامثاله فانه يعطيك ميراثا وينهج لك طريقا يمينك على فهم الكتاب والله المستعان
 فصل في ثم قال انه لقرآن كريم فوصفه بما يقتضى حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته
 فان الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء احسنه وافضله والله سبحانه
 وصف نفسه بالكريم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن
 منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي انه لقرآن كريم أى
 حسن كريم على الله وقال مقاتل كرمه الله وأعزه لانه كلامه وقال الازهرى الكريم اسم جامع
 للمحمد والله كريم جليل الفعالي وانه لقرآن كريم بمحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم
 والحكمة وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة وبسر وضده التيمم
 الذى لا يخرج خيره النزر الا بصبر وصهوبة وكذلك الكريم فى الناس والتيمم
 فصل في ثم قال تعالى فى كتاب مكنون اختلاف المفسرون فى هذا فقول هو الاصح
 المحفوظ والصحيح انه الكتاب الذى بأيدي الملائكة وهو المذكور فى قوله فى صحف مطهرة
 بأيدي سفرة كرام بررة وبدل على انه الكتاب الذى بأيدي الملائكة قوله لا يمس الا مطهرون
 فهذا يدل على انه بأيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح فى معنى الآية ومن المفسرين من قال
 ان المراد به ان المصحف لا يمس الا طاهر والاول أرجح لوجوه أحدها أن الآية بقيت
 تنزها لقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل اليه فيمس الا المطهرون فيفسد على
 أخبث خلق الله وأنجمهم أن يصلوا اليه أو يمسوه كما قال تعالى وما تنزل به الشياطين
 وما ينبغى لهم وما يستطيعون فبنى القائل وتأنيبه منهم وقدرتهم عليه فما فعلوا ذلك
 ولا يلبقى بهم ولا يقدرون عليه فان القائل قد نبهني عن محسن منه وقد يلبقى من لا يقدر عليه
 فبنى عنهم الامور الثلاثة وكذلك قوله فى سورة عبس فى صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام
 بررة فوصف محله بهذه الصفات يانا ان الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به وتقرير هذا المعنى
 أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمس الا طاهر الوجه الثانى ان السورة مكبة
 والاعتناء فى السور المكبة اغماها بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة وأما تقرير
 الاحكام والشرائع فغظت السور المدنية الثالث ان القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه
 الآية ولا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما جاع فى المصحف فى خلافة ابي بكر
 وهذا وان جاز ان يكون باخبار ما يأتى فالظاهر انه اخبار بالواقع حال الاخبار بوضعه
 الوجه الرابع وهو قوله فى كتاب مكنون والمكنون المصون المستور عن الاعين الذى

لأنه أبدى البشر كما قال تعالى كأنهم بعض مكنون وهكذا قال السلف قال الكافي مكنون
 من الشياطين وقال مقاتل مستور وقال مجاهد لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو اسحق مصون
 في السماء بوضعه الوجه الخامس ان وصفه بكونه مكنونا نظير وصفه بكونه محفوظا
 بقوله قرآن كريم في كتاب مكنون كقوله بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ بوضعه
 الوجه السادس ان هذا بلغ في الرد على المكذبين وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف
 لا يسه محدث الوجه السابع قوله لا يسه الا المطهرون بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى ولو كان
 نهيا لكان مفتوحا ومن حل الآية على النهي احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره الى معنى النهي
 والاصل في الخبر والنهي حل كل منهما على حقيقته وايس ههنا موجب بوجوب صرف الكلام
 عن الخبر الى النهي الوجه الثامن انه قال الا المطهرون ولم يقل الا المتطهرون ولو اراد به
 منع الحدث من مسه لقال الا المتطهرون كما قال تعالى ان الله يحب المتطهرين
 وفي الحديث اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فالتطهر فاعل التطهير والمطهر
 الذي طهره غيره فالتوضي مطهر والملائكة مطهرون الوجه التاسع انه لو اراد به المصحف
 الذي بأيدينا لم يكن في الاخبار عن كونه مكنونا كبيرا فائدة اذ مجرد كون الكلام مكنونا
 في كتاب لا يستلزم ثبوته فكيف يدح القرآن بكونه مكنونا في كتاب وهذا امر مشترك والآية
 انما بقيت ابيان مدحه وتشريفه وما اختص به من الخصائص التي تدل على انه منزل من عند الله
 وانه محفوظ مصون لا يصل اليه شيطان بوجه ما ولا يمس محله الا المطهرون وهم السفرة
 الكرام البررة الوجه العاشر ما رواه سعيد بن منصور في سننه ثنا ابو الاحوص ثنا صام الاحول
 عن أنس بن مالك في قوله لا يسه الا المطهرون قال المطهرون الملائكة وهذا عند طائفة من أهل
 الحديث في حكم المروع قال الحاكم تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع ومن لم يجعله مرفوعا
 فلا ريب انه عنده اصح من تفسير من بعد الصحابة والصحابة أهل الامة بتفسير القرآن وبجواب الرجوع
 الى تفسيرهم وقال حرب في مسأله سمعت ابي في قوله لا يسه الا المطهرون قال النسخة التي في
 السماء لا يسه الا المطهرون قال الملائكة وسمعت شيخ الاسلام بقررا استدلال بالآية على أن المصحف
 لا يسه المحدث بوجه آخر فقال هذا من باب التنبيه والاشارة اذا كانت العصف التي في السماء
 لا يسه الا المطهرون فكذلك العصف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي ان يسهها الا طاهر والحديث
 مشتق من هذه الآية وقوله لا تمس القرآن الا واثق طاهر رواه أهل السنن من حديث الزهري
 عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله
 عليه وسلم الى أهل اليمن في السنن والفرائض والديات أن لا يمس القرآن الا طاهر قال احمد
 ارجو أن يكون صحيحا وقال أيضا لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه وقال أبو عمر
 هو كتاب مشهور عند أهل السير معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الاسناد
 لانه اشبه التواتر في مجيئه لتلقى الناس له بالقبول والعرفه ثم قال وهو كتاب معروف عند
 العلماء وما فيه يخفى عليه الا قليلا وقد رواه ابن حبان في صحيحه ومالك في موطنه وفي المسئلة
 آثار اخر مذكورة في غير هذا الموضع
 فصل في دلالة الآية بشارتها وإيمانها على انه لا يدرك معانيه ولا يفهمه الا القلوب

الطاهرة وحرام على القلب التلوث بجماعة البدع والمخالفات ان ينال معانيه وأن يفهم كما
 ينبغي قال البخاري في صحيحه في هذه الآية لا يحد طعمه الا من آمن به وهذا ايضا من اشارة
 الآية وتنبئها وهو انه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره الا من شهدانه كلام الله تكلم به حقا
 وانزله على رسوله وحيا ولا ينال معانيه الا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه
 فمن لم يؤمن بالله حق من عند الله في قلبه منه حرج ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به
 وحيا وليس مخلوقا من جملة مخلوقاته في قلبه منه حرج ومن قال ان له باطنا يخالف ظاهره
 وان له تأويلا يخالف ما يفهم منه في قلبه منه حرج ومن قال ان له تأويلا لا تفهمه ولا تلتزمه
 وانما تلوه متعبدين بألفاظه في قلبه منه حرج ومن سلك عليه آلا رايتين وهذيان المتكلمين
 وسفسة المسفسطين وخيالات المتصوفين في قلبه منه حرج ومن جعله تابعا لبعده ومذهبه
 وقول من قلده دينه ينزله على أقواله ويتكلف حمله عليها في قلبه منه حرج ومن لم يحكمه
 ظاهرا وباطنا في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أن كان في قلبه منه حرج
 ومن لم يأتمر بأوامره وينزجر عن زواجره ويصدق جميع اخباره ويحكم أمره ونهيه وخبره
 ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه في قلبه منه حرج وكل هؤلاء لم تقس قلوبهم معانيه ولا
 يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ولا يحدون من لذة حلالوته وطعمه ما وجدته الصحابة ومن تبعهم
 وانت اذا تأملت قوله لا يؤمنه الا المطهرون واعطيت الآية حقها من دلالة القفظ وإيمانه
 وإشارته وتنبئيه وقياس الشيء على نظيره واعتباره بمشاكله وتأملت المشابهة التي عقدتها الله
 سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن ففهمت هذه المعاني كلها من الآية وبالله التوفيق

فصل ثم كد ذلك وقرره واطد به بقوله تنزيل من رب العالمين وكان له لازم ليكون قرآنا
 كريما في كتاب مكنون فهو ملازم له فهو دليل عليه ومدلول له وفاقدا كونه تنزيلا من رب العالمين
 مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين أحدهما أنه المتكلم وأنه من نزل ومنه بدأ وهو
 الذي تكلم به ومن هنا قال السلف منه بدأ ونظيره ولكن حق القول مني وقوله قل نزل
 روح القدس من ربك والثاني علو الله سبحانه فوق خلقه فان النزول والتنزيل الذي تعقله
 العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أهلا إلى أسفل والرب تعالى انما يخاطب عباده
 بما تعرفه فطرهم وتشهده عقولهم وذكر التنزيل مضافا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه
 لهم وتصرفه فيهم وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف
 يلقي به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ويدعهم هملا ويخلقهم عبثا لا بأمرهم ولا ينههم
 ولا ينهيهم ولا يعاقبهم فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله واستدل بكونه
 رب العالمين على ثبوت رسالته ورسوله وصحة ما جاء به وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من
 الاستدلال بالعجزات والخواص وان كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس وتلك انما
 تكون لخواص العقلاء وقد أشار سبحانه إلى طريقين في غير موضع من كتابه كقوله
 سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق فهذا استدلال بالآيات المعانية
 المخلوقة ثم قال أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال
 أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى والأول

أعم وأشمل وقد تقدم بيانه. لا عند قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكآله المقدس على ثبوت النبي وبعثه من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة بصفات الرب تعالى وصفات محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجهما من بين هذين الأمرين صحة نبوته وأنه رسول الله حقا وإن من كانت هذه صفات ربه وخالفه تأبى أن ينجزه وأنه يؤيده ويعليه ويتم نعمته عليه وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى وإذا حصل للعبد الفقه في الاسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الآلة والطرأى والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع وأتم وقد بينا في كتابنا المعالم بطلان التخصيل وغيره من الحيل الربوية من أسماء الرب وصفاته وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات فأبى ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد إذ ليست حكمة الرب تعالى وكآله واسمائه وصفاته تفتقض بأحالة ذلك وامتناعه عليه فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الاسماء والصفات على الفقه العملى في باب الأمر والنهى وهذا باب حرام على الجهل المعطل أن يلجأ إليه حرام عليه ربحها وإن ربحها ليوحد من مسيرة خمسين ألف سنة والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى وما معطى لما منع وبه التوفيق

فصل ثم وبختم سبحانه على وضعهم الأدهان في غير موضعهم وإنهم يدهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به وبعض عليه بالنواجذ ويثنى عليه الخناصر ونعقد عليه القلوب والأفئدة ومحارب ويسالم لأجله ولا يلثوى عنه لأنيته ولا يمسرة ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ولا يحاكمه إلا إليه ولا تخصمه إلا به ولا اهتداه في طرق المطالب العالية الأنور ولا شفاه إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم ومدار السعادة وقائدة الإصلاح وطريق النجاة وسبيل الرشاد ونور البصائر فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ولم ينزل للمداهنة وإنما أزل بالحق والحقى والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا يمكن إزالته أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل فاما الحق الذى قام به كل حق فكيف يدهن به ثم قال سبحانه ونجعلون رزقكم أنكم تكذبون لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وطاقره ومحبه والشوق إليه والانس بقربه والابتهاج بذكره وكان لأحيائه الأبدان كما أن البدن لأحيائه إلا بالطعام والشراب أنم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق وجعل قياس أبدانهم وقلوبهم بهما ثم قاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته فبهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيها ومنهم من قتر عليه في الرزقين ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب وبالعكس وهذا الرزق إنما يكمل بالشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد فان الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع

الشكر والايان جعلوا رزقهم نفسه تكذبا فان التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة هؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب وهذا المعنى هو الذى حمله من قال التقدير وتجعلون شكر رزقكم انكم تكذبون وقال آخرون التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم انكم تكذبون فحذف مضامين مع هؤلاء اطلوا المعنى وقصروا بالمعنى ومن بعض معنى الآية قوله مطرنا بنوه كذا وكذا فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها والاقتضاء اوسع منه واعمواعلى والله اعلم

فصل في ثم ختم السورة بأحوالهم عند القياسة الصغرى كما ذكر في اولها احوالهم في القيامة الكبرى وقسمهم الى ثلاثة اقسام كما قسمهم هناك الى ثلاثة وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته بأنهم مربوبون مدبرون مملكون فوفهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته وقرهم على ذلك بالارسل لهم الى دعوته ولا انكاره فقال فلولا اذا بلغت الحلقة اى وصلت الروح الى هذا الموضع بحيث فارقت ولم تفارق هى رزخ بين الموت والحياة كما انها اذا فارقت صارت فى رزخ بين الدنيا والآخرة ملائكة الرب تعالى اقرب الى المتضر من حاضريه من الانس ولكنهم لا يبصرون بهم فلولا تردونها الى مكانها من البدن اياها الحاضرون ان كان الامر كما تزعمون انكم غير مجزيين ولا مدبرين ولا مستوعبين ليوم الحساب (فان قيل) اى ارتباط بين هذين الامرين حتى يلزم بينهما (قيل هذا) من احسن الاستدلال وابلغه فانهم امان يقرؤا بأنهم مربوبون مملوكون عبيد لما لك قادر متصرف فيهم قاهر آمر ناه ولا يقرون بذلك فان اقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه واجلاله وان لا يجعلوا له ندا ولا شريكا وهذا هو الذى جاء به رسوله وزل عليه به كنياسه وان انكروا ذلك وقاوا انهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وأن الامر اليهم يردون الارواح الى مقارها اذا بلغت الحلقة فان المتصرف فى نفسه الحاكم على روحه لا يمنع منه ذلك بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له سواء الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا يحيد عنه ولا مدفع له ومن أعطاه حقه من التقدير والبيان انتفع به غاية النفع وانتقاد لاجله لعبودية وأذعن ولم يسمع غير التسليم للرؤية والالهية والافراد بالعبودية والله ما احسن جزالة هذه الالفاظ وفصاحتها وبلوغها اقصى مراتب البلاغة والفصاحة والاختصار التام وندائها الى معناها من اقرب مكان واشتمالها على التوبخ والتقريب والالزام ودلائل الربوبية والنوحيد والبعث وفصل النزاع فى معرفة الروح وانها تصعد وتنزل وتنقل من مكان الى مكان وما احسن اعادة لولا ثانيا قبل ذكر الفصل الذى يقتضيه الاول وجعل الطرفين يقتضيه اقتضاء واحدا وذكر الشرطين بين لولا الثانية وما يقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الاول والثانى مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هى الرابطين لولا الاولى والثانية والشرط الاول والثانى وهذا تركيب يستفاد العقل والسمع لمعناه ولفظه قضت الآيتان تقريراً ونوبخاً واستدلالاً على اصول الايمان من وجود الخلق بجماعه وكال قدرته ونفوذ مشيئته وربوبيته وتصرفه فى ارواح عباده حيث لا يقدر

على التصرف فيها بشئ وأن ارواحهم يذهب بها اذا شاء ويردها اليهم اذا شاء وبخل ابدانهم
منها نارة ويجمع بينها وبينها نارة واثبات المعاد وصدق رسوله فيما أخبر به عنه واثبات
ملائكته وتقرير عبودية الخلق وأنى بهذا في صورة تخصيبهم وتوحيدهم وتقريرين وجوابين
وشرطين وجزائين منتظمة احسن الانتظام ومتداخلة احسن التداخل متعلقة بعضها ببعض
وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء واجبت فلولا اذا بلغت وفلولا
ان كنتم غير مدينين بحجاب واحد وهو ترجمونها ان كنتم صادقين قال ومثله قوله تعالى
فاما يا نبيكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون اجيبا بحجاب واحد
وهما شرطان قال الجرجاني قوله ترجمونها جواب لقوله فلولا المتقدمة والتأخره على تأويل
فلولا اذا بلغت النفس الحلقوم تردونها الى موضعها ان كنتم غير محاسبين ولا يحزنون كما ترجمون
يقول تعالى ان كان الامر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ولا اله ولا رب يقوم بذلك
فهل تردون نفس من يعز عليكم اذا بلغت الحلقوم فاذالم يكفكم في ذلك حيلة بوجه
من الوجوه فهل دلكم ذلك على أن الامر الى ملك قادر قاهر متصرف فيكم وهو الله الذي
لا اله الا هو وقال أبو اسحق معناه فهل ترجمه ون الروح ان كنتم غير مملوكين مدبرين فهل
ان كان الامر كما تزعمون في كما يقول قائلكم لو اصابونا ما قتلوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا
اى ان كنتم تقدر ان تؤخروا اجله فلا ترجمه ون الروح اذا بلغت الحلقوم وهلا تردون
عن أنفسكم الموت قلت وكان هذا يلتفت الى قوله تعالى قل كونوا جحاة أو حديد أو خلقا
ما يكبر في صدوركم اى ان كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا فكونوا خلقا لا يفنى
ولا يبلى اما من جحاة أو من حديد أو أكبر من ذلك ووجه الملازمة ما تقدم ذكره وهو اما ان
تقروا بأن لكم رباً منصرفاً فيكم وما كانكم تفتديكم مشيئته وقدرته بعبادته اذا شاء وبحيثكم
اذا شاء فكيف تنكرون قدرته على اما تكم خلقا جديدا بعد ما آمنتم واما ان تنكروا أن يكون
لكم رب قادر قاهر مالك نافذ المشيئة فيكم والقدرة فيكم فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت
فاذالم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فانكروا من قدرة من جعلكم خلقا يموت وبعبأنى يصيكم
بعد ما اتاكم فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت والذي في الواقعة استدلال
يعجزهم عن رد الروح الى مكانها اذا قاربت الموت وليس بعده هذا الاستدلال الا الاذهان
والانقياد أو الكفر والضاد

فصل في فلاح الدليل ووضع السبيل ونم البرهان على انهم مما يكون مربوبون مجزبون
محاسبون ذكر طبقاتهم عند الحشر الاول والقيامة الصغرى وهى ثلاثة طبقة المقربين وطبقة
اصحاب اليمين وطبقة المكذبين فجعل نعيم المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة
وهذه الكرامات الثلاثة التى يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التى يعطونها يوم القيامة
فأرواح الفرح والسرور والابتهاج ولذة الروح فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها وذلك
قوتها وغذاؤها والريحان الرزق وهو الاكل والشرب والجنة المسكن الجامع لذلك كله
فيعطون هذه الثلاث في البرزخ وفي المعاد الثانى ثم ذكر الطبقة الثانية وهى طبقة اصحاب
اليمين ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل نعيمهم عند القدوم عليه السلالة من الاكاف

والشروع التي تحصل للمكذبين الضالين فقال واما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك
من اصحاب اليمين والسلام مصدر من سلم اي تلك السلامة والخطاب له نفسه اي يقال لك
السلامة كما يقال للقادم لك الهناء ولك السلامة ولك البشرى ونحو ذلك من الالفاظ كما يقولون
خير مقدم ونحو ذلك فهذه تحية عند اللقاء قال مقاتل يسلم الله لهم امرهم وينجاوز عن عيبتهم
وتقبل حسناتهم وقال الكلبي يسلم عليه اهل الجنة ويقولون السلامة لك وعلى هذا فقوله من
اصحاب اليمين اي هذه التحية حاصلة لك من اخوانك اصحاب اليمين فانه اذا قدم عليهم حيوة
بهذه التحية وقالوا السلامة لك وفي الآية اقوال اخر فيها تكلف وتصنف فلاحاجة الى ذكرها
ثم ذكر الطبقة الثالثة وهي طبقة الضال في نفسه المكذب لاهل الحق وان له عند المواقفة
نزل الجحيم وسكنى الجحيم ثم اكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال
ان هذا لهو حق اليقين فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم الى اليقين وعن درجة البين الى حقه
ثم امره ان ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى
عما يقوله الكاذبون والجاحدون

فصل ومن ذلك قوله تعالى والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى
أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبرائه بما ينسب اليه اعداؤه من الضلال والغي
واختلف الناس في المراد بالنجم فقال الكلبي عن ابن عباس أقسم بالقرآن اذا نزل منه على
رسوله أربع آيات وثلاثا والسورة وكان بين اوله وآخره عشرون سنة وكذلك روى عطاء
عنه وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد واختاره القراء على هذا فسمى القرآن نجما لتفرقه
في النزول والعرب تسمى التفرق نجما والمفرق نجما ونجوم الكتابة اقسامها ويقول جعلت
مالي على فلان نجما وما منجمة كل نجم كذا وكذا واصل هذا ان العرب كانت تجعل مطالع
من ازل القمر ومساقتها مواقيت لحلول ديونها وآجالها فيقولون اذا طلع النجم يريدون الثريا
حل عليك الدين ومنه قول زهير في ذبة جعلت نجوما على العاقل

ينجمها قوم لقوم غرامة * ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل نجم تقريرا وان لم يكن موقفا بطالع نجم وقوله هوى على هذا القول اي نزل من
هوى الى سفل قال ابو زيد هوى العقاب هوى هويا بفتح الهاء اذا انتقضت على صيد أو غيره
وكذلك قال ابن الاثير وفرق بين الهوى لقوله * والداو في اصعادهما عمل الهوى * وقال
اليث العامة تقول الهوى بالضم في مصدر هوى بهوى وكذلك قال الاصمعي هوى
بهوى هو بفتح الهاء اذا سقط الى اسفل قال وكذلك الهوى في السير اذا مضى وهما امر
يجب التنبيه عليه غلط فيه ابو محمد بن حزم اقبح غلط فذكر في السماء الرب تعالى الهوى بفتح
الهاء واخرج باقي الصحاح من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول
في مجوده سبحانه ربى الاعلى الهوى فظن ابو محمد أن الهوى صفة للرب وهذا من غلطه
رحمه الله وانما الهوى في على وزن فعل اسم لقطعة من الليل يقال معنى هوى من الليل على
وزن فعل ومضى هرب منه اي طرف وجانب وكان يقول سبحانه ربى الاعلى في قطعة من الليل
وجانب منه وقد صرح بذلك في اللفظ الآخر فكانت كان يقول سبحانه ربى الاعلى الهوى

من الليل عندنا الى قوله والجم اذا هوى وقال ابن عباس في رواية علي بن ابي طلحة وعطية
يعني الثريا اذا سقطت وغابت وهو الرواية الاخرى عن مجاهد والعرب اذا اطلعت الجم
تعني به الثريا قال فيان تعد الجم وقال ابو حنيفة يعني النجم اذا انتشرت يوم القيامة وقال
ابن عباس في رواية عكرمة يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين اذا سقطت في آثارا عند
استراق السمع وهذا قول الحسن وهو اظهر الاقوال ويكون سبحانه قد اقسم بهذه الآية
الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظها لوحى من استراق الشياطين له على ان
ما في رسله حق وصدق لاسبيل للشيطان ولا طريق له اليه بل قد احترس بالجم اذا هوى
رصدنا بين يدي الوحي وحرسه الوحي وهذا لا ارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية
الظهور وفي المقسم به دليل على المقسم عليه وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالجم اذا هوى
ولا تسمية نزوله هوى ولا عهد في القرآن بذلك فيجعله هذا اللفظ عليه وليس بالبين تخصيص
هذا القسم بالثريا وحدها اذا غابت وليس بالبين ايضا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة
بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته فلا يجعله نفسه دليلا لعدم ظهوره للحساطين
ولاسيما منكروا البعث فانه سبحانه انما استدلل بما لا يمكن جمده ولا المكابرة فيه بأظهر الاقوال
قول الحسن والله اعلم وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى فان النجوم التي ترمى
الشياطين آيات من آيات الله يحفظ بهاديته ووجيه وآياته المنزلة على رسله بها ظهر دينه
وشرعه وأسمائه وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما حارسا لهذه النجوم الهاوية
ونفى سبحانه عن رسله اضرار المنايا للهدى والغنى المداق للرشاد ففي ضمن هذا البنى الشهادة له
بأنه على الهدى والرشاد فالهدى في علمه والرشاد في علمه وهذا الاصلان هما غاية كمال
العبد وبهما سعاده وفلاحه وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه فقال عليكم
يسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى فالراشد ضد الغاوى والمهدى ضد الضلال
وهو الذى زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو صاحب الهدى ودين الحق ولا
يشبهه الراشد المهدي بالضلال الغاوى الا على اجهل خلق الله وأعماهم قلبا وأبعمهم
من حقيقة الانسانية والله در القائل

وما انتفع أخى الدنيا بناظره * اذا سموت عنده الانوار والظلم

فالناس أربعة أقسام ضال في علمه غاوى في قصده وعمله وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفوا الرسل
الثاني مهتد في علمه غاوى في قصده وعمله وهؤلاء هم الأئمة الغضبية ومن تشبه بهم وهو حال
كل من عرف الحق ولم يعمل به الثالث ضال في علمه ولكن قصده الخير وهو لا يشعر الرابع
مهتد في علمه راشد في قصده وهؤلاء ورثة الانبياء وهم وان كانوا الاقلين عددا فهم الاكثر
عند الله قدرا وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه وتأمل كيف قال سبحانه ماضل صاحبكم
ولم يقل ماضل محمد تأكيذا لاقامة الحجج عليهم بأنه صاحبهم وهو اعلم الخلق به وبماله وأقواله
واعماله وانهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال ولا ينعمون عليه امرا واحدا قط وقد شبه
على هذا المعنى بقوله لم يعرفوا رسلهم وبقوله وما صاحبكم بمجنون

فصل ثم قال سبحانه وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي بوحى ينطق رسله

ان يصدر من هوى وبهذا الكمال هداه ورشده وقال وما ينطق عن الهوى ولم يقل وما ينطق
 بالهوى لان نطقه عن الهوى ابلغ فانه يتضمن ان نطقه لا يصدر عن هوى واذا لم يصدر عن هوى
 فكيف ينطق به فتضمن نفي الامرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن النطق نفسه
 فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد لا النقي والضلال ثم قال ان هو الاوحى بوحى فاما الضمير
 على المصدر المفهوم من الفعل اى ما نطقه الاوحى بوحى وهذا احسن من قول من جعل الضمير
 حائدا الى القرآن فانه لم ينطق بالقرآن والسنة وان كليهما وحى بوحى وقد احتج الشافعى لذلك
 فقال لعل من جهة من قال به - هذا قوله وأزل الله عليك الكتاب والحكمة قال وله - ل من جهة
 ان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي انا فى بأمره الرجل الذى صالحه على الغنم
 والخدام والذى نفى يده لاقضين بينكما بكتاب الله الغنم والخدام رد عليك الحديث
 وفى الصحيحين ان يعلى بن امية كان يقول لعمر بنى اري رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل
 عليه الوحي فلما كان بالجرانة سأله رجل فقال كيف ترى فى رجل احرم بمرة فى جنبه
 بعد ما تضح بالخلق فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكث فجاء الوحي فأشار
 مريده الى يعلى فجاء فأدخل رأسه فاذا النبي صلى الله عليه وسلم محرم بغط ثم سرى عنه
 فقال ابن السائل آت فاجبى به فقال انزع عنك الجبة واغسل اثر الطيب واصنع فى عرثك ما تصنع
 فى جحك وقال الشافعى اخبرنا مسلم عن ابن جريح عن ابن طاووس عن ابيه ان عنده كتابا
 نزل به الوحي وما رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول فانه نزل به الوحي
 و ذكر الاوزاعى عن حسان بن عطية قال كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة
 كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه اياه و ذكر الاوزاعى ايضا عن ابي حنيفة صاحب سليمان اخبرني
 القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضالة قال قبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم سمر لما قال لانسأني عن
 سنة احد ثمانية ايام فامرني بها ولكن سلوا الله من فضله وابن فضالة هذا يسمى ملحمة وقد صح عنه
 انه قال الا انى اوتيت الكتاب ومثله معه وهذا هو السنة بلا شك وقد قال تعالى وانزل الله عليك
 الكتاب والحكمة وهما القرآن والسنة وبالله التوفيق

فصل في ثم اخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن ما يعلم انه مضاد لاوصاف
 الشيطان معلم الضلال والغواية فقال علمه شديد القوى وهذا نظيرة - وله ذى قوة عند ذى
 العرش و ذكرناه نك المرفى وصفه بالقوة - وله ذومرة أى جبريل المنظر حسن
 الصورة ذو جلالة ليس شيطانا اقبح خلق الله واشوههم صورة بل هو من أجل الخلق
 واقوام واعظمهم أمانة ومكانة عند الله وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة وتزكية له
 كما تقدم نظيره فى سورة التكوير فوصفه بالعلم والقوة وجعل المنظر وجلالته وهذه كانت
 اوصاف الرسول البشرى والملكى فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشجع الناس وأهلهم
 وأجلهم وأجلهم والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك فهم اقبح الخلق صورة ومعنى
 وأجهل الخلق واضعفهم همما ونفوسا ثم ذكر استواء هذا العلم بالا ففى الاعلى ودنوه
 وتدليه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وابحسان الله ما أوحى فنصور سبحانه لاهل
 الايمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده الى ان استوى بالا ففى ثم دنى وتدلى وقرب

من رسوله فأوحى إليهما أمره الله بما يحبانه حتى كأنهم يشاهدون صورة الحل وبسائرها
هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى مستويًا عليه ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه
وسلم وخاطبه بما أمره الله به قائلاً ربك يقول لك كذا وكذا وأخبر سبحانه عن مسافة
هذا القرب بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك وليس هذا على وجه الشك بل لتحقيقي لتدبر
المسافة وأنها لا تزيد على قوسين أبنة كما قال تعالى وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فحقيق
لهذا العدد أنهم لا ينقصون من مائة ألف رجل واحداً ونظيره قوله ثم قست قلوبكم
من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة بل إن لم
تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل
أو في هذه المواضع بمعنى بل ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول
من جعلها بمعنى الواو فتأملته انتهى

فصل في ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآه عينه وأن القلب صدق العين وليس
كن رأى شيئاً على خلاف ما هو به فكذب فؤاده بصره بل ما رآه بصره صدقه الفؤاد ولم
أنه كذلك وفيها قرآن أن أحدهما بخفيف كذب والثانية بتشديد بها يقال كذبه عينه وكذبه
قلبه وكذبه جسده إذا خلف ما ظنه وحده قال الشاعر

كذبتك عينك أم رأيت بواسط * غلس الظلام من الرباب خيالاً

أي أرتك ما لا حقيقة له فنفى هذا من رسوله وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه وما إن تكون
مصدريه فيكون المعنى ما كذب فؤاده رؤيته وأما أن تكون موصولة فيكون المعنى
ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية
البصر وتوافقهما وتصديق كل منهما لصاحبه وهذا ظاهر جلي في قراءة التشديد وقد
استشكلها طائفة منهم المبرد وقال في هذه القراءة بعد قال لأنه إذا رأى قلبه قد عدله أيضاً
بقلبه وإذا وقع العلم فلا كذب منه فانه إذا كان الشيء في القلب معلوماً فكيف يكون معه
تكذيب قلت وجواب هذا من وجهين أحدهما أن الرجل قد يخجل الشيء على خلاف
ما هو به فيكذب قلبه أذبره صورة المعلوم على خلاف ما هو عليه كأنك كذبه عينه فيقال
كذبه قلبه وكذبه ظنه وكذبه عينه فنفى سبحانه ذلك من رسوله وأخبر أن فؤاده فهو
كما رآه كن رأى الشيء على حقيقة ما هو به فانه يصح أن يقال لم تكذب عينه الثاني أن يكون
الضمير في رأى طائفاً إلى الرأي لا إلى الفؤاد ويكون المعنى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر وهذا
بحمد الله لا شك فيه والمعنى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر بل صدقه وعلى القراءة ثين فالمعنى
ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم يرو لأنهم بصره ثم انكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجسدهم
له على ما رآه كما ينكر على الجاهل مكابرة للعالم ومماراته له على ما علمه وفيها قرآن أن افتقارونه
وافقرؤنه وهذه المارة أصلها من الجحد والدفع يقول مريت الرجل حقاً إذا جحدته كما قال
الشاعر
لئن هجرت أخا صدق ومكرمة * لقد مريت أخا ما كان يربكا

ومنه المارة وهي المجادلة والمكابرة ولهذا عدى هذا الفعل بعلى وهي على بابها وليست
بمعنى من كاذبه المبرد بل الفعل متضمن معنى المكابرة وهذا في قراءة نالا ف اظهر ويرجح

ابوعبيدة قراءة من قرأ افتخروا به قال وذلك أن المشركين انما شأنهم الجحود لما كان يأثمهم
من الوحي وهذا كان أكثر من المصاراة منهم يعني أن من قرأ افتخارونه فغناه افتخادولونه
ومن قرأ افتخروا به فغناه افتخادولونه وجحدولهم لما جاء به كان هو شأهم وكان أكثر من
مجادلتهم له وخالفه ابو علي وغيره واختاروا قراءة افتخارونه قال ابو علي من قرأ افتخارونه
فغناه افتخادولونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده ويقوى هذا الوجه قوله تعالى
يجادلونك في الحق بعد ما تبين ومن قرأ افتخروا به كان المعنى افتخادولونه قال والمجادلة كأنها
اشبه في هذا لان الجحود كان منهم في هذا وغيره وقد جادله المشركون في الاسراء قلت القوم
جمعوا بين الجدل والدفع والانكار فكان جدالهم جدال جحد ودفع لاجدال امرئ شاد
وندين للحق واثبت الالف بديل على المجادلة والانيان بعلى بديل على المكابرة فكانت قراءة
الالف منتظمة للمعنيين جميعا هي أولى وبالله التوفيق

فصل في خبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سيرة المنتهى فالمرّة الاولى
كانت دون السماء بالافق الاعلى والثانية كانت فوق السماء عند سيرة المنتهى وقد صح
عنه صلى الله عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق
عليها مرتين كافي الصبحين عن زر بن حبیش أنه سئل عن قوله تعالى وكان قاب قوسين
أو أدنى قال اخبرني ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح
وفي الصبحين أيضا عن عبد الله بن مسعود ما كذب الفؤاد ما رأى قال رأى جبريل في
صورته التي له ستمائة جناح وقال البخاري عنه رأى رفرقا خضر يسد الافق وفي صحيح مسلم
عن أبي هريرة ولقد رآه نزلة أخرى قال رأى جبريل عليه السلام وفي صحبه أيضا من مسروق
قال كنت متكئا عند عائشة فقالت ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد اعظم على الله
الفرية قلت ما هن قالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد اعظم على الله الفرية قال وكنت متكئا
فجلست فقلت يا أم المؤمنين انظر بنى ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل ولقد رآه بالافق المبين
ولقد رآه نزلة أخرى فقالت انا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال نعم هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيت منه منبطام
السماء ساد اعظم خلقه ما بين السماء والارض فقالت ألم تسمع أن الله عز وجل يقول لا تدركه
الابصار وهو يدرك الابصار وهو القاطب الخير ولم تسمع أن الله عز وجل يقول وما كان
لبشر أن يكلّم الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا في- وحي باذنه ما يشاء انه على
حكيم قالت ومن زعم أن محمدا كنم شيئا من كتاب الله فقد اعظم على الله الفرية والله
عز وجل يقول يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته قالت
ومن زعم أنه يجبر بما يكون في غد فقد اعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول قل
لا أعلم من في السموات والارض الغيب الا الله واو كان محمدا كاتما شيئا مما أنزل عليه لكنم
هذه الآية واذا تقول لذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله
ونحن في نفسك ما الله مبدية ونحنشى الناس والله أحق أن تخشاه وفي الصبحين عن مسروق
ايضا قال سألت عائشة رضي الله عنها هل رأى محمدا ربه فقالت سبحان الله لقد دفع شعري

مساقت وفيهما ايضا قال قلت لعائشه ما بن قوله عز وجل ثم دنى فتدلى وكان قاب قوسين
او ادنى قالت انما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وانما في هذه المرة في صورته
التي هي صورته فسد الاقنى وفي صحيح مسلم ان ابا ذر سأل صلى الله عليه وسلم هل رأيت
ربك قال نعم انما اراه وفي صحيح مسلم ايضا من حديث أبي موسى الاشعري قال قام فينا رسول
الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام بخفض القسط
ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل بحجاب النور لو كشفه لاحرق
سجحات وجوه ما انتهى اليه بصره من خلقه وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم
عليه وهو كالتفسير له ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة
فيكشف الجحباب فينظرون اليه فان النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الجحباب الادنى
اليه وهو لو كشف لم يبق له شيء كما قال ابن عباس في قوله عز وجل لا تدركه الابصار قال ذلك نوره
الذي هو نوره اذا تجلى به لم يبق له شيء وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي ان قوله لا تدركه
الابصار على عمومها واطلاقه في الدنيا والاخرة ولا يلزم من ذلك ان لا يرى بل يرى في الاخرة
بالابصار من غير ادراك واذا كانت ابصارنا لا تقوم لادراك الشمس على ما هي عليه وانما
مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق فالتفاوت الذي بين ابصار الخلائق وذات الرب جل
جلاله اعظم واعظم ولهذا حصل للجبل أدنى شيء من جبل الرب تسا في الجبل وان ذلك
لسبب ذلك القدر من التجلي وفي الحديث الصحيح المرفوع جنتان من ذهب آيتهما وحليتهما
وما بهما وجنتان من فضة آيتهما وحليتهما وما بهما ما بين القوم وبين ان ينظروا الى
رؤسهم الارداء الكبرياء على وجهه عدن فهذا يدل ان رداء الكبرياء على وجهه تبارك
وتعالى هو المانع من رؤية الذات ولا يمنع من اصل الرؤية فان الكبرياء والعظمة امر لازم لذاته
تعالى فاذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الجحباب بينهم وبينه فهو الجحباب المخلوق
واما انوار الذات الذي يحجب عن ادراكها فذلك صفة لذات لا تقارن ذات الرب جل جلاله
ولو كشف ذلك الجحباب لاحرق سجحات وجوه ما تدركه بصره من خلقه وتكفي هذه الاشارة
في هذا المقام للمصدق الموقن واما المعطل الجهل فكل هذا عند باطل ومحال والمقصود
ان الخبر عنه بالرؤية في سورة البسم هو جبريل واما قول ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده
مرتين فالظاهر ان مستنده هذه الآية قديمتين ان المرئي فيه جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن
عباس وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الاجماع على ما قلته عائشة فقال في نقضه على
الربسي في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت ربي
البارحة في احسن صورة فحكي تأويل الربسي الباطل ثم قال وبذلك ان تأويل هذا الحديث
على غير ما ذهب اليه اما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي ذر انه لم يره
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تروا ربكم حتى ترون اوامير مائسة رضى الله
عنهما من زعم ان محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية وأجمع المسنون على ذلك
مع قول الله لا تدركه الابصار يعنون ابصار اهل الدنيا وانما هذه الرؤية كانت
في المنام يمكن رؤية الله على كل حال كذلك وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله

ومعارضته بقول النبي صلى الله عليه وسلم اشعار بأنه أثبت الرؤية التي انكرتها طائفة وهى لم تنكر رؤية المنام ولم تقل من زعم ان محمدا رأى ربه في المنام مقدأعظم على الله الفرية وهذا يدل على احد امرين اما ان يكون الامام احدا انكر قول من اطلق نفس الرؤية اذ هو مخالفته للحديث واما ان يكون رواية عنه باثبات الرؤية وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه وهذا تقييده للرؤية واطلق انه رآه وانكر قول من نفسى مطلق الرؤية واستحسن قول من قال رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه وهذه النصوص عنه متفقة لاختلفة وكيف يقول احدا رآه بعين رأسه بقلبه ولم يحى ذلك في حديث قط فأجدا فاما اتباع الفاظ الحديث كما جاءت وانكاره قول من قال لم يره أصلا لا يدل على اثبات رؤية اليقظة بعينه والله أعلم

فصل وقوله تعالى مازاغ البصر وما طغى قال ابن عباس مازاغ البصر بيننا ولا شمالا ولا جاوزا امر به وعلى هذا المفسرون فتنى عن نبيه ما يعرض للرأى الذى لا ادب له بين يدى الملوك والعظماء من التفاته بينا وشمالا ومجاورة بصره لما بين يديه واخبر عنه بكمال الادب فى ذلك المقام وفى تلك الحضرة اذ لم يلتفت جانبا ولم يمد بصره الى غير ما أرى من الآيات وما هناك من العجائب بل قام مقام العبد الذى اوجب ادبه اطرافه واقباله على ما أرى دون التفاته الى غيره ودون تطلعه الى ما لم يره مع ما فى ذلك من ثبات الجالس وسكون القلب وطمأنينته وهذا غاية الكمال وزبغ البصر التفاته جانبا وطفائه مده امامه الى حيث ينهى فصره فى هذه الصورة علمه عن الضلال وقصده وعمله عن النقي ونطقه عن الهوى وفؤاده عن تكذيب بصره وبصره عن الزيف والطغيان وهكذا يكون الممدوح

تلك المكارم لا تعسان من لهن شيئا عساه فعدوا بعدا بوالا

فصل ولما ذكر رؤيته لجبريل عند مدرة المنتهى استطرد منها واذكر ان الجنة المأوى عندها وانه يغشاها من امره وخلقه ما يغشى وهذا من احسن الاستطراد وهو المألوف لطيف جد فى القرآن وهو نوحان احدهما ان يستطرد من الشئ الى لازمه مثل هذا ومثل قوله وانشئ مثلهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم ثم استطرد من جوابهم الى قوله الذى جعل لكم الارض مهدا وملك لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذى نزل من السماء ماء بقدر ما تشربون فلهذا ميثا كذلك نخرجون والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له واقامة الجمة عليهم ومثله قوله تعالى فمن ربكم ايا موسى قال ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى فهذا جواب موسى ثم استطرد سبحانه منه الى قوله الذى جعل لكم الارض مهدا وملك لكم فيها سبلا واذنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وورعوا أنعامكم ان فى ذلك لايات لاولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ثم عاد الى الكلام الذى استطرد منه والنوع الثانى أن يستطرد من الشخص الى النوع كقوله ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الى آخره فالاول آدم والثانى بنوه ومثله قوله هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجا

ليسكن اليها فلما انفسها جعلت جلا خفيفا فارت به فلما انقلت دعوا الله ربها ان آياتنا صالحة لكون
من الشاكرين فلما آتاها صالحة جعلناه شر كاه فيما آتاها الى آخر الآيات فاستطرد من
ذكر الابوين الى ذكر المشر كين من اولادهما والله اعلم

فصل ومن ذلك قوله تعالى والطور وكتاب مسطور في ررق منشور والبيت المعمور
والسقف المرفوع والبصر المبحور ان عذاب ربك اواقع ماله من دافع تضمن هذا القسم
خسة اشياء وهى مظاهر آياته وقدرته وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته فالطور هو
الجبل الذى كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جهنم المفسرين من السلف
والخلف وعرفه ههنا بالام وعرفه في موضع آخر بالاضافة فقال وطور سينين وهذا
الجبل مظهر بر كة الدنيا والآخرة وهو الجبل الذى اختاره الله لتكليم موسى عليه
قال عبد الله بن احمد في كتاب الزهد لايه حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال حدثنا
جعفر بن سليمان قال حدثنا ابو عمران الجوني عن نوف البكالى قال اوحى الله عز وجل الى الجبل
انى نازل على جبل منكم قال فشمخت الجبال كلها الاجبل الطور فانه تواضع وقال ارضى
بما قسم الله لى فكان الامر عليه وجبل هذا شأنه حقيقى ان يقسم الله به وانه سيد الجبال الثانى
الكتاب المسطور في الرق المنشور واختاف في هذا الكتاب فقبل هو الواح المحفوظ وهذا غلط
فانه ليس برق وقبل هـ والكتاب الذى تضمن اعمال بنى آدم وقال مقاتل نخـ رج اليهم
اعمالهم يوم القيامة في ررق منشور وهذا وان كان اقوى واصح من القول الاول
واختاره جماعة من المفسرين ومنهم من لم يرك غير ما لظاهر ان المراد به الكتاب
المنزل من عند الله واقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته
وادلة توحيده وهداية خلقه ثم قبل هو التوراة التى ازلها الله على موسى وكان صاحب
هذا القول رأى اقتراح الكتاب بالطور فقال هو التوراة ولكن التوراة انما ازلت في الواح
لا في ررق الا ان يقال هى في ررق في السماء وازلت في الواح وقبل هى القرآن ولعل هذا
ارجح الاقوال لانه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة
فالصحف هى الرق وكونه بأيدى سفرة هو كونه منشورا وعلى هذا فيكون قد اقسام بسيد
الجبال وسيد الكتب ويكون ذلك متضمنا للنبوتين العظيمين نبوة موسى ونبوة محمد وكثيرا
ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون ثم اقسام بسيد البيوت وهو البيت
المعمور وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيقى لكونه مكتوبا مفروضا منه وفي وصفه
بأنه منشور ايذا بالاعتناء به وانه بأيدى الملائكة منشور غير معجور واما البيت المعمور
فالشهور انه الصراح الذى في السماء الذى رفع لنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء بدخله
كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه آخر ما عليهم وهو بحسب البيت المعمور في
الارض وقبل هو البيت الحرام ولا ريب ان كلامهما معمورا فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم
وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت
ثم اقسام سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته وهما مظهر آياته وعجائب صنعته
وهما السقف المرفوع وهو السماء فانها من أعظم آياته قدرا وارتفاعا وسعة سمكا ولونا واشراقا

وهي محل ملائكته وهي سقف العالم وبها انتظامه ومحل النيران الذين بهما قوام الليل والنهار والسنين والشهور والايام والصيف والشتاء والربيع والخريف ومنه انزل البركات اليها تصعد الارواح واعمالها وكلها فيها الطيبة والثاني البحر المجبور وهو آية عظيمة من آياته وحجابه لا يصبها الا الله واختلاف في هذا البحر هل هو الذي فوق السموات أو البحر الذي نشاهده على قولين فقالت طائفة هو البحر الذي عليه العرش وبين اعلاه واسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه ابو داود من حديث سمك عن عبد الله بن محبيرة عن الانصاف بن قيس قال كنت بالبطحاء في عصاة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرث بهم صحابة فنظر اليها فقال ما تعلمون هذه قالوا السحاب قال والمزن قالوا او المزن قال والعنان قالوا والعنان قال هل تدرون ما بين السماء والارض قالوا لا ندري قال ان بعد ما بينهما اما واحدة او اثنتان او ثلاث وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عدد سبع سموات ثم فوق السابعة بحر اربعين اسفله واعلاه مثل ما بين سماء الى سماء ثم فوق ذلك ثمانية احوال بين اطلاقهم وركبهم مثل ما بين سماء الى سماء ثم على ظهورهم العرش ما بين اسفله واعلاه مثل ما بين سماء الى سماء ثم الله فوق ذلك وهذا لا ينقض ما في جامع الترمذي ان بين كل سمانين مسيرة خمسمائة عام اذا لمسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به فالخمسمائة مقدرة بسير الابل والسبعون بسير البريد وهو يقطع بقدر ما تقطعه الابل سبعة اضعاف وهذا القول في البحر الذي تحت العرش يحكى عن علي بن ابي طالب والثاني انه بحر الارض واختلاف في المجبور قبل المملوء هذا قول جميع اهل اللغة قال الفراء المجبور في كلام العرب المملوء يقال سحرت الاناء اذا مملأ ثم قال لييد

فتوسطا عرض المسمى وصدا * مسجورة متجاوز اقلامها

وقال المبرد المجبور المملوء عند العرب واشد للخرن ثوب * اذا شاء طالع مسجورة * يريد حين المملوء ماء وكذا قال ابن عباس المجبور المملوء وقال بجاهد المجبور المملوء قال الايث البحر ايقادك في التنور نجمة مجر او البحر اسم الخطب وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما قال البحر يسبح فيراد في جهنم وحكى هذا القول عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال مسجور قال الفراء وهذا يرجع الى القول الاول لانك تقول سحرت التنور اذا مملأته حطباً وروي ذوالمة الشاعر عن ابن عباس ان المجبور اليابس الذي قد نضب مأوؤم وذهب وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف وهذا القول اختيار ابي العالية قال ابو زيد المجبور المملوء والمجبور الذي ليس فيه شيء جعله من الاضداد وقد روى عن ابن عباس ان المجبور المحبوس ومنه ساجور الكلب وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه والمعنى على هذا انه محبوس بقدره الله ان يفيض على الارض فيغيرها فان ذلك مقتضى الطبيعة ان يكون الماء غامراً الارض فوقها كما ان الهواء فوق الماء ولكن امسكه الذي يمسك السموات والارض ان تزولا وفي هذا حديث ذكره اجدمر فوما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يفرق بين آدم وهذا الموضع مما هدم اصول الملاحدة والدهرية فانه ليس في الطبيعة ما يقتضى حبس الماء عن بعض جوانب الارض مع كون كرة الماء طالية على كرة الارض بالذات ولو فرض أن

في الطبيعة ما يقتضى بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره وما ذكره الطائعيون والمتفاسقون أن العناية الالهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فتم هو كما ذكرنا ولكن غناية من يفعل بقدرته ومشيئته وهو بكل شئ عليم وعلى كل شئ قدير وهو أحكم الحاكمين غير معقولة فإن العناية الالهية تقتضى حياته وقدرته ومشيئته وعلمه وحكمته ورجته واحسانه الى خلقه وقيام الاعمال به فثبتت العناية الالهية مع نفي هذه الامور بمنع وبالله التوفيق واقتوى الاقوال في المسجور أنه الموقد وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى واذا البحار سجرت قال علي وابن عباس أوقدت فصارت نارا ومن قال بيست وذهب مأواها فلا ينافى كونها نارا موقدة وكذا من قال ملئت فانها غلاة نارا واذا اشتهرت اسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رايت اللفظة تدل على ذلك كله فان البحر محبوبس بقدرته الله وملؤه ماء وبذهب مأوه يوم القيامة وبصير نارا فكل من المفسرين اخذ معنى من هذه المعاني والله اعلم

فصل في واقسم سبحانه بهذه الامور على المعاد والجزاء فقال ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه اخبر سبحانه انه لا دافع له وهذا يتناول امرين احدهما انه لا دافع لوقوعه والثاني انه لا دافع له اذا وقع ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال يوم تقوم السماء ومورا وتسير الجبال سيرا والمور قد فسر بالحركة وفسر بالدوران وفسر بالتوج والاضطراب والتحقيق انه حركة في توجهه وتكفي وذهب وبجئ واهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال فقال وتسير الجبال سيرا وقال واذا الجبال سيرت من مكان الى مكان واما السماء فانها تنكفأ وتوج وتذهب ونجى قال الجوهرى مارا الشئ يمور مورا ترها اى تحرك وجاء وذهب كما تنكفأ النحلة العبدانة اى الطويلة ومنه قوله يوم تقوم السماء مورا قال الضحك توج مورا وقال ابو عبيدة والاختف تنكفأ وانشد للاشعري كان مشيتها من بيت جاريتها * مور العصابة لاريب ولاصيل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة وذكر اعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها وهى الخوض الذي هو كلام باطل والعب الذي هو سعى ضائع فلا علم نافع ولا عمل صالح بل علومهم خوض بالباطل واعمالهم لعب ولما كانت هذه العلوم والاعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر ادخلوا جهنم وهم يدهون اليها دما اى يدفع في اقبيبتهم وكنافهم دفعها بعد دفع فاذا وقفوا عليها وما ينوها وقفوا وقيل لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون وتقولون لا حقيقة لها ولا من اخبر بها صادق ثم بقى ال افسر هذا الا ان كما كنتم تقولون للحق اى جاء تصحكم به الرسل انه سحر وانهم سحرة فهذا الا ان سحر لا حقيقة له كما قلتم ام على ابصاركم غشاوة فلا تبصرونها كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصروا الحق اضميت ابصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق كما جميت في الدنيا فلا تبصروا الحق ثم سلب عنهم نعم البصر الذي كانوا في الدنيا اذا دهمتهم الشدائد واحاطت بهم لجثوا اليه ونهقوا بانقضاء البلية لانقضاء امد هان قيل لهم يومئذ اصبروا ولا تنصبروا كلاهما واه عليك لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع فلا الصبر يخفف عنكم حل هذا العذاب ولا الجزع يعطف عليكم

قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة ثم اعلوا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك وانما هو نفس
 اعمالهم صارت عذابا فلم يجدوا من اقترانهم به بدائل صارت عذابا لازما لهم كما كانت ارادتهم
 وعقائدهم الباطلة واعمالهم القبيحة لازمة لهم وثوروم العذاب لاهله في النار بحسب لزوم
 تلك الارادات الفاسدة والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الاعمال لهم في الدنيا فاذا زال
 ذلك الزوم في وقت ما يصد به بالتوبة النصوح زوالا كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة لان اثره
 قد زال من قلوبهم والسننهم وجوارحهم ولم يبق له أثر يترتب عليه فالتائب من الذنب
 كمن لا ذنب له والمادة الفاسدة اذا زالت مع البدن بالكلية لم يبق هناك ألم يشاعرها وان لم تزل
 تلك الارادة والاعمال ولكن طرورها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض وغلب الأقوى
 الاضعف وان تساوى الامران ندافعا وقاوم كل منهما الآخر وكان محل صاحبه جبال الاعراف
 بين الجنة والنار فهذا حكم الله وحكمته في خلقه وأمره وفيه وعقابه ولا يظلم ربك أحدا
فصل ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة والاعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة
 وهم المتقون فذكر مساكنهم وهم في الجنان وحالهم في المساكن وهو النعيم وذكر نعيم قلوبهم
 وراحتهم بكونهم فاكهين بما آتاهم ربهم والفاكهة المحبب بالشيء الممرور المشتبه وفعله فكهة
 بالكسر يفكه فهو فكه وفاكهة اذا كان طيب النفس والفاكهة البال ومنه الفاكهة وهي المرح
 الذي ينشأ عن طيب النفس وتفكهت بالشيء اذا فكت به ومنه الفاكهة التي يتنعم بها ومنه قوله
 فظلم تفكهون قيل معناه تدمون وهذا تفسير يلزم المعنى وانما الحقيقة تربطون عنكم التفكه
 واذا زال التفكه خلفه ضده يقال ففكت اذا زال الخنث عنه ونهرج ونحوب وتأنم ومنه تفكه
 وهذا البناء يقال لداخل في الشيء كتململ في الشيء وللتخرج منه كنهرج وتأنم والمقصود انه سبحانه جمع
 لهم بين التعميم نعيم القلب بالتفكه ونعيم البدن بالاكل والشرب والنكاح ووقاهم عذاب الجحيم
 فوقاهم ما يكرهون واعطاهم ما يحبون جزاء وفا لانهم تركوا ما يكرهوا وانوا بما يحب فكان جزاؤهم
 مطابقا لاعمالهم ثم اخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله هيئتوا لعلوا زواله وانقضاءه
 لنقص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناك لهم ثم ذكر بحالهم وهيئاتهم فيها فقال متكئين
 على سرر مصفوفة وفي ذكر اصطفاها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من
 بعض ومقابلة بعضهم بعضا كما قال تعالى متكئين عليها متقابلين فان من تمام اللذة والنعيم
 أن يكون مع الانسان في بيئته ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ولا يكرهون بعيدا
 منه قد حيل بينه وبينه بل سريره الى جانب سريره من يحبه وذكر أنزلهم وانهم
 الحور العين وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين قال ابو عبدة جعلناهم ازواجا
 كما تزوج البعل بالبعل جعلناهم اثنين اثنين وقتل يونس قرناهم بين وليس من عقل التزويج
 واخرج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت بها وانما تقول تزوجتها قال تعالى فلما قضى
 زيد منها وطرا زوجناكمها وفي الحديث زوجتكها بما عاك من القرآن وقال غيره العرب تقول
 تزوجت بامرأة وقال الازهرى العرب تقول زوجت امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم
 تزوجت بامرأة ومنه قوله تعالى وزوجناهم بحور عين اي قرناهم وعلى هذا فزوجناهم
 عندهم من الاقتران والتفجع اي شفعناهم وقرناهم بين وقالت طائفة منهم مجاهد زوجناهم

بهن اى انكسناهم اياهن قلت وعلى هذا فتلويح نعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته
بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم فالقولان واحد والله أعلم وأما الحور العين فقال مجاهد
التي يحار فيها الطرف باديا غسوقهن من وراء ثيابهن ويرى الناظر وجهه في كبد احداهن
كالمرأة من رقة الجلد وصفاء اللون وقال قتادة بصور اى يرض وكذا قال ابن عباس وقال مقاتل
الحور البيض الوجوه العين الحسن الامين وعين حوراء شديدة السواد نقية البياض طويلة
الاهذاب مع سوادها كالملة الحسن ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون
الجسد فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال خيرات حسان قال بياض في ألوانهن
والحسن في وجوههن والملاحة في عيونهن وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن
الصفات ودل على وصف بما مكنت عنه فان شئت التفصيل فالذى يحمده ويستحب من وجه المرأة
وبدنها واخلاقها البياض في أربعة اشياء اللون وبياض العين والفرق والثغر والسواد في
أربعة سواد العين وسواد شعر الرأس والجفن وسواد الحاجبين والحرمة في أربعة اللسان
والشفتين والوجنتين وحرمة تشوب البياض فحسنة وتزينه ومن التدوير أربعة اشياء
الوجه والرأس والكعب والمقعد ومن الطول أربعة القامة والعنق والشعر والحاجب
والسعة في أربعة الجبهة والعين والوجه والصدر ومن الصغر في أربعة الثدي والقم
والكف والقدم ومن الطيب في أربعة الفم والانف والفرج ومن الضيق في موضع
واحد ومن الاخلاق كما قال تعالى عربا أنزبا اذ العرب جمع عرب وهى المرأة المتعبدية الى
زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها قال ابن الاعرابى العرب من النساء المطيعة لزوجها
المتعبدية اليه وقال ابو حبيدة هى الحسنة التبع لالمرءى العاشقة لزوجها وقال البخارى فى صحبه
هى النجدة ويقال الشكلة فهذا وصف اخلاقهن وذلك وصف خلقهن وأنت اذا تأملت

الصفات التى وصفهن الله بها رأيتهم مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها والله المستعان
فصل ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالخلق ذرياتهم بهم فى الدرجة وان لم يعملوا
أعمالهم لتقر أعينهم بهم ويتم سرورهم وفرحهم وأخبر سبحانه انهم ينقص الآباء من عملهم من
شئ بهذا الالحاق فينزلهم من الدرجة العليا الى الدرجة السفلى بل ألحق الابناء بالآباء
ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم ثم أخبر سبحانه ان هذا انما هو فعله فى اهل الفضل واما
أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك بل كل امرء بما كسب رهين ففى هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين
بهذا الالحاق كما فى قوله وما ألتاهم من عملهم من شئ دفع لتوهم حظ الآباء الى درجة الابناء
وقسمه أجور الآباء بينهم وبين الابناء فينقص أجزأعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله وما ألتاهم من
عملهم من شئ أى ما نقصناهم ثم ذكر امدادهم بالعم والفاكهة والشراب وانهم يتعاطون
كؤوس الشراب بينهم يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليت بذلك فرحهم وسرورهم ثم
نزه ذلك الشراب عن الآفات من القفو من أهله عليه وخلق الاثم لهم فقال لا توفىها
ولانائم فتنى بالقو السباب والتخاصم والهجر والنفس فى المقال والعريضة ونفى بالتأنيب
جميع الصفات المذمومة التى أئمت شارب الخمر وقال سبحانه ولانائم ولم يقل ولا اثم أى
ليس فيها ما يحلمهم على الاثم ولا يؤثم بعضهم بعضا بشرها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة

فلا يلقون ولا يأتون قال ابن قتيبة لا يذهب بقولهم فيلقوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم فهو وصف
خدمهم الطائفة عليهم بأنهم كالأولاد في بياضهم والمكنون المصون الذي لا تدنسه الأيدي
فلم تذهب الخدمة تلك الحسن وذلك اللون والصفاء والبهجة بل مع اختصاصهم بخدمتهم
كأنهم لؤلؤ مكنون ووصفهم في موضع آخر إذا رأيتهم حسبتهم أولوا منتورا في ذكر
المنتور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم وبجبتهم وسعة المكان بحيث
لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وإنهم
يقولون أنا كنا قبل في أهلنا مشفقين أي كنا خائفين في محل الأمن بين أهل وال الأقارب
والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والاشفاق إلى أن من الله علينا فأمننا بما نخاف ووقانا هذاب
السموم وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورا فهذا كان مسرورا مع إساءته
وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم فبدل الله سبحانه أشفائهم بأعظم الأمن وبدل أمن أولئك
بأعظم المخاوف فبالله سبحانه المستعان ثم أخبر عن حالهم في الدنيا وإنهم كانوا يعبدون الله فيها
فأوصلهم عبادته وحده إلى قرب وجواره ومحل كرامته والذي جع لهم ذلك كله بره
ورحمته فإنه هو البر الرحيم فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم
فصل في ذلك قوله والذاريات ذروا فالحمالات وقرأوا فالجاريات يسرا فالقسمات
أمر أقسم بالذاريات وهي الرياح تذر والمطر وتذر والتراب وتذر والنبات إذا نهشم كما قال
نعالى فأصبح هشيما تذر الرياح أي تفرقه وتشره ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقرأ
أي ثقلا من الماء وهي روابيا الأرض يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح كما في
جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم
جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم هل تدرؤن ما هذا
قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا العنان هذه روابيا الأرض يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم
لا يشكرون ولا يدعونه ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك وهي الجاريات يسرا وهي النجوم التي
من فوق النمام ويسرا أي مسخرة مذللة متقادة وقال جماعة من المفسرين إنما السفن تجري
ميسرة في الماء جريا سهلا ومنهم من لم يذكر غيره واختار شيخنا رحمه الله القول الأول وقال هو
أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالى فإنه بدأ بالرياح وفوقها السحاب وفوقه
النجوم وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه والصحيح أن المقسمات
أمر الانحناء بأربعة وقيل هم جبريل يقسم الوحى والعذاب وأنواع العقوبة على من
خالف الرسل وميكائيل على القطر والبرد والتلج والنبات يقسمها بأمر الله وملك الموت يقسم
المنايين الخلق بأمر الله واسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور وهم المدبرات
أمر الله وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم والله أعلم وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة
لمكان العبرة والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته في الرياح من
العبر هو بها وسكونها ولينها وشدتها واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها ونصرتها وتنوع
منافعها وشدتها الحاجة إليها فالمطر خمسة رياح ينفث سحابه وريح يؤلف بينه وريح
تلقه وريح تسوقه حيث يريد الله وريح تذر وأمامه وتفرقه وتنبات وريح والسفن وريح والرحمة

ريح ولعذاب ريح الى غير ذلك من انواع الرياح وذلك تقضى بوجود خالقى مصرف لها
مدبر لها وبصرفها كيف يشاء ويجعلها رخاء نارة وحاصفة نارة ورجة نارة وعذابا نارة
قلابة يحيى بها الزرع والثمار ونارة يغطها بها ونارة ينجمى بها السفن ونارة يهلكها بها ونارة
تطرب الابدان ونارة تذيبها ونارة هفيمها ونارة لاقحة ونارة جنوبا ونارة دجورا ونارة صبا
ونارة شمالا ونارة حارة ونارة باردة وهى مع غاية قوتها الطفشى وأقبل الخلوقات لكل
كيفية سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض اذا قطع عن الحيوان الذى
على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذى اذا غرقه حيوان الماء هلك بحبسها الله سبحانه
اذا شاء ويرسلها اذا شاء تحمل الاصوات الى الاذن والرائحة الى الانف والمصاب الى الأرض
الجزروهى من روح الله تأتى بالرجة ومن عقوبته تأتى بالعذاب وهى أقوى خلق الله كإرواه
الترمذى فى جامعته من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله
الأرض جعلت قميد فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت فعميت الملائكة من شدة الجبال
وقالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شئ
أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من النار قال نعم الماء قالوا يارب هل
من خلقك أشد من الماء قال نعم الريح قالوا يارب هل من خلقك أشد من الريح قال نعم ابن آدم
تصدق بصدقة بينه يخفيها من شماله ورواه الامام أحمد فى مسنده وفى الترمذى فى حديث
قصة عادانه لم يرسل عليهم من الريح الا قدر حلقة الخاتم فلم تذر من شئ أنت عليه الا جعلته
كارميه وقد وصفها الله بأنها غاية قال البخارى فى صحيحه عنت على الخزنة فلم يستطيعوا ان
يردوها والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته
فصل فى قسمه بالسحاب وهو من أعظم آيات الله فى الجوفى غاية الخلف ثم يحمل الماء
والبرد فبصير أثقل شئ فى أمر الرياح فعمله على متونها وتسويره حيث أمرت فهو مسخر
بين السماء والأرض حامل لارزاق العباد والحيوان فاذا فرغ من حيث أمر به اضمحل وتلاشى
بقدره الله فانه لوبقى لأضر النسات والحيوان فأنشأ سبحانه فى زمين يصلح انشاؤه فيه وجهه
من الماء ما يحملهم وساقه الى بلد شديد الحاجة اليه فسل السحاب من أنشأ بعد عدمه وجهه
الماء والتج والبرد ومن جعله على ظهور الرياح ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عساد
ومن أفاض بقطره العباد واحيى به البلاد وصرفه بين خلقه كما أراد وأخرج ذلك القطر
بقدر معلوم وأترله منه واقناه بعد الاستغناء عنه ولو شاء لادامه عليهم فلم يستطيعوا الى دفعه
سبيلا ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون اليه وصولا فان لم يحبك جوارح بابك اعتبار الرسل
الرياح من أنشأها بقدرتها وصرفها بحكمته ومضرها بمشيئته وارسلها بشرايين يدي رحته جعلها
سببا لتمام نعمته وساطعا على من شاء بمقتدته ومن جعلها رخاء وذارية ولاقحة ومثيرة ومؤلفة
ومغذية لابنان الحيوان والشجر والنبات وجعلها قاصفا وحاصفا ومهلكة وحابة الى غير
ذلك من صفاتها فهل ذلك لها من نفسها وذاتها ام تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته
واقترت المصنوعات وحدانيته بده التفع والضر وله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين
وسل الجازيات سيرا من السفن من أمسكها على وجه الماء ومضرها البحر ومن أرسل لها الرياح

التي تسوقها الى الماء سوتى الهباب على متون الرياح ومن حفظها في بجزاها ومرساها
من طغيان الماء وطفيان الريح فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لا تخرقها ولو نقص عنه
لعاقتها ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها ولم يسلم على تلك الريح ما يصادمها أو يقاومها
فتتوج في البحر بينا وشمالا تتلاعب بها الريح ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا
البيت العظيم الذي يمشي على الماء فيقطع المسافة البعيدة ويعود الى بلده بشئ في الماء ويمخره
مقبلا ومدبرا بريح واحدة تجري في موج كالجبال ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان بشأ
يسكن الريح فيظللن رواكد على ظميره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوقن
ما كسبوا ويعفون كثير ومن الذي جد في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة وأخرق جميع
أهل الارض سواهم وسل الجاريات يسرا من الكواكب والشمس والقمر ومن الذي خلقها
وأحسن خلقها ورفع مكانها وزين بها قبة العالم وظاوت بين اشكالها ومقاديرها وألوانها
وحركانها وأما كنهان السماء فتم الكبر ومنها الصغير والمتوسط والابيض والاحمر والزجاجي
اللون والدرى اللون والمتوسط في قبة الفلك والمنظرف في جوانبها وبين ذلك ومنها ما يقطع
الفلك في شهر ومنها ما يقطعه في عام ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاما ومنها ما يقطعه في أضعاف
ذلك ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب بحال فهو أبدي ومنها أبدي الخفاء ومنها ماله حاتسان
ظهور واختفاء ومنها ماله حركتان حركة عرضية من المشرق الى المغرب وحركة ذاتية
من المغرب الى المشرق فحال ما يأخذ الكوكب في الغروب فاذا كوكب آخر في مقابلته وكوكب
آخر قد طلع وهو أخذ في الارتفاع والنضاد وكوكب آخر في الريع الشرق وكوكب آخر
في وسط السماء وكوكب آخر قد مال من الوسط وآخر قد دنا من الغروب وكان رقيه ينظر
بطلوعه غيبته وأنت اذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كاندل
على المبدأ وتدل على وجود الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة
وكدال على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسوله فكما جعل الله النجوم هداية
في طريق البر والبحر فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه وقدرته وعلمه وحكمته والمبدأ
والمعاد والنبوة ودلائلها على هذه المطالب لا تقصر عن دلائلها على طرق البر والبحر بل دلائلها
للعقول على ذلك أظهر من دلائلها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا

فصل ١٠ وأما دلالة السموات أمراهم الملائكة فلا تمشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي
وما لا يشاهد اغاها على أيدي الملائكة فالرب تعالى يدبرهم امر العالم وقد وكل بكل عمل من الاعمال
طائفة منهم فوكل بالشمس والقمر والنجوم والافلاك طائفة منهم ووكل بالقطر والسحاب طائفة
ووكل بالنبات طائفة ووكل بالاجنة والحيوان طائفة ووكل بالموت طائفة وبمحفظي آدم طائفة
وباحصاء اعمالهم وكتابتها طائفة وبالوحى طائفة وبالجمال طائفة وبكل شأن من شؤون العالم طائفة
هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن وما فيهم من القوة والشدة ولطافة الجسم
وحسن الخلقة وكال الانقياد لامره والقيام في خدمته وتنفيذ أوامره في اقطار العالم ثم اقم
سبحانه بهذه الامور على صدق وعده ووقوع جزائه بالتواب والعقاب فقال اغناهم دون
لصادق أي ما توعدون من امر الساعة والثواب والعقاب لخلق كائن وهو وعد صادق

لا كذب وان الدين لواقع أى ان الجزاء لكائن لا محالة ويحوز ان تكون مامو صولة والعائد محذوف والمعنى ان الذى نوءدونه لصادق أى كائن وثابت وان تكون مصدريه أى ان وعدكم لحق وصدق ووصف الوعد بكونه صادقا ابلغ من وصفه بكونه صدقا ولا حاجة الى تكلف جعله بمعنى مصدوقا فيه بل هو صادق نفسه كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه فوصف كلامه بأنه صادق وهذا مثل قولهم سركاثم وليل قائم ونهار صائم وماه دافق ومنه عيشة راضية وليس ذلك بمجاز ولا تخالف لقتضى التركيب واذا تأملت هذا التناوب والارتباط بين القسم والمقسم عليه وجدته دالا عليه مرشدا اليه ثم اقدم سبحانه بالاسماء ذات الحبك أصل الحبك في اللغة اعادة النسيج يقال حبك الشوب اذا اجاد نسجه وحبل محبوك اذا كان شديد القتل وفرس محبوك الكفل أى مدبجه وقال صهر المحبوك في اللغة ما جيد عمله ودابة محبوكة اذا كانت مدبجة الخلقى وقال ابو عبيدة والمبرد الحبك الطريق واحدها حباك وحباك الحمام طرائق على جناحيه وحبك الماء طريقه وقال الفراء الحبك تكسير كل شئ كالزمل اذا مررت به الريح والماء الدائم اذا مررت به الريح ونجمه الشعر حبك ايضا واحدها حبيكة مثل طريقه وحباك مثل مثال ومثل والمقصود بهذا كله ما افصح به ابن عباس فقال يريد الخلقى الحسن وروى سعيد بن جبير عنه قال الحبك حسنها واسنواؤها وقال فتادة ذات الخلقى الشديد وقال بجاهد متقنة البنيان وقال ايضا ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها حبك الماء اذا ضربته الريح وحبك الرمل وحبك الشعر وقال عكرمة يذبانها كالبرد المسلسل قلت وفي الحديث في صفة الدجال شراره حبك أى جمع الشعر ومن أحسن ما قبل في تفسير الحبك ما ذكره الزمذى في تفسير الجامع من حديث الحسن عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل ندرون ما فوقكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قلها الرقع سقف محفوظ وموج مكفوف وذكر الحديث

فصل ثم ذكر القسم عليه فقال انكم انى قول مختلف يؤفك ضنه من أنك قاله قول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو خرس كله فانهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم فان الحق شئ واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج أى مختلط ملتبس وفي ضمن هذا الجواب انكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم بالحق ثم اخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فمن ههنا فيها طرق من معنى التسبب كقوله وما نحن بتاركي آلهمنا عن قولا وقوله من أفك أى من سبى في علم الله يضل ويؤفك كقوله فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتين الا من هو صال الجحيم وقالت طائفة الضمير يرجع الى القرآن وقيل الى الايمان وقيل الى الرسول والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به ولما كان هذا القول المختلف خرسا وباطلا قال قتل الخراصون أى المكذبون الذين هم في غرة ساهون وجهه الله قد غر قلوبهم أى غطاها وخشاها كغرة الماء وغرة الموت فغمرات ما غطاها من جهل أو هوى أو صكر

أو غفلة أو حب أو بغض أو خوف أو غم ونحو ذلك قال تعالى بل قلوبهم في غمرة من هذا أي غفلة وقيل جهالة ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم ذلك ثم قال يستلون أي إن يوم الدين استبعادا لوقوع وجعده فأخبر تعالى أن ذلك يومهم على النار يفتنون والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة على تعطي معنى زائدا على ما ذكره ولو كان المراد نفس الحرف لقبل يومهم في النار يفتنون ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم على بمعنى في كما تكون بمعنى على والظاهر أن فتنهم على النار قيل فتنهم فيها لم يرضهم عليها ووقوفهم عليها تشبه وعند دخولهم والتعذيب بها فتنه أشد منها فهم ومن جعل الفتنه ههنا من الحريق أخذ من قوله تعالى إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا واشتبهوا على ذلك أيضا بهذه اللفظة التي في الذاريات وحقيقة الأمر أن الفتنه تطلق على العذاب وسببه ولهذا سمي الله الكفر فتنه فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمي جزاءهم فتنه ولهذا قال ذوقوا فتنناكم وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنهم وآخر هذه الفتنه دخول الدار والعذاب بها ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها ثم فتنوا بارسال الرسل إليهم ثم فتنوا بمخاض الفتنه وكذبهم ثم فتنوا بعذاب الدنيا ثم فتنوا بعذاب الموت ثم يفتنون في موقف القيامة ثم إذا حشروا إلى النار وقفة وا عليها وعرضوا عليها وذلك من اعظم فتنهم ثم الفتنه الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها

فصل ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى وهو الجنات والعيون وأنهم آخذون ما آتاهم ربهم من الخير والكرامة وفي ذلك دليل على أمور منها قبولهم له ومنها رضاهم به ومنها وصولهم إليه بالأمانع ولا معاوق ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم فكما أخذوا من أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانفراخ الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك وهو أحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له والقيام بحقوقه وحقوق عباده ثم ذكر ليهم وأنهم قليل هجوعهم منه وقد قيل إن مانافيه والمعنى ما يحبونه قليلا من الليل فكيف بالكثير وهذا ضعيف لوجوه أحدها أن هذا ليس بالأمر أو صف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء الثاني أن قياسا من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله الثالث أنه لو كان المراد بذلك أحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقام ليلة حتى الصباح الرابع أن الله سبحانه غافا أمره صلى الله عليه وسلم ان يتعبد بالقرآن من الليل لاني الليل كله فقال ومن الليل فهم عبده الخامس أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل أمرا بقيام النصف أو التقصان منه أو الزيادة عليه فذكر له هذه المراتب الثلاثة ولم يذكر قيامه كله السادس أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال يا عثمان أرغبت من منتي قال لا والله يا رسول الله ولكن سنئك أطلب قال فاني نام وأصلي وأصوم وأفطر واتكح النساء فأتى الله يا عثمان فان لا هلك عليك حقا

وان اضيفك عليك حقا وان لنفسك عليك حقا فصم وافطر وصل ونم ولما بلغه من زبيب
فت جشش أنها تصل الابل كل سنة حتى جعلت حبلا بين ساريتين اذا فترت تعلقت به أنكر
ذلك وأمر بحله السابع أن الله أننى عليهم بأنهم كانت تجسافى وتقلق عنها حتى يقوموا الى
الصلاة وله اذاجازاهم من هذا الجسافى الذى سببه قلنى القلب واضطرابه حتى يقوم الى
الصلاة بقرة الاثمين الثامن أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل فى هذه الآية لم
يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلا فروى بحير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس فى
قوله كانوا قليلا من الابل ما يجمعون قال كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء التاسع أن فى
هذا التقرير تفكيكا للكلام وتقديما للمعول العامل المنفى عليه لانك تجعل قليلا مفصول
يجمعون وهو من فى والبصريون لا يجمعون ذلك وان أجازة الكوفيين وفصل
بعضهم ما أجازة فى الظرف ولم يحزه فى غيره

فصل فى ما زاد من الخبر كان يجمعون وقليلا منصوب اما على المصدرية أى
هجوموا قليلا واما على الظرف أى زمنا قليلا واستشكل هذا بأن نوم نصف الابل وقيام
ثلثه ثم نوم سده أحب القيام الى الله فيكون وقت الهجوم وعاء كثير من وقت القيام فكيف
يبنى عليهم ما الافضل خلافه وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فز من هجومه أقل
من زمن يقظته قطعا فانه مستيقظ من المغرب الى العشاء ومن العجر الى طلوع الشمس
فيبقى ما بين العشاء الى طلوع العجرفة قومون نصف ذلك الوقت فيكون زمن الهجوم وعاء
أقل من زمن الاستيقاظ وقيل ما مصدرية وهى فى موضع رفع بقليل أى كانوا قليلا هجومهم
وهو قول الحسن وقيل انها موصولة بمعنى الذى والعائد محذوف أى قليل من الابل
الوقت الذى يجمعون وفيه تكلف وقيل ما يجمعون بدل اشتغال من اسم كان والنقد يدركان
هجومهم من الابل قليلا ويرد عليه أن من الابل متعلق يجمعون ومعول المصدر لا يتقدم
عليه وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير ومعناه أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره
هذا المذكور وقليلا خبر كان ونم الكلام بذلك والمعنى كانوا صنفًا أو جنسًا قليلا ثم قال من
الابل ما يجمعون واصحاب هذا القول يجعلون ما نافية فيعود الكلام الى نفي هجومهم شيئا
من الابل وقد تقدم ما فيه ثم اخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند الهجر
فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة فبالتوبة فبالتوبة فبالتوبة فبالتوبة فبالتوبة فبالتوبة
عقيب ذلك وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا وأمره الله سبحانه
أن يختم عمره بالاستغفار وأمر عباده أن يختموا افاضتهم من حركات بالاستغفار وشرع
صلى الله عليه وسلم للمتموضي أن يختم وضوءه بالتوبة فأحسن ما ختمت به الاعمال التوبة
والاستغفار ثم اخبر سبحانه عن احسانهم الى الخلق مع اخلاصهم لربهم فجمع لهم بين
الاخلاص والاحسان ضد الذين هم براؤن ويمنعون الماعون وأكد اخلاصهم فى هذا
الاحسان بأن مصرفه للساائل والمحروم الذى لا يقصد باعطائه الجزاء منه ولا الشكور
والمحروم المتعفف الذى لا يسأل وتامل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه وشرع لاصحاب
الجلدة اعطائه وهو اغنى الاغنياء واجود الاجودين فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع

شرح عطاه بأمره وحرمه بقدرته فلم يجمع عليه حرمانين
فصل ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والفضائية فقال وفي الأرض آيات للموقنين
وفي أنفسكم أفلا تبصرون فأيات الأرض أنواع كثيرة منها خلقها وحدوثها بعد عدمها
وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا يحصى فأنها شواهد قائمة بها ومنها بروز
هذا الجانب فيها من المانع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغشورا به ومنها صنعها وكبر
خلقها ومنها تسطحها كما قال تعالى وإلى الأرض كيف سطحت ولا ينافي ذلك كونها كثيرة فهي
كرة في الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان ومنها أنه جعلها أفراسا لتكون مقر الحيوان ومساكنه
وجعلها أفرارا وجعلها مهادا وجعلها ذاو لا توطأ بها الأقدام وتضرب بالعاول والنفوس وتحمل
على ظهرها الأثبة الثقال فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها وجعلها بساطا وجعلها كفاتا
للأحياء تضمنهم على ظهرها والاموات تضمنهم في بطنها وطعامها فدها وبسطها ووسعها
ودحانها فيتم المأوى منها بأن يخرج منها ماءها ومرطابها وشقي فيها الأنهار وجعل فيها السبل
والعجاج ومنه يجعلها مهادا وفراشا على حكمته جعلها الله ساكنة وذلك آية أخرى
إذا دماة نحتها تمسكها ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه
تكفأ السفينة فانتضت العناية الأزلية والحكمة الإلهية أن وضع عليها روادى
يثبتها به الثلاثيد وتستقر عليها الأنام وجعلها ذاو لا على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة
والشدة كالحديد فيمتنع حفرها وشقها والبناء فيها والغرس والزرع وبعث النوم عليها
والمشي فيها ونوبه بكونها قرارا على الحكمة في أنها لم تختلف في غاية اللين والرخاوة والدمائة
فلا تمسك بناو لا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة بل جعلها بين الصلابة والدمائة
وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد فلو كانت الأرض من
هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها وتعلت المنافع المقصودة منها وبهذا
يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك وإن كانت تلك أعلى وأز
فلاؤها وزنتها أقلها والأفانراب أنفع منها وأبرك وأنفس وكذلك لم يجعلها شفافة فإن
الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان كذلك لم يقبل الضوء فيبقى في غاية البرد فلا
يستقر عليه الحيوان ولا يثاني فيه النبات وكذلك لم يجعلها صقيلة براقعة لتلا محترق عليها بسبب
انعكاس أشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل
الشفاف فانتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان
والانعام والنبات ولما كان الحيوان الهوى لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أرزله
جانبا كما تقدم وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته وكذلك خلق
منها النوع الإنساني وأعاد إليها ويخرجه منها

فصل ومن آياتها أن جعلها مختلفة الاجناس والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات
متلاصقة فهذه سهلة وهذه حزنة تجاورها وتلاصقها وهذه طيبة تثبت وتلاصقها أرض لا تثبت
وهذه ترية وتلاصقها مال وهذه صلبة وتلاصقها ويلها رخوة وهذه سودا ويلها أرض بيضاء
وهذه حصي كلها وتجاورها أرض لا يوجد فيها حجر وهذه تصلح لبنات كذا وكذا وهذه لا تصلح له

بل تصلح لغيره وهذه سبعة ملحقة وهذه بضدها وهذه ليس فيها جبل ولا علم وهذه مسجرة بالجبال
 وهذه لا تصلح الاعلى المطر وهذه لا ينفعها المطر بل لا تصلح الاعلى سقى الانهار فيمطر الله سبحانه
 الارض البعيدة ويسوق الماء اليها على وجه الارض فلو سألناها من نوعها هذا التنوع ومن
 فرق اجزاءها هذا التفريق ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ومن ألقى عليها روائعها
 وقبح فيها السبل وأخرج منها الماء والمرعى ومن امسكها عن الزوال ومن برك فيها وقدر فيها
 اقواتها وأنشأ منها حيوانا ونباتا ومن وضع فيها معادن ووجواهرها ومنافعها ومن هيأها مسكنات
 ومستقر الانام ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده اليها ثم يخرج منه من جعلها ذلولا لغير مستصعبة
 ولا متملة ومن وطأ منا كبرا وذل مسالكها ووسع مخارجها وشق انهارها وانبث اشجارها
 واخرج ثمارها ومن صدعها عن النبات وادع فيها جميع الاقوات ومن بسطها وفرشها ومهدا
 وذللها وطحاها ودحاها وجعل ماعليها زينة لها ومن الذى يمسكها ان تحرك فتزل فيسقط
 ماعليها من بناء ومعلم ويحسفها عن عليها فاذا هي قور ومن الذى انشأ منها النوع الانسانى
 الذى هو ابداع المخلوقات واحسن المصنوعات بل انشأ منها آدم ونوحا وابراهيم وموسى
 وعيسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين وأنشأ منها اوليائه واحبائه وعبياده
 الصالحين ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والارزاق والمعادن والحيوان ومن
 جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة فلو زادت على ذلك لضعفت أثرها
 بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ولو
 زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة كأنشاهده في الصيف فاحترقت أبدان الحيوان
 والنبات وبالجملة فكانت تقوت هذه الحكمة التى بها انتظام العالم ومن الذى جعل فيها الجنات
 والحدائق والعيون ومن الذى جعل باطنها يزول الاموات وظهرها يوتى للاحياء ومن الذى
 يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ
 في الحمل فاذا كانت وقت الولادة مخضت الوضغ واهترت وأنبتت من كل زوج بهيج فسبحان من
 جعل السماء كلاب والارض كالام والقطر كالماء الذى ينعد منه الولد فاذا حصل الحب في
 الارض ووقع عليه الماء اثر نداوة الطين فيه وأما النخلة الصنونة الخنفيه في باطن الارض
 فوصلت الندوة والحرارة الى باطن الحبة فالسعت الحبة وربت وانتضت وانفلقت عن ساقين
 ساق من فوقها وهو الشجرة وساق من تحتها وهو العرق ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لايه
 نسبة اليه ثم وضع من الاولاد بعدد آياته آلافا مؤنفة كل ذلك صنع الرب الحكيم في حجة
 واحدة اعلمها ببلغ في الصغر الى الغاية وذلك من البركة التى وضعها الله سبحانه في هذه الام فبالها
 من آية تكفى وحدها في الدلالة على وجود الخالق وصفات كماله وافعاله وعلى صدق رساله فيما
 أخبر به عنه باخراج من في القبور ليوم البعث والنشور فتأمل اجتماع هذه العناصر الاربعة
 ونجاورها وامتزاجها وحاجة بعضها الى بعض وانفعال بعضها من بعض وتأثيره فيها أثره
 به بحيث لا يمكنه الاتباع من التأثر والاتفعال ولا يستقل الآخر بالتأثير ولا يستغنى عن صاحبه
 وفي ذلك أظهر دلالة على انها مخلوقة مصنوعة مبروبة مدبرة حادثة بعد عدمها فقيرة الى موجد
 خفي عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث تقاد المخلوقات كلها لقدرته وتجبب داعي مشيئته

وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته وتشهد بعلمه وحكمته وتدعو عباده الى ذكره وشكره
وطاعته وعبوديته ومحبته ونحذرهم من بأسه وتقمته ونحتمهم على المبادرة الى رضوانه وجنته
فانظر الى الماء والارض كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وزدواجهما انشأ الريح فحركت
الماء وساقته الى ان قذفته في عمق الارض ثم انشأ لها حرارة لطيفة سماوية وحصل بها
الانبات ثم انشأ لها حرارة أخرى اقوى منها حصل بها الانفتاح وكانت حاته الاولى
تضعف عن الحرارة الثانية فادخرت الى وقت قوته وصلابته فحرارة الربيع للاخراج وحرارة
الصيف للانضاج هذا وان الام واحدة والاب واحد واللقاح واحد والاولاد في غاية
التباين والتنوع كما قال تعالى وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل
صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك
لايات لقوم يعقلون فهذا بعض آيات الارض ومن الآيات التي فيها وقائمه سبحانه التي اوقعها
بالامم المكذبين لرسلهم المخالفين لامره وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى وماذا ونمود
وقد تبين انكم من مساكنهم وقال في قوم لوط وطوانكم لترون عليهم مصبين وبالقيل الا فتعلقون
وقال بأخذتهم الصبحه مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في
ذلك لايات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم اي بطريق ثابت لا يزول عن حاله قال وان كان
احصا اب الايكمة الظالمين فانتقمنا منهم وانهم لبامام مبين اي ديار هاتين الامتين لطريق
واضح يري به السالكون وقال تعالى وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف
فعلنا بهم وقال من قوم عاد فأصبحوا لايدي الامساكنهم وقال ألم يهداهم كم اهلكنا من قبلهم
من القرون يشون في مساكنهم فأى دلالة رجل يخرج وحده لاعدته ولا عدد ولا مال
فيدهو الامة العظيمة الى توحيد الله والايان به وطاعته وبمحذرهم من بأسه وتقمته فتدقق كلهم
اواكثرهم على تكذيبه ومعادته فتذكرهم انواع العقوبات الخاسرة عن قدرة البشر فتفرق
المكذبين كلهم نارة ويخسف بغيرهم الارض نارة وبهلك آخرين بالريح وآخرين بالصبحه
وآخرين بالمسخ وآخرين بالحجارة وآخرين بظلمة من النار من فوقهم وآخرين بالصواعق
وآخرين بأنواع العقوبات وينجو داعيهم ومن معه والهالكون اضعاف اضعافهم
عددا وقوة ومنعة واموالا

فيا لك من آيات حق لو اهتدى * بهن مرید الحق لیكن هو اديا

والكن علی تلك القلوب أكنة * فلیست وان أصغت نجیب المنادیا

فهل امتنعوا ان كانوا على الحق وهم اكثرهم عددا واقوى شوكة بقوتهم وعددهم من بأسه
وسلطانه وهلا اختصوا من عقوبته كما اختصم من هو اضعف منهم من اتباع الرسل ومن الآيات
التي في الارض مما بحمدته الله فيها كل وقت مما يصدق رساله فيما اخبرت به فلا تزال آيات الرسل
واعلام صدقهم وأدلة نبوتهم بحمد الله سبحانه وتعالى في الارض اقامه الحجة على من لم يشاهد
تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل حتى كأن اهل كل قرن يشاهدون ما يشاهد
الاولون ولنظيره كما كان سريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وهذه الارادة
لا تخلص بقرن دون قرن بل لا بد ما يرى الله سبحانه اهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم انه الله الذي

لا اله الا هو وان رحله صادقة وآيات الارض اعظم مما ذكرنا اكثر منه بالسير منها على الكثير
فصل ثم قال وفي انفسكم افلا تبصرون لما كان اقرب الاشياء الى الانسان نفسه دما خالقه
وباريه ومصوره وناظره من قطرة ماء الى التبصر والتفكير في نفسه فاذا تفكر الانسان في نفسه
استنارت آيات الربوبية ووسطعت له انوار اليقين واضمحلت عنه غمرات الشك والريب وانقضت
عنه ظلمات الجهل فانه اذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات وأدلة التوحيد على ربه
ناطات شاهدة لمدره دالة عليه مرشدة اليها الذبيحة مكوّنة من قطرة ماء لحوم منضدة وعظاما
مركبة واوصالا متعددة مأشورة مشددة بحبال العروق والاعصاب قد قطعت وشدت وجمعت
بجملتين مشتمل على ثلاث مائة وستين مفصلا ما بين كبير وصغير ونخين ودقيق ومستطيل
ومستدير ومستقيم ومنحن وشدت هذه الاوصال ثلاث مائة وستين مائة اتصال والانفصال
والقبض والبسط والمد والضم والصنائع والكتابة وجعل فيه تسعة أبواب فبابان للسمع وبابان
للبصر وبابان للشم وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس وبابان لخروج الفضلات
ثم الذي يؤذى احتباسها وجعل داخل بابي السمع مراقب لا ثلاث لا يبلغ فيها دابة تخلص
الى الدماغ فتؤذي وجعل داخل بابي البصر مالحة لئلا تذيب الحرارة الدائمة
ما هناك من الشحم وجعل داخل باب الطعام والشراب حلوا ليس يغ به ما يأكله ويشربه
فلا يتنفس به لو كان مرا أو مالحة وجعل له مصباحين من نور كالمراج المضيء مركبين
في أعلى مكان منه وفي أشرف عضو من أعضائه طبيعة له وركب هذا النور في جزء صغير جدا
يبصر به السماء والارض وما بينهما وغشاوة بسبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض
حاجية له وصيانة وحراسة وجعل على محله خلقا بصرا عين اعلا واسفل وركب في ذيل المصرعين
اهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجعل طرف فوق ذلك كله حاجبين من الشعر
يحجبان العين من اشرق النازل ويلتقيان عنها ما ينصب من هناك وجعل سبحانه لكل طبقة
من طبقة العين شغلا مخصوصا ولكل واحد من الرطوبات مقدار مخصوصا لو زاد على ذلك
أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ثم
أظهر في تلك العدسة صورة السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والاعلام العلوية
والسفلى مع اتساع اطرافه وتباها دقاره واقتضت حكمته سبحانه ان يجعل فيها باضا وسودا
وجعل القوة الباصرة في السواد وجعل البياض مستقر لها ومسكنها وزين كلا منهما بالآخر
وجعل الحدقة مصونة بالاجفان والحواجب كالتقدم والحواجب بالاهداب وجعلها سودا
اذلو كانت بضال الفرق النور الباصر فضف الادراك فان السواد يجمع البصر وينع من تفرق
النور الباصر وخلق سبحانه لتحرك الحدق وتقليبها اربعا وعشرين عضلة لو نقصت عضلة
واحدة لاختل أمر العين ولما كانت العين كالمرآة التي انما تنطبع فيها الصور اذا كانت في
قاية الصقالة والصفاء جعل سبحانه هذه الاجفان متحركة جدا بالطبع الى الانطباق
من غير تكلف لتبقى هذه المرأة نقية صافية من جميع الكدورات ولهذا لما يخلق لعين الذبابة
اجفانا لا تزال راها تنظف عينها يدها من آثار الغبار والكدورات

فصل وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فهو صلانه اليه كما تراه جعلهما

مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر والبلادة والفظنة والزيف والاستقامة فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة وهي فراسة العين وفراسة الاذن وفراسة القلب فالعين مرآة للقلب وطلبة ورسل ومن عجيب أمرها انها من الطلغ الاعضاء وابعد هائلا ترا بالحر والبرد على أن الدهن على صلابتها وظلها اينما تر بهما اكثر من تأثر العين على لطافتها وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الاجفان فانها ولو كانت منفذة لم تتأثر بذلك تأثر الاعضاء اللطيفة

فصل ومن ذلك الاذنان شتهما تبارك وتعالى في جانبي الوجه واوردهما من الرطوبة ما يكون معينا على ادراك السمع واوردهما القوة السمعية وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واحوجاجات لتطول المسافة قليلا فلا يصل الهواء الا بعد انكسار حده فلا يصدمها واحدة فيؤذيها وايضا قليلا يفجأها الداخل اليها من الدبيب والحشرات بل اذا دخل الى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك فسهل اخراجه وكانت العينان في وسط الوجه والاذنان في جانبيه لان العينين محل الملاحظة والزينة والجمال وهما بمنزلة النور الذي يمشى بين يدي الانسان وايضا فكان جعلهما في الجانبين ليكون ادراكهما لما خلف الانسان وامامه وعن يمينه وعن شماله سواء فتأثر في المسموعات اليهما على نسبة واحدة وخالقت العينان بغطاء والاذنان بغير غطاء وهذا في غاية الحكمة اذ لو كان للاذنين غطاء لمنع الغطاء ادراك الصوت فلا يحصل الابدال ارتفاع الغطاء والصوت عرض لاثباته فكان يزول قبل كشف الغطاء بخلاف ما تراه العين فانه اجسام واصراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وقبح العين وجعل سبحانه الاذن عضوا خضرا وفيه ليس بلحم مسترخ ولا عظم صلب بل هي بين الصلابة واللين فتقبل بلينها وتحفظ بصلابتها ولا تصدع انصداع العظام ولا تتأثر بالحر والبرد والشمس والسموم تأثر اللحم اذ المصلحة في بروزها لتلقى ما يرد عليها من الاصوات والابخار

فصل ومن ذلك الانف نصبه سبحانه في وسط الوجه قائما معتدلا في احسن شكل وأوقفه بالمنفعة وأودعه حاسة الشم التي يدرك بها الارائح وأنواعها وكيفيةها ومنافعها ومضارها ويستدل بها على مضار الاغذية والادوية ومنافعها وايضا فانه ينشق بالمخبرين الهواء البارد الرطب فيؤديه الى القلب فيتروح به فيستغنى بذلك عن قبح الفم أبدا وجعل نجويفه بقدر الحاجة فلم يوسع من ذلك فيدخله هواء كثير ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء ما يكفيه وجعل ذلك التجويف مستطيلا لينحصر فيه الهواء وينكمس برده وحدته قبل ان يصل الى الدماغ فلو لا ذلك لصدمه بحدته وقوته والهواء الذي يستنشقه الانف بنقص شطرين شطرا يصعد الى الدماغ وشطرا ينزل الى الرئة وهما اكثر من آلات النطق فان له امانة على تقطيع الحروف وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء فانه جعل مصبا لفضلات الدماغ فهدر منه في تلك القصبه فيخرج فيستريح الدماغ وان ذلك جعل عليها ستر ولم يجعلها بارزة فتستقبها العيون وجعل فيها نجويفا فانه قد ينسد احدهما او يعرض له آفة تمنعه من الادراك والاستنشاق فيبقى التجويف الثاني ثابتا عنه يعمل له كما اقتضت

الحكمة مثل ذلك في العينين ثم تأمل الهواء الذي يستنشق هناك الانف كيف يدخل اولاً من
 المخبرين وينكمس برده هناك ثم يصل الى الخلق فيعتدل مزاجه هناك ثم يصل الى الرئة اللطيفة
 ما يكون ثم ينفض الرئة الى القلب فيروح من الحرارة الغريزية التي فيه ثم ينفذ من القلب
 الى العروق المتحركة ويبلغ الى اقاصى اطراف البدن ثم اذا سخن في الباطن وخرج من
 حد الانتفاع من تلك الاقاصى الى البدن ثم الى الرئة ثم الملقوم ثم الى المخبرين خارجاً فيخرج منها
 ويعود هو ضمه هواء بارد نافع والنفس الواحد من انقاس العبد اغمايم بمجموع هذه الامور
 والقوى والافعال وهو في اليوم والليلة اربعة وعشرون الف نفس لله في كل نفس عدة نعم
 قد وقف على القليل منها فاعظك بما وراء النفس من الاعضاء والقوى ومنافعها ونعم النعمة بها
 فصل في واما الفم فعمل العجايب وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ويمكن
 اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم وترجى ان القلب ورسوله المؤدى عنه ولما كان القلب
 ملك البدن ومعدن الحرارة الغريزية فاذا دخل الهواء البارد وصل اليه فاعتدلت حرارته
 وبقي هنالك ساعة فمخن واحترق فاحتاج القلب الى دفعه واخراجه فجعل احكم الحاكمين
 اخراجه سبباً لحدوث الصوت في الخنجرة والحنك واللسان والشفتين والاسنان مقاطع
 ومخارج مختلفة بسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد ترتيب
 تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمربه فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه
 ذلك النفس المستغنى المحتاج الى دفعه واخراجه بل جعل فيه اذا استغنى عنه منفعة ومصلحة
 هي من اكل المنافع والمصالح فان المقصود الاصل من النفس هو اتصال الشم البارد
 الى القلب فاما اخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة فنصرف ذلك سبحانه الى
 رعاية تصلحه ومنفعة اخرى فجعله سبباً للاصوات والحروف والكلام ثم انه سبحانه جعل
 الحناجر مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة لتختلف الاصوات باختلافها
 فلا يشابه صوتان كالانتماء صورتان وهذا من اظهر الادلة فان هذا الاختلاف الذي بين
 الصور والاصوات على كثرتها وتعددتها قل ما يشبه صوتان أو صورتان ليس في الطبيعة
 ما يقتضيه وانما هو صنع الله الذي أتقن كل شئ واحسن كل شئ خلقه فتبارك الله رب
 العالمين واحسن الخالقين غير سبحانه بين الاغصان ما يدركه السمع والبصر
 فصل في واودع اللسان من المنافع منفعة الكلام وهي اعظمها ومنفعة الذوق
 والادراك وجعله دليلاً على اعتدال مزاج القلب وانحرافه كما جعله دليلاً على استقامته واهواج
 فترى الطبيب يستدل بما يبدو البصر على اللسان من الخشونة والملاسة والبياض والحمرة
 والتشقق وغيره على حال القلب والمزاج وهو دليل قوى على احوال المعدة والامعاء كما يستدل
 السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما في القلب فيبدو عليه صحة القلب وفساده ومعنى وصورة
 فصل في وجعل سبحانه اللسان عضواً لاجزاء اعظم فيه ولا عصب اتسهل حركته
 ولهذا لا نجد في الاعضاء من لا يكثر بكثرة الحركة واهائه اى عضو من الاعضاء حركته كما تحرك
 اللسان لم يعطك لذلك ولم يلبث ان بكل ويخلو الى السكون الا اللسان وايضا فانه من اعدل
 الاعضاء وانطقها وهو في الاعضاء بمنزلة رسول الملك ونايبه فزاجه من اعدل امرجة البدن

ويحتاج الى قبض وبسط وحركة في اقصى الفم وجوانبه فلو كان فيه عظام لم ينتهيا منه ذلك ولم ينتهيا منه الكلام التام ولا الذوق التام فيكونه كما اقتضاء السبب الفاعل والفاعل والله اعلم
فصل وجعل سبحانه على اللسان خلقين أحدهما الانسان والثاني الفم وجعل حركته اختيارية وجعل على العين غطاء واحدا لم يجعل على الاذن غطاء وذلك بخاطر اللسان وشرفه وخطر حركاته وكونه في الفم تنزلة القلب في الصدر وذلك من اللطائف ان آفة الكلام اكثر من آفة النظر وآفة النظر اكثر من آفة السمع فيجعل للاكثر آفات طبقتين وللمتوسط طبقتين وجعل للاقل آفة بلا طبق

فصل وجعل سبحانه الفم اكثر الاعضاء رطوبة والريق يتخلل اليه دائما لا يفارقه وجعله حلوا لا مالحا كما العين ولا مراً كالذي في الاذن والاعفنا كالذي في الانف بل هو عذب مياه البدن واحلاها حكمة بالغة فان الطعام والشراب بخا طه بل هو الذي يحيل الطعام ويمزج به امتزاج البجين بالماء فلو لانه حلولا لتذا الانسان بل والحية وان بطعام ولا شراب ولا ساعه الاعلى كره وتغصص ولما كان كثير من الطعام لا يمكن حبله الا بعد طبخه جعل الرب تعالى له آلة لتقطيع والتفصيل وآلة للطحن فيجعل آلة القطع وهي الشايل وما يليها حادة الرؤس ليسهل بها القطع وجعل الذواجد وما يليها من الاضراس مسطحة الرؤس مريضة ليتأني بها الطحن ونظما أحسن نظاما كالؤلؤ المنظم في ذلك وجعلها من الجانب الاعلى والاسفل ليتأني بها القطع والطحن وجعلها من الجانب الايمن والايسر اذ ربما كانت احدي الاكتفين او تعطلت او عرض لها عارض فينتقل الى الآلة الاخرى وايضا لو كان العمل على جانب واحد دائما أو شك أن يتعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابتة كما بنبت الزرع في الارض ولم يكسها سبحانه لحما كسائر العظام سواها اذ لو كسها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ويلتقي عنها الحرارة والبرد ويحفظ عليها رطوبتها لم تكمل مصلحة الحيوان الابهة الكسوة ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هي المكتسبة العارية لتتام المنفعة بذلك ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطقل من اول نشأة كسائر عظامه لعدم حاجته اليها فاعطل عنها وقت استغنائها عنها بالرضاع واعطيتها وقت حاجته اليها وفيه حكمة أخرى وهي أنه لو نشأت معه من حين يولد لاضرت بحلمة الثدي اذ لا عقل له يحرزه عن عضها فكانت الام تمنع من رضاعه ومن عيب أمرها الاتفاق والمواالات التي بينها وبين المعدة فانه يسلم اليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه الى اللسان فيعجنه ثم يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتضججه وتطبخه ثم يرسل اليها منه معلوما المقدر لها فاذا هجمت من قطع شيء وطحنه هجمت المعدة عن انضاجه وطبخه واذا اكلت الانسان كانت المعدة واذا ضعفت ضعفت وهي تصعب الانسان وتخدمه ما لم يرها فاذا وقعت عينه عليها فارقه الابد وهي صلاح ومنشار وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه

فصل ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه فان البدن لما كان حاراً رطبا والحرارة اذا علمت في الرطوبة فلا بد أن تثير بخارا وتلك البخارة تصاعد من عمق البدن الى سطحه ويتزايد

الانفصال من هناك فلا بد أن يحدث مساماً ومنافذ في ظاهر الجلد وتلك الابخرة اما أن تكون رطبة لطيفة فينبغي أن تنفصل من المسام ولا تحدث شيئاً واما أن تكون دخانية يابسة غليظة فالجلد حينئذ إما أن يكون في نهابة النعومة والتضارة كجلد الصبيان أو في غاية اليبس والقشف أو يكون معتدلاً فاذ ذلك لا يتولد فيه الشعر لان البخار اذا شق سطح الجلد وانفصل ما بالجلد في الحال الى اتصاله الاول بسبب كثرة رطوبته ونعومته مثله السمك اذا رفع رأسه من الماء انشقق له الماء فاذا عاد الى الماء عاد الماء الى اتصاله الاول وكذلك نشاهد الاشياء الرطبة كالنشاء مثلا اذا غلى فخرج البخار من موضع الغليان مادت الرطوبة الى الموضع الذي خرج منه ذلك البخار فسدته فان كان الجلد في غاية اليبس لم يتولد الشعر لان الجلد اليابس اذا انتقب بقيت تلك الثقب مفتوحة ليبس الجلد فيفرق أجزاء البخار ولا يجتمع بعضها الى بعض فان الجلد متوسط بين النعومة والكثافة فانه ينفخ فيه المسام بسبب تلك الابخرة ولا يعود يفسد بعد خروج البخار ولكن لانقى المسام شديدة الانفتاح حينئذ يبقى ذلك البخار الدخاني في تلك الثقب لا يزال يمدد بخار آخر يدفعه ولا فاولا الى خارج من غير ان ينقطع اصله فيبقى بعضه مراكوزا في الجلد منزله اصل النبات وبعضه يطلع الى خارج منزله منزلة مساقي النبات وكذلك هو الشعر فادته الشعر هو البخار الدخاني اليابس وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار والأكلة التي بها يتم امره هي المسام التي ارتكبت فيها البخار فتلبد هناك فصار شعرا باذن الله تعالى والغاية التي لاجلها وجد شيان احدهما طام وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة والاخر خاص وهو اما للزينة واما للوقاية واذا بان الشعر انما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة اقسام احدها حرارة غالبة على اليبس كالصبيان الثاني عكسه وهو ييبس غالب على الحرارة كالمشايخ الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف كأبدان النساء ففي هذه الاقسام يقل الشعر واما الشباب فان حرارة ابدانهم ويبسهم معتدل فيقوى تولد الشعر فيهم وفي شعر الرأس منافع ومصالح منها وقايتهم من الحر والبرد والمرض ومنها الزينة والحسن السبب الذي صار به شعر الرأس اكثر من شعر البدن ان البخار شأنه ان يصعد من جميع البدن الى الدماغ ومن الدماغ الى فوق وكان هذا الشعر ناميا على الدوام لان البخار يتصاعد الى الرأس ابدا وهو مادة الشعر فينبغي الشعر ينمو البخار وكان فيه تخلص للبدن من تلك المواد وكثير لو قاينه وغطائه

فصل في واما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين فيما ينحدر من الرأس وجعل هذا المقدار فلو نقص عنه لزال منفعة الجمال والوقاية ولوزاد عليه لغشى العين واضر بها وحال بينها وبين ما تدركه وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب ولما كان الانفع والاصلاح ان يكون شعر الهدب قائما منتصبا وان يكون باقيا على حال واحد في مقدار واحد جعل منبت هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد في طول الجفن ثلاثا بطول ونحو وهذا كما نشاهد النبات الذي ينبت في الارض الرخوة اللينة كيف بطول ويزداد والذي ينبت في الارض الصخرية الصلبة لا ينمو الاغوا يسيرا فكذلك الشعر الثابت في الاعضاء اللينة الرطبة فانه سريع النمو كشعر الرأس والعانة

فصل وأما شعر اللحية فبها منافع منها الزينة والوقار والهيئة ولهذا لا يرى هـ إلى الصبيان والنساء من الهيئة والوقار ما يرى هـ إلى ذوي العسى ومنه التمييز بين الرجال والنساء فإن قيل لو كان شعر اللحية زينة لكان النساء أولى به من الرجال لحاجتهم إلى الزينة وكان التمييز يحصل بخلو الرجال منه ولكان أهل الجنة أولى به وقد ثبت أنهم جرد مرد قيل الجواب أن النساء لما كن محل الاستمتاع والتقبيل كان الأحسن والأولى خلوهن عن العسى فإن محل الاستمتاع إذا خلا عن الشعر كان أتم ولهذا المعنى والله أعلم كان أهل الجنة مردا ليكمل استمتاع نسائهم بهم كما يكمل استمتاعهم بهم وأيضاً فإنه كشف لخاصة الوجه فإن الشعر يستتر ما تحته من البشرة إن يس بشرة المرأة والله أعلم بحكمته في خلقه

فصل وأما شعر العانة والأبط والأنف فمنفعته تنقية البدن عن الفضلة ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطاً وذاو فر وجسد ثقلوا وكسلاً وغماً ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ونف الأبط وكان حلق العانة أولى من تنفها أصلاً لأنه الشعر وتأذى صاحبها بفنفة وكان تنف الأبط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدة وتجله بالحلق فبجاءت الشريعة بالانف في هذا وهذا

فصل وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أخلاً للكافرين والجبهة والأخصصين من الشعر فإن الكافرين خلقا حاكين على المموسات فلو حصل الشعر فيهما لاخل بذلك وخلقاً للقبض والصاق اللحم على المقبوض أهون على جودته من التصاق الشعر به وأيضاً فإنهما آله الأخذ والعطاء والاكل ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة وأما الأخصصان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشى وأما في المشى كثيراً مما يعلق شعره مما على الأرض ويتعلق شعره بما عليها أيضاً هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية في الكافرين مانع من نفوذ الانبجزة فيها وأما الأخصصين فإن الانبجزة تصاعد إلى علو وكل ما تصاعد كان الشعر أكثر وأيضاً في كثرة وطء الأرض بالأخصصين يصلبها ويجعل سطحها أملس لا ينبت شيئاً كما أن الأرض التي توطأ كثيراً لا تنبت شيئاً وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها وأظلم الوجه وتدل على العين وكان يحتاج إلى حلقه دائماً ومنع العينين من كمال الإدراك والسبب المؤدى لذلك أن الذي تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ وهو بارد رطب والبحار لا ينحرك منفرطاً إلى الجبهة بل صاعداً إلى فوق فإن قيل لم نبت شعر الصبي على رأسه وحاجبيه واجفاته معه مع الصغر دون سائر الشهور قبل لشدة الحاجة إلى هذه الشهور الثلاثة أوجدها الله سبحانه وهو جنين في بطن أمه فإن شعر الرأس كالغطاء الواقى له من الآفات والأهداب والأجفان وقاية للعين فإن قيل فلم لم تنبت له اللحية الأبعد بلوغه قيل لأنه عند البلوغ يجتمع الحرارة في بدنه وتكون أقوى ما هي ولهذا يمرض له في مثل هذا الطور البثورات والدمل وكثرة الاحتلام وإذا كثرت الحرارة كثرت الانبجزة بسبب التحلل وزادت على القدر المحتاج إليه في شعر الرأس فصرفها أحكم الحساكين إلى نبات اللحية والعانة وأيضاً فإن بين أوعية المنى وبين اللحية ارتباط إذا العروق والمجاري متصلة بينهما فإذا تعطلت أوعية المنى وبست تعطل شعر اللحية وإذا قلت الرطوبة والحرارة هناك قل شعر اللحية ولهذا الأخصصان لا ينبت لهم لحى فإن قيل فما العلة في الكوسج قيل برد مزاجه

ونقصان حرارته فان قيل فما السبب في الصلغ قيل عدم احتباس الابخرة في موضع الصلغ
فان قيل فلم كان في مقدم الرأس دون جواتبه ومؤخره قيل لان الجزء المقدم من الرأس بسبب
رطوبة الدماغ يكون أكثر لياناً وتحللاً فتهلك الفضلات التي يكون منها الشعر فلا يبقى
لشعر مادة هناك فان قيل فلم يحدث في الاصداع قيل ان الرطوبة في الاصل أكثر منها في الاغالي
وشاهد الأرض العالية والمنخفضة فان قيل فلم تنصلع المرأة الا نادراً وكان الاصلع في الرجال
أكثر قيل لان الاصل يحدث من بليس في الجلد بمنزلة احتراقه وذلك لقوة الحرارة والنساء
قارطوبة والبرودة أغلب عليهن ولهذا جلودهن أرطب من جلود الرجال فلا تنجف جلود
رؤسهن فلا يعرض لهن الصلغ ولهذا لا يعرض للصبيان وان مرض للمرأة صلغ فذلك في سن
يسها وبلوغها من الكبر عتياً فان قيل فما السبب في شدة سواد الشعر قيل شدة البضارات
الخارجة من البدن واعتدالها وصحة مادة كخضرة الزرع فان قيل ما سبب الصهوبة قيل
برد المزاج فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده فان قيل ما سبب الشقرة والحجرة
قيل زيادة الحرارة فتصبغ الشعر ولهذا تجد الشعر أشد حرارة وأكبر حركة وهمية فان قيل
فما سبب البياض قيل البياض نوعان أحدهما طبيعي وهو الشيب والثاني خارج عن الطبيعة
وهو ما يوجد في أواخر الأمراض المحققة بسبب تحلل الرطوبات كما يعرض للنبات عند الجفاف
فان قيل فما سبب الطبيعي قيل اختلف في ذلك فقالت طائفة سببه الاستحالة الى اوان البانم
بسبب ضعف الحرارة في أبدان الشيخوخة وقالت طائفة سببه ان الغذاء الصائر الى الشعر
يصير بارداً بسبب نقصان الحرارة ويكون بطيئ الحركة مدة تعوده الى المسام واصطلحت
طائفة بين القولين وقالوا العلة في الأمرين واحدة وسببها نقصان الحرارة فان قيل فلم اختص
الشيب بالانسان من بين سائر الحيوان قيل لحم الانسان وجلده رخو لين وجلود الحيوانات
ولحومها أقوى وأصلب فلما غلظت مادة الشعر فيها لم يعرض له ما يعرض لشعر الانسان
ولهذا يكون شعرها كلها معها من حين ولادتها بخلاف الانسان وأيضاً فان الانسان يستعمل
المطامير المركبة المتنوعة وكذا المشارب ويتناول أكثر من حاجته فيجتمع فيه فضلات كثيرة
فتدفعها الطبيعة الى ظاهر البدن فادامت الحرارة قوية فأنها تقوى على احراق تلك الفضلات
فيتولد من احراقها الشعر الاسود فاذا بلغ الشيخوخة ضعفت الحرارة وهجرت عن احراق
تلك الفضلات فتعمل فيها عملاً ضعيفاً وأما سائر الحيوانات فلا تتناول الاغذية المركبة وتتناول
منها على قدر الحاجة فلا يشيب شعرها كما يشيب شعر الانسان وأيضاً فان في زمن الشيخوخة
يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة فيتولد والحيوانات فالبليس غالب عليها فان قيل فلم كان سبب
تشيب الاصداع في الأكثر مقدماً على غيره قيل لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ والرطوبة
في مقدم الدماغ كثيرة لان الموضع مفصل والمفصل يجمع فيه الفضلة الكثيرة فيكثر البرد
هناك فيمرع الشيب فان قيل فلم أسرع الشيب في شعور الخصيان والنساء فليبرد مزاجهن
في الاصل ولا يجمع الفضلات الكثيرة فيهن وأما الخصيان فلتوافر المنى على أبدانهم
يصير دهمهم غليظاً بلغمياً ولهذا لا يحدث لهم الصلغ فان قيل فلم كان شعر الاطباء يبيض
قبل لقوة حرارة هذا الموضع بسبب قربه من القلب ومنامه كثيرة بلغمية لانها تهلك

بالعرق الدائم فان قيل فلم أبطأ يباح شعرة العانة قيل لان حرصكة الجماع تحلل الباهم
الذى فى مسامه فان قيل فلم كانت الحيوانات تبدل شعورها كل سنة بخلاف الانسان
قيل لضعف شعورها عن الدوام والبقاء بخلاف شعر آدمى فان قيل لما سبب الجعودة
والسيولة قيل اما الجعودة من شدة الحرارة او من التواء المسام فالذى من شدة الحرارة فانه يعرض
منه الجعودة كما يعرض الشعر عند مرصه على النار واما الذى لالتواء المسام فلان البخر
يضعفه لا يقدر ان ينفذ على الاستقامة فيلتوى فى المنافذ فحدث الجعودة فان قيل فما السبب
فى طول شعرا الميت واطفاره بعد موته اذ ابقى مدة قيل عنه جوابان أحدهما أنها لا تطول ولكن
لما ينقص ما حولها يظن أنها زادت الثانى وهو اصوب أن ذلك الطول من الفضلات البخارية
التي تحلل وهلة من الميت فيتمدهمها الشعر والظفر فان قيل فلم كان المريض وخاصة المصوم
ينقص لحمه ويزيد شعره قيل ان فى المرض تكثر الفضلات فتكون الشعور والاطفار فيها
ويثقل الغذاء فيذوب اللحم واما فى الصحة فنقل الفضلات فلا تحتاج الطبيعة الى الغذاء وهضمها
واذا قلت الفضلات نفذت مادة الشعر فيبطئ فان قيل فالعلة فى انتصاب شعر الخائفاف
والقرون حتى يبقى كشعر القنفذ قيل العلة فيه أن الجلد ينقبض ويختصم المسام على الشعر
وتنضيق عليه فينتصب فان قيل فلم انتصب شعر البدن والحية والسمك ان قيل فلم كان
كثرة الجماع تزيد فى شعر الحية والجدو ينقص من شعر الرأس والاجفان قيل لان الشعر فيه
ما يكون طبيعيا من اول الخلقة كالحية وصار شعر البدن والاول يكون من قوة الحرارة الاصلية
والثانى من قوة الحرارة الخارجية فلا جرم نقصت بسببه الشعور الاصلية وقرت العرضية
فان قيل فلم كان الشعر فى الانسان فى الجزء المقدم اكثر منه فى المؤخر وباقي الحيوانات بالعكس
قيل لان الشعر انما يكون حيث تكون الحرارة قوية ويكون تحلل الجلد اكثر وهذا فى الانسان
فى ناحية الصدر والبطن واما جلدة الظهر فتكثف واما ذوات الاربع فى الخلف شعورها اكثر
لان البخر فيها يرقى الى الخلف وأن تلك المواضع هى التي تلتقى الحروا البرد فتحتاج الى وقاء اكثر
فان قيل فلم كان الرأس بالشعر احق الاعضاء وبنائه اكثر قيل لان البخر يتصاعد ويطلب جهة
الفوق وهو الرأس ولا تستطيل هذا الفصل فان امر الشعر من السمات والفضلات وهذا شأنه
فما الظن بغيره من الاجزاء الاصلية فاذا كانت هذه قليلة من كثير من حكمة الرب تعالى فى الشعور
ومواضعها ومنافعها فكيف يحكمته فى الرأس والقلب والكبد والصدر وغيرها ولا تضجر
من ذلك فان الخلق فيه من النعم والحكم نظير ما فى الامر فالرب تعالى حكيم فى خلقه وامره وبحب
من يفقه عنه عند ذلك ويستدل على كمال حكمته وعلمه ولطفه وتديره فاذا كان لم
يضع هذه الفضلات سدى فما الظن بغيرها

فصل في ونحن نذكر فصلا مختصرا فى حال الانسان فى مبدئه الى نهايته لنعلمه مرآة له
ينظر فيها قول خالقه وباريه وفى انفسكم أفلا تبصرون لما اقتضى كمال الرب تعالى جل جلاله
وقدرته التامة وعلمه المحيط ومشيئته النافذة وحكمته البالغة تنوع خلقه من المواد المتباينة
وانشأهم من الصور المختلفة والتباين العظيم بينهم فى المواد والصور والصفات والهيئات
والاشكال والطباع والقوى اقتضت حكمته أن اخذ من الارض قبضة من التراب ثم اتى عليها

الما فصارت مثل الجأ المسنون ثم ارسل عليها الريح فجففها حتى صارت صلصالا كالغبار
ثم قدر لها الاعضاء والمافذ والواصلات والرطوبات وصورها بأبداع في تصويرها واطهرها
في احسن الاشكال وفصلها احسن تفصيل مع اتصال اجزاءها وهياكل كل جزء منها لما يراد
منه وقدره لما خلق له على ابلغ الوجوه ففصلها في توصلها وابدع في تصويرها وتشكيلها
والملائكة تراها ولا تعرف ما يراد منها وابليس يطيف بها ويقول لامر ما خلقت فلما تكمل
تصويرها وتشكيلها وتقدير اعضائها وواصلاتها وصار جسدا مصورا مشكلا كأنه ينطق
الا انه لا روح فيه ولا حياة وارسل اليه روحه فنفخ فيه نفخة وانقلب ذلك الطين للجود وما وعظما
وعروا قواسمها وبصرها وشما ولها وحركة وكلاما فأول شيء بدأ به أن قال الحمد لله رب العالمين
فقال له خالقك وبارؤه ومصوره برحك الله يا آدم فاعتوى جاسا أجل شيء وأحسنه منظر وأتمه
خلقا وأبدعه صورة فقال الرب تعالى للجمع ملائكته اسجدوا لآدم فسجدوا والجنود
تعطيا وطاعة لامر الواحد العبود ثم قال لهم لنا في هذه القبضة في التراب شرع ابداع مما
ترون وجمال باطن أحسن مما تبصرون فلنزين بباطنه أحسن من زينة ظاهره ولجعلنا من
أعظم آياتنا نعله أسماء كل شيء مما لا تحصىه الملائكة فكان التعليم زينة الباطن وجماله
وذلك التصوير زينة الظاهر في أكل شيء وأجله صورة ومعنى كل ذلك صنعته تبارك
وتعالى في قبضة من تراب ثم اشتق منه صورة هسي مثله في الحسن والجمال ليسكن اليها
وتقر نفسه ولينرجح من بينهما من لا يخصصى عدده من الرجال والنساء سواء

فصل في ما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما في الأرض ويكثره وضع فيهما حرارة
الشهوة ونار الشوق والطلب ألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه فاجتمعا على أمر قد قدر
فسمع الآن عجائب ما هناك لما شاء الرب تعالى أن يخرج نطفة هذا الانسان منه أودع جسده
حرارة وصلط عليه هيجانها فصارت شهوة قابلية فإذا هاجت حرارة الجسد تحلت الرطوبات
من جميع اجزاء الجسد وابتدأت نازلة من خلف الدماغ في عروق خلف الاذنين الى قفا
الظهر ثم تخرج الى الكتبتين ثم تجتمع في أوعية المنى بعد أن طبختها نار الشهوة وعقدتها حتى
صار لها قوام وغلظ وقصرتها حتى ابيضت وقدر لها مجاري وطرق تنفذ فيها ثم اقتضت
حكمته سبحانه ان قدر بخروجها أقوى الاسباب المستغرفة لها من خارج ومن داخل
فقبض لها صورة حسنها في عين الناظر وشوقه اليها وماق أحدهما الى الآخر بساسة الشهوة
والهبة فحن كل منهما الى امتزاجه بصاحبه واختلاطه به ليتضى الله أمرا كان مفعولا وجعل
هذا محل الحرث وهذا محل البذر وقال أيضا والقدر ليشتمل كلا منه على صاحبه ليتلقى
الما آن هلي أمر قد قدر وقد بينهما تلك الحركات لتعمل الحرارة في تلك الرطوبة والفضلة
عملها واستخراجها من تحت الغمر والبشر والظفر لتوافق لنسختها الاصل ويكون الداعي
الى التماسك في غاية القوة فلا يقطع النسل ولهذا لا ينجد في منى الاحتمام من القوة ما في منى
الجماع وانما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة فتنفذ فيها الطبيعة الى خارج من نوع تصور
خيال بواطة الشيطان كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الرؤيا الصالحة
من الله والحلم من الشيطان فان قيل فهذا اختيار منكم لقول من قال ان المنى يخرج من

جميع اجزاء البدن وهذا وان كان قد قاله كثير من الناس فقد خالفهم آخرون وزعموا انه
 فضلة تولد من الطعام وهى من اعدل الفضلات ولهذا صلت ان تكون مبدأ الانسان
 وهو جسم متشابه الاجزاء فى نفسه قبل القول الاول هو الصواب وبديل عليه وجوه
 منها عموم اللذة بجميع اجزاء البدن ومنها مشاكلة اعضاء الموالود لاعضاء الوالدين
 ومنها المشابهة الكمية تدل على ان البدن كل ارسلى المني ولولا ذلك لكانت المشابهة
 بحسب محل واحد فدل ان كل عضو ارسلى قسطه ونصيبه فلما انعقد وصلب ظهرت محالته
 ومشابهته ومنها ان الامر لو كان كازعه اصحاب المقالة الثانية من ان المني جسم واحد
 متشابه فى نفسه لم تولد منه الاعضاء المختلفة المتشكلة بالاشكال المختلفة لان القوة الواحدة
 لاتفعل فى المادة الواحدة الا فعلا واحدا فدل على ان المادة فى نفسها ليست متشابهة الاجزاء
 ومنها ان المني فضل الهضم الاخر وذلك انما يكون عند نضج الدم فى العروق وصورته
 مستعدا استعدادا تاما لان بصير من جوهر الاعضاء وكذلك عقيب استفراغه من الضعف
 اكثر مما يحصل من استفراغ امثاله من الدم ولذلك يورث الضعف فى جوهر الاعضاء
 الاصلية فدل على انه مركب من اجزاء كل منهما قريب الاستعداد لان بصير جزء من عضو
 ولذلك سماه الله سلالة والسلالة فعالة من السل وهو ما يسيل من البدن كالبحار والبحارة كما
 سمي أصله سلالة من طين لانه استلهم من جميع الارض كما فى جامع الترمذى حديث عن النبي
 صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض قال اصحاب القول الآخر
 وهم جمهور اطباء وغيرهم لو كان الامر كازعهم وأن المني يستل من جميع الاعضاء لكان اذا
 حصل منى الذكرو منى الانثى فى الرحم تشكلا الموالود تشكلا معا ولكن الرجل لا يولد الا
 ذكر اذا لم يولد الا المني قد استل عندكم من جميع اجزائه فاذا انعقد وجب ان يكون مثله وايضا فان
 المرأة تضع من وطء الرجل فى البطن الواحد ذكر او انثى ولا يمكن ان يقال ان ذلك بسبب اخلاف
 اجزاء المني قالوا ولا نسلم عموم اللذة لانه انما حصلت حال الاندفاع بسبب سيلان تلك المادة
 الحارة جارية على تلك المجارى الحموية التى لحنها رخوة شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال
 اذا سال عليه وهى معتدل السخونة وكانت اللذة انما حصلت بسبب ساكن تلك المادة لحصلت
 قبل الاندفاع قالوا وما احتجنا بكم بالمشابهة المذكورين الوالد والموالود فالمشابهة قد يقع الظفر
 والشعر ولبس يخرج منهما شئ وايضا فالوالود قد يشبه جدا بعيدا من اجداده كائنت بالصحيح
 عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا سأل الله فقال ان امرأتى ولدت غلاما أسود قال هل لك من
 ابل قال نعم قال فإلوانها قال سود قال هل فيها من أورك قال نعم قال فإنى له ذك قال عسى ان يكون
 نزع عرق قال وهذا عسى ان يكون نزع عرق قالوا ولو كان فى المني من كل عضو اجزاء فلا
 تخلو تلك الاجزاء اما ان تكون موضوعة فى المني وضعها الواجب أو لا تكون كذلك فان
 كانت موضوعة وضعها الواجب كان المني حيوانا صغيرا ولم يكن كذلك استهالة المشابهة
 قالوا أيضا فان المني امان يكون مركبا على تركيب هذه الاعضاء وترتيبها أولا يكون كذلك
 فالاول باطل قطعاً لان المني رطوبة سيالة لا تحفظ الموضع والترتيب وان كانت قابلة لتعيين
 الشئ ولا بد قطعاً ان يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل على سبب آخر سوى القوة

التي في المسادة فانه اقوة سبطة لاشعور لها ولا ادراك ولا تهدي هذه التفاصيل التي في الصورة
الانسانية بل هذا التصوير والتشكيل الى خالق عليم حكيم قد بهرت حكمته العقول ودات
آثار صنعته كما اسماء وصفاته وتوحيده قد اعترف بذلك فاضلا الاطباء وهما بقراط وافلاطونا
واقرابان ذلك مستند الى حكمة الصانع وعنايته وأنه لم يصدر الا عن حكيم عليم قد يذكره
جالينوس عنهما في كتاب رأى بقراط وافلاطون فأبى جهلة الاطباء وزنادقة المتفلسفة
والطباة ثعابين الا كفورا وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث خليفة
ابن اسيدان الله وكل بالرحم ملكة يقول يارب نطفة يارب حلقة يارب مضغة فما الرزق فما الاجل
فما العمل فيقضى الله ما يشاء ويكتب الملك وفي لفظ يقول الملك الذي يخلقها اى بصورها
باذن الله اى بصور خلقه في الارحام كيف شاء الله لاله الا هو العزيز الحكيم فقال اصحاب
القول الاول نحن احق بالثبوت والتوحيد ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه واهله
به منكم ومن احوال من سفهانا وزنادقةنا هذا الخلق على القوة المصورة والاسباب الطبيعية
ولم يسندوا الى فاعل مختار عالم بكل شئ قادر على كل شئ لا يكون شئ الا باذنه ومشيئته
والقوة والطبيعة خلق مخبر من خلقه وعبد من جلة عبيده ليس لها تصرف ولا حركة ولا
فعل الا باذن بارئها وخالقها فذلك الذي جهل نفسه وربّه ومادى الطبيعة والشرعية والرب
تعالى بخلق ما يشاء ويختار وبصور خلقه في الارحام كيف يشاء بأسباب قدرها
وحكمكم دبرها واذا شاء ان يسلب تلك الاسباب قواها سلبها واذا شاء ان يقطع سببها
قطعها واذا شاء ان يهيئ لها ما يبا آخر تقاومها وتعارضها فعل فانه الفاعل لما يريد
وليس في كونه المني مستل من جميع اجزاء البدن ما يخرج الحوالة على قدرته ومشيئته
وحكمته بل ذلك ابلغ في الحكمة والقدره وأما قولكم لو كان المني مستل من جميع
الاعضاء لكان الولد يتشكل بشكلها معا فقد اجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن سألته
عن ذلك بما شفى وكفى في صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال بلغ عبد الله بن
سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو في ارض يخترق فأنه وقال انى
سائلك عن ثلاث لا يعلمن الا انى ما أول اشراط الساعة وما أول طعام يأكله اهل الجنة ومن
أى شئ ينزع الولد الى ابيه ومن أى شئ ينزع الى اخواله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أخبرنى بهن أنا جبريل فقال عبد الله ذلك عدوا ليهود من الملائكة أما اشراط الساعة
فانار تحترق الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله اهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما
الشبه في الولد فان الرجل اذا غشي المرأة فسبق ماؤه كان الشبه لها فقال أشهد انك رسول الله فهذا
جواب جبريل أمين رب العالمين لاجبيل الطبيب وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان عن
النبي صلى الله عليه وسلم اذا علاماء الرجل ماء المرأة اذكر باذن الله واذا علاماء المرأة ماء
الرجل انت باذن الله وقد يتفق المآل في الاثر والقدرة وذلك من انذار الاشياء فيخلق للولد
ذكر كذا الرجل وفرج كذا المرأة فاذا شاء الله ان يغلب سلاله ماء الرجل على ماء المرأة
او سلالته على سلالته أمر ملك الارحام بتصويره كذلك فان ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق
قاعدة ولا يخرقها لم يخل بحكمة احكم الحاكمين واما منعكم عوم القذة فشبهه بالكبرة والجسامع

يوجد عند الانزال شيئاً قاصداً من جميع بدنه وسمعه وبصره وقواه في قالب الرحم فبعض كإنه
 خلع قبص كإنه مشتمل به ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى في شرعه وقدره أن أمره
 بالاعتسال عقيب ذلك ليخلف عليه الماء ما تحل من بدنه من ماء وإذا اغتسل وجد نشأ طاماً وقوة
 وكأنه لم ينقص منه شيء فان رطوبة الماء تخلف على البدن ما حالته تلك الحركة من رطوبته
 وتعمل فيها الحرارة الأصلية عملها فتزدها القوى التي ضعفت بالانزال وأما التشابه الواقع بين
 الظفر والشعر في الولد والمولود ولم ينفصل بينهما شيء فإبردها من شبهه فان الظفر والشعر
 تابعان للأعضاء والمزاج الذي وقع فيه التشابه فامتدح تشابه الأصل تشابه النبت وأما شبه
 المولود بالجد البعيد من أجداده فهو من أقوى الأدلة لنسب في المسئلة لان ذلك الشبه البعيد
 لم يزل ينقل في الأصلاب حتى استقر في صورة الولد وبها حصل الشبه وأما قولكم ان تلك
 الاجزاء لا تخلو اما ان تكون موضوعة في المنى وضعها الواجب أو لا إلى آخره فمجاوبكم انكم
 ان عيتم انها موضوعة بالفعل فليس كذلك وان أردتم انها موضوعة بالقوة فتم وما المانع منه
 ويكون المنى حيواناً صغيراً بل كبيراً بالقوة وبهذا ظهر الجواب عن قولكم ان المنى رطوبته
 مسالة لا تخفى الموضع والترتيب وخاصة ما يقدر ان ذلك جزء من اجزاء السبب الذي يخلف
 الله به الولد وجزء السبب لا يستقل بالحكم فالمستقل بالابحاد مشيئة الله وخده والاسباب
 ففعال الظهور أقر الشبه

فصل في ما قيل فهذا نصريح منكم بأن المرأة لها منى وان منها احد الجزئين الذين
 يخلف الله منها الولد وقد ظن طائفة من الأطباء ان المرأة لا منى لها قيل هذا هو السؤال الذي
 أوردته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأم سلمة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه
 وسلم وأجابهما عنه بإثبات منى المرأة في الصحيح ان أم سلمة رضي الله عنهما قالت يا رسول الله
 ان الله لا ينسى من الحق هل على المرأة من غسل اذا هي احتلمت قال نعم اذا رأت الماء فقالت
 أم سلمة أو تحتلم المرأة فقال تربت بدني بمشبهها ولدها وفيهما من عائشة رضي الله عنهما ان أم سلمة
 رضي الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل هل عليها
 من غسل قال نعم اذا رأت الماء قالت فقلت لهما ان ترى المرأة ذلك يقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وهل يكون الشبه الا من ذلك اذا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخوه والله اذا ماها ماء
 الرجل ماها أشبه اعمامه لفظ مسلم وقد ذكر جالينوس التشنيع على ارسطو ليس حيث قال
 ان المرأة لا منى لها فلهذا هذه المسئلة طبعاً كما حررت شرعاً فنقول منى الذكر من جملة
 الرطوبات والفضلات التي في البدن وهذا أمر يشترك بين الذكر والانثى (١) ورأى الله تعالى خلق
 الولد وبواسطته يكون الشبه ولو لم يكن للمرأة منى لما أشبهها ولدها ولا يقال ان الشبه سبب
 دم الطمث فانه لا يعتقد مع منى الرجل ولا ينجبه قد أجرى الله العادة بأن النول لا يكون
 الا بين أصليين يتولد من بينهما ثالث ومنى الرجل وحده لا يتولد منه الولد مالم ياجزه مادة
 أخرى من الانثى وقد اختلفت آراء القائلين بالآخر بذلك وقالوا لا بد من وجود مادة
 بيضاء لزجة للمرأة تصير مادة لبدن الجنين ولكن نازعوا هل فيها قوة حادثة كافي منى الرجل
 وقد أدخل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسئلة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث

(١) هكذا بالأصل
 غير ظاهر فليصرا

ثوبان مولاه حيث سأله اليهود عن الولد فقال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فاذا اجتمعا
 فعلا منى الرجل منى المرأة اذ كبر باذن الله واذا اهلا منى المرأة منى الرجل أنت باذن الله نعم لنى
 الرجل خاصة القلظ والبياض والخروج بدفق ودفع فان أراد من نفى منى المرأة انتفاه ذلك
 عنها أصاب ومنى المرأة خاصته الرقة والصفرة والسيلان بغير دفع فان نفى ذلك عنها خطأ
 وفي كل من المائتين قوة فاذا انضم أحدهما الى الآخر اكتسبا قوة ثالثة وهى من اسباب
 تكون الجنين واتخذت حكمة الخلاق العليم سبحانه أن جعل داخل الرحم خشنا كالسفننج
 وجعل فيه طلبا للمنى وقبوله كطلب الارض الشديدة العطش للماء وقبوله الله فجعله
 طالبا حافظا مشتاقا اليه بالعطش فلذلك اذا طفر به أمه ولم يضعه بل يشتمل عليه أتم الاشتمال
 وينضم أعظم انضمام كالتلاصق الهوى فيتولى القوة والحرارة التى هناك باذن الله الملك الرحم
 اذا اشتمل على المنى ولم يقذف فيه الى خارج استدار المنى على نفسه وصار كالكرة وأخذ في الشدة
 الى تمام ستة أيام فاذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط وهو موضع القلب ونقطة في أعلاه وهى نقطة
 الدماغ واليمين وهى نقطة الكبد ثم تنباعد تلك النقط ويظهر بينهما خطوط جرد الى عام ثلاثة
 أيام آخر ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام آخر فيصير ذلك خمسة عشر يوما ويصير المجموع
 سبعة وعشرين يوما ثم يفصل الرأس عن المنكبين والاطراف عن الضلوع والبطن عن الجنين
 وذلك في تسعة أيام فتصير ستة وثلاثين يوما ثم ينم هذا التمدد بحيث يظهر للحس ظهره ورا
 ينا في تمام اربعة أيام فيصير المجموع أربعين يوما بمجمع خلقه وهذا مطابق لقول النبي صلى الله
 عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته ان احداكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوما واكتفى
 النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاحتمال عن التفصيل وهذا يقتضى الدم قد جمع فيها خلقه اجماعا خفيا
 وذلك الخلق في ظهور خفى على التدريج ثم يكون مضغة اربعين يوما أخرى وذلك التخليق
 يتزايد شيئا فشيئا الى ان يظهر للحس ظهوره والاعفاه به كله والروح لم يتعلق به بعد فانها انما تتعلق
 به في الاربعين الرابعة بعد مائة وعشرين كما اخبر به الصادق وذلك الى اسبيل الى معرفته
 الا بالوحى اذ ليس في الطبيعة مائة مضغة فلذلك حار فضلاء الاطباء واذا كياه الفلاسفة في ذلك
 وقالوا ان هذا الى اسبيل الى معرفته الا بحسب الظن البعيد قال وقف على نهايات كلامهم في ذلك
 وآداب فيه حتى كل وهو صاحب الطب الكبير فذكر مناسبات خيالية ثم قال وحقيقة
 العلم فيه عند الله تعالى لا مطمع لاحد من الخلق الوقوف عليه قلت قد أوقفنا عليه الصادق
 المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى بما ثبت في الصحيحين ان خلقى أحدكم يجمع في بطن امه اربعين
 يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يعث اليه الملك فينفخ فيه الروح
 ويؤمر بأربع يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد

فصل ورأيت لبعض الاطباء كلاما ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة فأذكره
 واذكر ما فيه قال اذا تم خلق الجنين مدة معينة فأنتها اذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين فاذا
 انضاف الى المجموع مثله انفصل الجنين قال فاذا تم خلقه في ثلاثين يوما فاذا صار له ستة وثلاثين
 يوما تحرك فاذا انضاف الى الستين مثله صارت مائة وعشرين يوما وهى ستة اشهر وهى مدة
 انفصل لها الحمل واذا تم خلقه في خمسة وثلاثين يوما تحرك لسبعين وانفصل لسبعة اشهر واذا

ثم خلفه لاربعة فحرك ثمانين وانفصل لثمانية اشهر واذا تم خمسة واربعين فحرك لتسعين
وانفصل لتسعة اشهر وعلى هذا الحساب أبدا وهذا الذي ذكره هذا القائل يقتضى حركة
الجنين قبل الاربعين وهذا خطأ قطعاً فان الروح لما تعلق به بعد الاربعين الثالثة وحينئذ
يفتح فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يوماً ومائة در من حركة قبل ذلك فليست
حركة ذاتية اختيارية بل لها حركة ماضية بسبب الاغشية والرطوبات وما ذكره من
الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة فربما زاد على ذلك أو نقص منه ولكن الذى
نقطع به ان الروح لا تعلق به الا بعد الاربعين الثالث ومائة در من حركة قبل ذلك
ان صحت لم تكن بسبب الروح والله اعلم

فصل وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة اشهر قال
نعمانى وحله ونصاه ثلاثون شهراً وقال تعالى والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين
لمن أراد أن يتم الرضاعة وقال جالينوس كنت شديد القميص عن مقادير أزمان الحمل فرأيت
امراً واحدة ولدت في مائة واربع وثمانين ليلة وزعم صاحب الشفاء أنه شاهد ذلك وأما
أكثره فقال في الشفاء بلفظ من حيث وثقت أن امرأة وضعت بعد الرابع من رأس
الحمل ولدا قد نبث انسانه وحاش

فصل فان قيل فاسبب الاذكار والابنات قبل الذى نختاره أنه يبيد مشيئة الرب
الفاعل باختياريه وليس بسبب طبيعى وكل ما ذكر أصحاب الطبائع من الاسباب فمتنقض مثل
حرارة الرجل ورطوبته قالوا فساد المزاج أيضا يوجب ابلاذ الاناث واستقامته يوجب
الاذكار وهذا غلط وهذان فليس لاذكار والابنات الا قول الله لملك الارحام وقد
استأذن يارب ذكر يارب انى يارب شق أم سعيد فانه الرزق في الاجل والاذكار والابنات
قرب السعادة والشقاوة والرزق والاجل فان قيل ذلك أيضا بأسباب قلنا نعم ولكن بأسباب
بعد الولادة ولا سبب للاذكار والابنات قبل الولادة فان قيل فاصنعون بحديث ثوبان
الذى رواه مسلم في صحيحه أن يهوديا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الولد فقال ما
الرجل ايضاً وما المرأة اصفر فاذا اجتمع افلا منى الرجل منى المرأة اذكر باذن الله واذا هلا
منى المرأة منى الرجل أنت باذن الله فقال اليهودى صدقت وأنت لنبى قبل هذا الحديث تفرد
به مسلم في صحيحه وقد تكلم فيه بعضهم وقال الظاهر ان الحديث وهم فيه بعض الرواة واذا
كان السؤال عن الشبه وهو الذى سأل به عبد الله بن سلام في الحديث المنفق على حصته
فأجاب به سبب الماء فان الشبه يكون للسابق فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد
بالمرأة بكونه أنثى وشبهه بالولد لكونه لاسيما والشبه التام انما هو بذلك وقالت طائفة الحديث
صحيح لا مطعن في سنده ولا منافية بينه وبين حديث عبد الله بن سلام وليست الواقعة
واحدة بل هما قضيتان ورواية كل منهما غير رواية الاخرى وفي حديث ثوبان قصته
ضبطت وحفظت قال ثوبان كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء جبر من
احبار اليهود فقال السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لى لم تدفعنى فقلت
الاتقوا يا رسول الله فقال اليهودى انما تدعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ان اسمي محمد الذي سماني به اهل فقال اليهودي جئت اسألك فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أينفعك شيء ان حدثتك قال اسمع بأذني فنكت رسول الله صلى
 الله عليه وسلم بعورده فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض
 والسموات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم في الظلمة دون الجمر قال فمن اول الناس
 اجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودي فما نجتهم حتى يدخلوا الجنة قال زيادة كبد
 الحوت قال فخذواهم على اترها قال يضرهم ثور الجنة الذي يأكل من اطرافها قال فما شرابهم
 عليه قال من عين فيها نعيم سلسبيل قال صدقت قال وجئت اسألك من شيء لا يعلمه احد الا
 نبي أو رجل اورجلان قال أينفعك ان حدثتك قال اسمع بأذني قال جئت اسألك من الولد قال
 ماء الرجل ابيض وماء المرأة اصفر فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة ذكر باذن الله واذا
 علما مني المرأة مني الرجل انت باذن الله قال اليهودي لقد صدقت وانك لبي ثم انصرف فذهب فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سألتني هذا الذي سألتني عنه ومالي علم به حتى أتاني به الله واما
 حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال بلغ
 عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فقال اني سألتك عن ثلاث
 لا يعلمن الا نبي ما اول اشراط الساعة وما اول طعام يأكله اهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد
 الى ابيه ومن أي شيء ينزع الى اخواله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرني آتفا
 جبريل فقال عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة فقال اما اول اشراط الساعة فانه نحر
 الناس من المشرق الى المغرب واما اول طعام يأكله اهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الشبه
 في الولد فان الرجل اذا قضى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له واذا سبقت كان الشبه لها قال اشهد
 أنك رسول الله وذكر الحديث فتضمن الحديثان امرين ترتب عليهما الاثران معا واما ما انفرد
 ترتب عليه اثره فاذا سبق ماء الرجل وعلا ذكره وكان الشبه له وان سبق ماء المرأة وعلا انت
 وكان الشبه لها وان سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل اذ كروا كان الشبه لها ومع هذا كله فهذا
 جزء سبب ليس بموجب والسبب الموجب مشيئة الله قال فقد بسبب شبه السبب وقد ترتب على
 ضده مقتضاه ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته كما لا يكون تعبير القدرة وقد اشار في الحديث الى
 هذا بقوله اذكروا انت باذن الله وقد قال تعالى لله ملك السموات والارض يخفى ما يشاء به لمن
 يشاء انا وبه لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا نانا وانا وبه لمن يشاء عتقا انه علم
 قدبر فأخبر سبحانه ان ذلك طائد الى مشيئته وأنه قد بهب الذكور فقط والاناث فقط وقد
 يجمع لوالدين بين النوعين معا وقد يخلفها عنهما معا وان ذلك كما هو راجع الى مشيئته فهو متعلق
 بعلمه وقدرته وقد وهب الله آدم الذكور والاناث وامر ايل الذكور دون الاناث ومحمد الاناث
 دون الذكور سوى ولده ابراهيم (٢) وقال سليمان عليه السلام لا طوفن اليلة على سبعين امرأة
 تأتي كل امرأة منهم يغلام يقاتل في سبيل الله تطاف عليهن فلم تلمنهن الا امرأة واحدة جاءت بشق
 ولد قال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا
 اجعون فذل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام وكان له مدخل في السببية وان السبب التام

لعله سوى فيه الذكور
 سا القاسم وعبد الله
 طيب و ابراهيم

مشيئة الله وحده فهو رب الاسباب المتصرف فيها كيف شاء باعطائها السببية اذا شاء ومنعها ايها اذا شاء وترتيب ضد مقتضاها عليها اذا شاء والاسباب هي بحسب اري الشرح والقدر فعليه ما يجري امر الله الكوني والدني فان قيل فقد ظهر ان الولد مخلوق من الدئين جبهه فهل يخلق منها على حد سواء أم يكون بعض الولد من ماء الاب وبعضه من ماء الام قيل قد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسئلة وأوضح البيان فقال الامام اجد في مسنده حدثنا حسين بن الحسن حدثنا ابو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابيه عن عبد الله قال مر بهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث اصحابه فقالت قريش يا هودي ان هذا يزعم انه نبي فقال لا سألته عن شيء لا يعلمه الا نبي فجهه حتى جلس ثم قال يا محمد يخلق الانسان فقال من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم فقال اليهودي فقال هكذا يقول من قبلك

فصل في ما قيل قد ذكرتم ان تعالى الروح بالجنين انما يكون بعد الاربعين الثالثة وان خلق الجنين يجمع في بطن امه اربعين يوما ثم يكون علة مثل ذلك ثم يكون مضفة مثل ذلك ويتم ان كلام الاطباء لا ينقض ما خرج به الوحي من ذلك فأتصنعون بحديث حذيفة بن اسيد الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخل الملك في النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول أي رب أشقي أم سعيد فيكتبان فيه ما يرب ذكر أو أنثى فيكتبان ويكتب عم له وأثره وأجله ورزقه ثم الصحفة فلا يزداد فيها ولا ينقص قبل ثلثة ايام بالقبول والتصديق وترك الخريف ولا ينفى ما ذكرناه اذ غاية ما فيه ان التقدير وقع بعد الاربعين الاولى وحديث ابن مسعود وبديل على انه وقع بعد الاربعين الثالثة وكلامهما حتى قاله هذا تقدير بعد تقدير فالاول تقدير عند انتقال النطفة الى اول اطوار الخلق التي هي اول مراتب الانسان وما قبل ذلك فلم يتعلق بها الخلق والتقدير الثاني تقدير عند كمال خلقه ونفخ الروح فذلك تقدير عند اول خلقه وتصوره وهذا هو تقدير عند تمام خلقه وتصوره وهذا احسن من جواب من قال ان المراد بهذه الاربعين التي في حديث حذيفة الاربعين الثالثة وهذا بعيد جدا من لفظ الحديث ولنظنه بأباه كل الاباء فتأمله فان قيل فأتصنعون بحديثه الآخر الذي في صحيح مسلم عن عامر بن واثلة انه سمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول الشقي من شقي في بطن امه والسعيد من وعظ بغيره فأنتي رجلا من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال له حذيفة بن اسيد الغفاري فعدته بذلك من قول ابن مسعود فقال وكيف يشقي رجل بغير عمل فقال له الرجل اتعجب من ذلك فأنتي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق معها وبصرها وجلد لها ولحمها وعظها ثم قال يارب اذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك بالصحفة في يده فلا يزيد على امره ولا ينقص وفي لفظ آخر في الصحيح ايضا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ياذن هاتين يقول ان النطفة تقع في الرحم اربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك الذي يخلقها فيقول يارب اذكر أم أنثى اسوي ام غير سوى فعمله

الله سوا غيره سوى ثم يقول يا رب مارزقه وما اجله وما خلقه ثم يجعله الله عز وجل شقيا او سعيدا
وفي لفظ آخر في الصحيح ايضا ان ملكا موكلا بالرحم اذا اراد الله ان يخلق شيئا باذن الله ليضع
واربعين ليلة ثم ذكر نحوه قبل تلقاء ايضا بالتصديق والقبول وترك التحريف وهذا وافق ما جع
عليه الاطباء ان مبدء التخليق والتصوير بعد الاربعين فان قيل فكيف التوفيق بين هذا وبين
حديث ابن مسعود وهو صريح في ان النطفة اربعين يوما نطفة ثم اربعين حلقة ثم اربعين مضغة
ومعلوم ان الحلقة والمضغة لا صورة فيها ولا جلد ولا لحم ولا عظم وليس بنا حاجة الى التوفيق
بين حديثه هذا وبين قول الاطباء فان قول النبي صلى الله عليه وسلم معصوم وقوله مرضة الخطأ
ولكن الحاجة الى التوفيق بين حديثه وحديث حذيفة المتقدم قيل لاتنا في بين الحديثين
بحمد الله وكلاهما خارج من مشكاة صادقة معصومة وقد ظن طائفة ان التصوير في حديث
حذيفة انما هو بعد الاربعين الثالثة قالوا واكثر ما فيه التعقيب بالفاء وتعقيب كل شيء بحسبه
وقد قال تعالى ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة بل قد قال تعالى فخلقنا
النطفة حلقة فخلقنا الحلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما وهذا تعقيب
بموجب ما يصلح له المحل ولا يلزم ان يكون الثاني عقيب الاول وتعقيب اتصال وظن طائفة
أخرى ان التصوير والتخليق الذي في حديث حذيفة وهو في التقدير والعلم والذي في حديث
ابن مسعود وهو في الوجود الخارجي والصواب يدل على الحد ما دل عليه الحديث من
ان ذلك في الاربعين الثانية ولكن هنا تصوير ان أحدهما تصوير خفي لا يظهر المسر وهو تصوير
تقديري كما في تصوير من تفصل الثواب أو تجز الباب مواضع القطع والتفصيل فيعلم عليها
ويضع مواضع الفصل والوصل وكذلك كل من يضع صورة في مادة لاسماء بل هذه الصورة
ينشأ فيها التصوير والتخليق على التدرج شيئا بعد شيء لاوهلة واحدة كما يشاهد بالعيان في
تخليق الظاهر في البيضة فهنا أربع مراتب أحدها تصوير وتخليق على لم يخرج الى الخارج
الثانية مبدء تصوير خفي يعجز الحس عن ادراكه الثالثة تصوير يتأله الحس ولكنه لم يتم
بعد الرابعة تمام التصوير الذي ليس بعده الاتفخ الروح فالمرتبة الاولى علمية والثلاث الاخر
خارجية عينية وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير فالرب تعالى قدر
مقادير الخلق تقديرا ما قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وهنا كتب
السعادة والشقاوة والاعمال والارزاق والآجال الثاني تقدير بعد هذا وهو اخص منه
وهو التقدير الواقع عند القبضين حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بينهم وقال هؤلاء
للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون وقبض أهل الشقاوة باليد الاخرى وقال هؤلاء للنار ويعمل
أهل النار يعملون الثالث تقدير بعد هذا وهو اخص منه عند ما يضي به في حديث حذيفة بن
اسيد المذكور الرابع تقدير آخر بعد هذا وهو عند ما يتم خلقه وينفخ فيه الروح كما صرح به
الذي قبله وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى واحاطته بالكلييات والجزئيات وكذلك
التصوير الثاني مطابق للتصوير العملي والثالث مطابق للثاني والرابع مطابق للثالث وهذا
مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى ومطابقة مقدور المعلومه فتبارك الله رب العالمين وأحسن
الخالقين ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ثم كتابة ما يكون من العام الى العام

في ليلة القدر وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لما قبلها وتنوع وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصدق بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا ويطابق الواقع في الوجود ولا يخالفه وانما يخبر بما لا يستقل الحس والعقل بادراكه لا بما يخالف الحس والعقل وانما يعرفه الناس ويستقلون بادراكه على امر عيني يتعلق به الايمان او على حكم شرعي يتعلق به التكليف والله اعلم

فصل في ما قيل ان كل عضو يتغذى من قبل سائر الاعضاء قيل اختلف في ذلك على اربعة اقوال أحدها انه القلب وهو قول الاكثرين والثاني انه الدماغ والعينان وهو قول بقراط والثالث الكبد وهو قول محمد بن زكريا والرابع انه المصرة وهو قول جماعة من الأطباء قال أصحاب القلب لا شك ان في المنى قوة روحية بسبب تلك القوة بعد ان يكون انسانا وحاجته الى الروح الذي هو مادة القوى أشد فلا بد ان يكون لذلك الروح فجمع خاص منه ينبعث الى سائر الاعضاء فالجواهر الروحى أول شئ ينهر من المنى ويجمع في موضع واحد ويحيط به ما يتصل اليه ذلك الجواهر الروحى من جميع الجوانب فيجب أن يكون مجتمعا هو الوسط وسائر الاجزاء يحيط به وذلك الكبد هو القلب قالوا ولان تمام البدن موقوف على الحرارة الغريزية الذي بها البدن لا بد أن يتقدم على العضو الذي يمنع القوة الغاذية التي بها يغنو وهو الكبد قالوا لان فعال القوى انما تتم بالروح وهي لا بد لها من متعلق يتعلق به ولا بد ان يتقدم متعلقها عليها وهو القلب قالوا وهذا هو الاثني وبالحكمة الرب تعالى فان القلب ملك والاعضاء جنود له وخدمه فاذا صلح القلب صلحت جنوده واذا فسد فسدت وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الى ما يرشد الى ذلك فقال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب فاولى بهذه المضغة ان تكون مقدمة في وجودها على سائر الاعضاء وسائر اجزاها تبع لها في الوجود كما هي تبع لها في الصلاح والفساد قالوا وقد شاهد اصحاب التشريح في المنى عند انعقاد نطفة في وسطه قال اصحاب الدماغ شاهدنا الفراخ في البيض أول ما يتكون منها رأسها وسنة الله في بروز الجنين أول ما يبدو منه الى الوجود رأسه قال اصحاب الكبد لما كان المنى محتاجا الى قوة غاذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن ان تكون الاعضاء فيه كان أول الاعضاء واسبقها اليه وهو محل القوة الغاذية وهو الكبد قال اصحاب المصرة حاجة الجنين الى جذب الغذاء أشد من حاجته الى الاقوات وادراكه ومن المصرة يجذب الغذاء واولى هذه الاقوال القول الاول وهو بيت القلب ومنزلته وشرفه ومحل الذي وضعه الله به فيتنضى أنه المبدوء به قبل سائر الاعضاء المقدم عليها بالوجود والله اعلم

فصل في ما قيل ان الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة واحساس ام لا قيل كان فيه حركة التهو والاختذاء كالنبات ولم يكن له حركة غموة واختذاء والارادة فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسبه وارادته الى حركة غموة واختذاءه فان قيل قد ثبت ان الولد يتخلق من ماء الابوين فهل يتمازجان ويختلطان حتى يصيرا ماء واحدا او يكون أحدهما هو المسادة والاخر بمنزلة الانفة التي تفسده قيل هو موضع اختلف فيه ارباب الطبيعة فقالت طائفة منهم مني الاب لا يكون جزءا من الجنين وانما هو مادة الروح السارى في الاعضاء واجزاء البدن كلها مني الالم ومنهم من قال بل هو ينفع من

منى الاثنى ثم يفتحل ويفسد قالوا ولهذا كان الولد جزءاً من أمه ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته
له. في الحرية والرق قالوا ولهذا لو ترى فعل رجل علة جرة آخر فأولدها قالوا لئلا ذلك
الام دون مالك الفحل لانه تكون من اجزائها واحشائها ولحمها ودمها وماء الاب بمنزلة الماء
الذى يسقى الارض قالوا والحس يشهد ان الاجزاء الذى فى المواد من أمه اضعاف اضعاف
الاجزاء الذى فيه من أبيه مثبت ان تكوينه من منى الام ودم الطمث ومنى الاب حاقه له
كالاخصه ونازعهم الجمهور وقالوا انه يتكون من منى الرجل والاثنى ثم لهم قولان
أحدهما ان يكون من منى الذكر اهضوه واجزؤه ومن منى الاثنى صورته والثانى ان
الاهضاء والاجزاء والصورة تكونت من مجموع المائتين وانهما امتزجا واختلطتا وصارا
ماء واحداً وهذا هو الصواب لاننا نجد الصورة والتشكيل نارة الى الاب ونارة الى الام
والله أعلم وقد دل على هذا قوله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى والاصل
هو الذكر فنه البذر ومنه السقى والاثنى وماء مستودع اولده تربيته فى بطنها كما تربيته فى
جرحها ولهذا كان الولد للاب حكماً ونسباً وما تبعته الام فى الحرية والرق فلانه انما يتكون
وصار ولداً فى بطنها وعذته لى انهما مع الجزء الذى فيه منها وكان الاب أحق بنسبه وتخصيه
لانه أصله ومادته ونمخته وكان اشرفهما ديناً أولى به تغليباً لدين الله وشرعه فان قيل
فهلا طردتم هذا قلتم لو سقط بذر رجل فى ارض آخر ويكون الررع لصاحب الارض دون
مالك البذر قبل الفرق بينهما ان البذر مال متقوم فى ارض آخر فهو مال الكه وعليه اجرة
الارض أو هو بينهما بخلاف المنى فانه ليس بماله ولهذا نهى الشارع عن المعاوضة وانفق
الفقهاء على ان الفحل لو تزاعل ومكة اكان الولد لصاحب الرمكة

فصل في ان قيل فهل يتكون الجنين من مائتين وواثنين قبل هذه مسألة شرعية
كونية والشرع فيها تابع للتكوين وقد اختلف فيها شرعاً وقد اختلفت ذلك طائفة واتبه
كل الاباء وقالت الماء اذا استقر فى الرحم اشتمل عليه وانضم غايبة الانضمام بحيث لا يبقى فيه
مقدار رسم رأس ابرة والافسد فلا يمكن افتتاحه بعد ذلك ماء ثان لامن الواطئ ولا من غيره
قالوا بهذا اجرى الله العادة ان الولد لا يكون الا للاب واحد كما لا يتكون الام الا واحدة وهذا هو
مذهب الشافعى وقالت طائفة بل يخلق من ماء فأكثر قالوا وانضمام الرحم واشتماله على الماء
لا يمنع قبوله الماء الثانى فان الرحم اشفق شئ واقبله لى قالوا ومثال ذلك كمثل المعدة فان
الطعام اذا استقر فيها انضمت عليه غايبة الانضمام فاذا ورد عليها طعام فوقه انضمت له لشوقها
اليه قالوا وقد شهد به ذال الله اثف بين يدى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فى ولادته ما اثنان فنظر اليهما واليه وقال ما اراهما الا اشتراكا فيه فواقفه عمر وأخفه بهما
وواقفه على ذلك الامام احمد ومالك رضى الله عنهما قالوا والحس يشهد بذلك كما ترى فى
جرو الكلبة والسنور تأتى بها مختلفة الالوان تعدد آبائها وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماء زرع غيره يريد بوط الحمل من غير
الواطئ قال الامام احمد الوط يزدق سمع الولد وبصره هذا بعد انقصاده وعلى هذا مسألة
فقهاء وهى لو احبل غيره بشكاح أو ذى ثم ملكها هل تصير أم ولد فيها أربعة اقوال

وهي روايات عن الامام أحمد - الا تصيرام ولد لانها لم تعلق بالولد في ملكه
والثاني تصيرام ولد لانها وضعت في ملكه والثالث ان وضعت في ملكه صارت ام ولد
وان وضعت قبل ان يملكها لم تصير لان الوضع والا حبال كان في غير ملكه والرابع ان
وطئها بعد ان ملكها صارت ام ولد والادلان الوطء يزيد في خلقه الولد كما قال الامام
أحمد الوطء يزيد في سمع الولد وبصره وهذا ارجح الاقوال وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه مر على امرأة تنحج على باب فسطاط فقال لعل سيدها يريد ان يلم بها لقد هممت ان اعنه
لعنة تدخل معه في قبره كيف يورثه وهو لا يحمل له والحج الحامل المقرب وقوله كيف يورثه
اي يجعل له تركة مورثة عنه لانه عبده ولا يحمل له ذلك لانه قد صار فيه جزء من اجزائه
بوطئه وكيف يجعله عبده ولا يحمل له لذلك فهذا دليل على ان وطء الحامل اذ وطئت كثيرا
جاء الولد عبلا مثلثا واذا هجر وطئها جاء الولد منيلا ضعيفا فهذه اسرار شرعية موافقة للاستمرار
الطبيعية مبنية عليها والله اعلم فان قيل فهل يمكن ان يتخلق من الماء ولدان في بطن واحد
قبل هذه مسألة التوأم وهو ممكن بل وقع له اسباب أحدها كثرة المنى فيقبض الى بطن
الرحم دفعات والرحم يعرض له عند الحركة الجارية المنى حركات اختلاجية مختلفة
فربما اتفق ان كان الجاذب للدفعه الاولى من المنى احد جانبيه ولثانية الجانب الآخر
ومنهما ان يلت الاولاد في الرحم فيه نجسا ويفيكون المنى كثيرا فيغفل عن أحدها فضلة
يشتمل عليها النجس في الثاني وهكذا الثالث قال ارسطو وقد يعيش للمرأة خمسة اولاد
في بطن واحد وحكي عن امرأة انها وضعت في اربع بطون هنرين ولدا قال صاحب
القصص سمعت بمرجان ان امرأة امقطت كيسا فيه سبعه ون صورة صغيرة جدا قال
ارسطو واذا نوأمت بذكر وانثى فقل ما تسلم الوالدة والمولود اذا نوأمت بذكرين وانثيين
فقل كثيرا قال والمرأة قد تحبل على الحبل ولكن يهلك الاول في الاكثر فقد
امقطت امرأة واحدة اثني عشر جنينا جلا على حمل واما اذا كان الحمل واحدا او بعد
وضع الاول فقد يعيشان والله اعلم فان قيل فما السبب المانع للعامل من الحبض غالبا
قال الامام أحمد وابو حنيفة انما تراه من الدم يكون دم فساد لا حبض والشا فحكي
وان قال انه دم حبض وهو احدى الروايتين عن عائشة فلا ريب انه نادر بالاضافة الى
الاجاب قبل دم الطمث ينقسم ثلاثة اقسام قسم ينصرف الى غذاء الجنين وقسم يصعد الى البدن
وقسم يحبس الى وقت الوضع فيخرج مع الولد وهو دم النفس وربما كانت مادة الدم
قوية وهو كثير فيخرج بعضه لقوته وكثرته والراجح من الدليل انه حبض حكمه حكمه
اذ ليس هناك دليل عقلي ولا شرعي يمنع من كونه حبضا واستيفاء الادلة من الجانبين فقد
ذكرناه في مواضع آخر والله اعلم فان قيل فما السبب في ان النساء الحبال يشفقن في الشهر
الثاني والثالث الى تناول الاشياء الغريبة التي لا يعتد بها طبسا هن قيل ان دم الطمث لما
احتبس فيهن بحكمة قدرها الله وهي ان صرفه غذاء لولد ومقدار ما يحتاج اليه يسيرا
فتدفعه الطبيعة الصحيحة الى ثم المعدة فيحدث لهن شهوة تلك الاشياء الغريبة فان قيل
فكيف وضع الجنين في بطن أمه قائما او قاعدا او مضطجعا قيل هو معتمد بوجهه على رجليه

وراحته على ركبته ورجلاه مضومة الى قدميه ووجهه الى ظهره وهذا من العناية
الالهية ان اجلسه هذه الجلسة في المكان الضيق في الرحم على هذا الشكل وايضا فلو كان
رأسه الى أسفل لوقع ثقل الاعضاء الخسيسة على الاعضاء الشريفة وأدى ذلك الى تلفه
ولانه عند محاولة الخروج اذا انقلب أماته على الخروج فانه اذا خرج أول ما يخرج منه
رأسه لان الرأس اذا خرج أولا كان خروج سائر الاعضاء بعده سهلا ولو خرج على غير
هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر فان الرجلين او خرجت أولا انعاق خروج الباقي
فانه ان خرجت الرجل الواحدة أولا انعاق عند الثانية وان خرجتا معا انعاق عند اليدين
وان خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس فكان يلجأ الى خلف وتلتوى الصرة
الى العنق فيألم الرحم ويضعف الخروج ويؤدي الى مرضه أو تلفه فان قبل فاسد الاجهاض
الذي يسمونه الطرح قبل كمال الولد قيل الجنين في البطن بمنزلة الثمرة في الشجرة وكل منهما
له اتصال قوى بالأم ولهذا يضعف قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة ونحتاج الى قوة فاذا
بلغت الثمرة نهايتها سهل قطعها وربما سقطت بنفسها وذلك لان تلك الرباطات والعروق
التي تمدها من الشجرة كانت في غاية القوة والغذاء آخر رجع ذلك الغذاء الى تلك الشجرة
فضعفت تلك الرباطات والجاري وساعدها ثقل الثمرة فسهل أخذها وكذلك الامر في الجنين
فانه مادام في البطن قبل كماله واستحكامه فان رطوباته وأغشيته تكون مانعة له من السقوط
فاذا تم وكل ضعفت تلك الرطوبات وانتهكت الأغشية واجتمعت تلك الرطوبات المزلفة
فسقط الجنين هذا الامر الطبيعي الجاري على استقامة الطبيعة وسلامتها وأما السقوط
قبل ذلك فلفساد في الجنين وفساد في طبيعة الأم أو ضعف الطبيعة كما تسقط الثمرة قبل
ادراكها لفساد يعرض أو لضعف الاصل أو لفساد يعرض من خارج فأسقط الجنين السبب
من هذه الاسباب الثلاثة فالآفات التي تصيب الاجنة بمنزلة الآفات التي تصيب الثمار
فان قبل فكيف الرحم مع ضيقه يخرج منه ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة قبل هذا
من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيتته فان الرحم لابد أن ينفتح
الافتتاح العظيم جدا قال غير واحد من العقلاء ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة
ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر وقد اعترف فضلاء الأطباء وحذاقهم بذلك وقالوا
لا يكون ذلك الا بعناية الهية وتدبير تعجز العقول عن ادراكه وتقر الخلق العظيم بكمال الربوبية
والقدرة فان قيل فما السبب في بكاء الصبي حالة خروجه الى هذه الدار قيل ههنا سببان
سبب باطن أخبر به الصادق المصدوق لا يعرفه الاطباء وسبب ظاهر فاما السبب الباطن فان
الله سبحانه اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من ولد آدم شيطانا فشیطان المولود قد خنس
ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به فاذا انفصل استقبله الشيطان وطعنه في خاصرته
فصرقا عليه وتغيظا واستبالا له بالعداوة التي كانت بين الابوين قديما فيبكي المولود
من تلك الطعنة واو آمن زنادقة الاطباء والطبائعين بالله ورسوله لم يجدوا عندهم
ما يبطل ذلك ولا يردده وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم صباح المواد حين يقع نزعته من الشيطان وفي الصحاح من حديثه أيضا

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد الا تحمله الشيطان فيستهل صارخا من نحوه الا ابن مريم وامه وفي لفظ آخر عيسى عليه السلام ولدته الامريم وابنها وفي لفظ الشيطان اياه وفي لفظ آخر كل بني آدم عيسى عليه السلام ولدته الامريم وابنها وفي لفظ البخاري كل بني آدم بطعن الشيطان في جنبه باصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب بطعن فطعن في الحجاب والسبب الظاهر الذي لا يخبر الرسول بمثاله برخصه عن الناس ومعرفة لهم من غيرهم هو مفارقتهم للمألوف والعادة التي كان فيها الى امر غريب فانه ينتقل من جسم حار الى هواء بارد ومكان لم يألوه يستوحش من مفارقتهم وطنه ومأثله وعند ارباب الاشارات ان بكاءه ارهاص بين يدي ما يلاقيه من الشدائد والآلام والمخاوف وأنشد في ذلك

ويكي بها المولود حتى كأنه * بكل الذي يلقاه فيها يهدد
والا لها يبكيه فيها وأنه * لاوسع مما كان فيه وارعد

ولهم نظير هذه الاشارة في قبض كفهم عند خروجه الى الدنيا وفي فتحها عند خروجه منها وهو الاشارة الى انه خرج مركبا على الحرص والطمع وفارقها صفر اليدين منها وأنشد في ذلك وفي قبض كف المراء عند ولادته * دليل على الحرص الذي هو مالكة وفي فتحها عند الممات اشارة * الى فرقة المال الذي هو ناركة ولهم نظير هذه الاشارة في بكاء الطفل وضحك من حوله أن الامر سيبذل وبصير الى ما يبي من حوله عند موته كما ضحكوا عند ولادته وأنشد في ذلك

وذلك اذ ولدك أمك باكيا * والناس حولك يضحكون سرورا
فأعل لك ان تكون اذا بكوا * في يوم موتك ضاحكا مسرورا

ونظير هذه الاشارة أيضا قولهم ان المولود حين ينفصل عنه يديه الى فيه اشارة الى تعجيل نزوله عند القدوم عليه بأنه ضعيف من تمام اكرامه تعجيل قراء فأشار بلسان الحال الى ترك التأخير ورجمه اصبعه اشارة الى ذهاب فقره وأنه بلغ منه الى مص الاصابع ومنه قول الناس لمن بلغ به الفقر فانيته فهو يمس اصابعه وأنشد في ذلك

ويهوى الى فيه يمس بانه * يطالب بالتعجيل خوف التشاغل
ويعلمهم أني فقير وايسر لي * من القوت شيء غير مص الا نامل

ونظير هذه الاشارة أنه يحدث بالعجب ممن يظهر من الحدث ويحدث بين الحاضرين اشارة * الى أنه من حادث ليس بعصم يقول وعندى بعد أخواتها * وما منكم الا وذوا العرش ارحم ونظير هذه الاشارة ان يضحك بعد الاربعين وذلك عند ما يشغل نفسه الناطقة ويدركها وفي ذلك قصاص من البكاء الذي اصابه وعند ولادته وتأخير بعده لكي يتأسى العبد اذا اصابته شدة فالفرج كام يطلبها في أثرها

ويضحك بعد الاربعين اشارة * الى فرج وافاء بعد الشدائد
يقول هي الدنيا فتبكيك مرة * وتضحك أخرى فاصطبر له واندد

قالوا يرى النبي بعد سنين يوم من ولادته ولكنه ينساها لضيق القوة الحافظة وكثرة الرطوبات

وفي ذلك لطف به أيضا لضعف قلبه عن التفكير فيما يراه

ويرى بعين القلب اذيانا له * متون يوما رؤيته الاحلام

لكنه ينساها بعد لضعفه * عن ضبطه في بقطة ومنام

فصل ولا تكامل للطرفة أربعة - ون يوما فاستحكم نضجها وعقدتها حرارة الرحم استعدت لحالة هي أكل من الأولى وهي الدم الجامد الذي يشبه العلكة وقبل الصورة وبخضها بانعقادها وقاسك اجزائها فاذا تم لها أربعة ون استعدت لحالة هي أكل من الحالتين قبلها وهي صيرورتها لحما أصلب من العلكة وأقوى وأحفظ والمخ المودع فيها والحم هو كسوتها والرباطات تمسك اجزاءه وتشد بعضها بعضا والكبد الذي يأخذ صفو الغذاء فيرسله الى سائر الاعضاء والى الشعر والظفر والامعاء الذي هي مجارى وصول الطعام والشراب الى المعدة والعروق التي هي مجارى تنفذه وإيصاله الى سائر اجزاء البدن والمعدة التي هي خزانة الطعام والشراب وحافظته لمستحققيه والقلب الذي هو سبع الحرارة ومعدن الحياة والمستولى على ملكة البدن والريثة التي تروح عن البدن وتفيد الهواء البارد الذي به حياته واللسان الذي هو ريد القلب وزجائه ورسوله والسمع الذي هو صاحب اخباره والبصر الذي هو طلبته ورائده والكاشف له عما يريد كشفه والاعضاء التي هي خدمه وخوله والرجلان تسعى في مصالحةه واليديبطش في حوائجه والاسنان تفصل قوته وتقطعه والعروق توصله الى أربابه والذكر آلة نسله وأنثياه خزانة مادة النسل والكبد لغذاء وقمته وهي الحيوان بمنزلة شرس الشجر والنبات تجذب الغذاء وترسله الى جميع الاجزاء وآلات الغذاء خدما لها والقلب للارواح التي بها حيات الحيوان وآلات النفس خدما لها والدماغ معدن الحس والتصور والحواس خدما له والاثنيان معدن التناسل والذكر خدما له وهذه الاعضاء هي رأس أعضاء البدن

فصل وأما آلات الغذاء فتلاثة أقسام آلة تقبل الغذاء وتصلحه وتفرقه وترسله الى جميع البدن وآلة تقبل فضلائه وآلة تعين في اخراج نعله ومالا منقعة في بقائه فالآلات القابلة فهي الفم والمرى والبطن والكبد والعروق الموصلة الى الكبد والعروق الموصلة منها الى البدن

فصل وأما الآلات القابلة للفضلات فالمرارة تقبل ما لطف منه والطحال يقبل كثيفه والكلى والمثانة يقبلان المتوسط والكبد موضوعة في الجانب الايمن وتأخذ يسيرا للجانب الايسر وهذه الحكمة بديعة وهي أن القلب في الجانب الايسر أقرب وهو معدن الحار الغريزي فيجذب عنه الكبد قليلا لئلا يتأذى بحرارتها وجعل في أوعية الغذاء قوى خادمة له قائم مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه بحبله ويغيره والمرى مع كونه منفذا الى المعدة يغيره تغييرا ثانيا والمعدة مع كونها خزانة حافظة له تنضجه وتطبخه وتغيره تغييرا ثالثا وتهضمه ونقى منه مالا يصلح ونخرجه وتدفعه الى مخرج النفل فان الطعام اذا استقر في المعدة اشتعلت عليه والنضج غاية الانضجاء ثم انضجته بحرارتها ثم يتولاه الكبد وتشتعل عليه وتقلبه دما خالصا ثم تقسمه على جميع الاعضاء فسمه عدل لا جور فيها ولا حيف ولما كانت المعدة

حوض البدن الذي يردّه أجزاء البدن من كل ناحية اقتضت الحكمة الالهية جعلها في وسطه وخاص الغذاء يتأدى الى الكبد من شعب كثيرة ويجتمع في موضع واحد واسع يسمى باب الكبد وجميع العروق التي تنصل بالمعدة والامعاء والطحال تسجّمع وترتقى الى باب الكبد والمعدة تجذب الموافق ويبقى المخالف المنافي الذي عجزت قوتها عنه ثم ان الكبد تصفيه وتنقيه بعد اجتذابه مرة أخرى وتنقي عنه غير الموافق وقد أعد الصانع الحكيم سبحانه لتقية الدم من الكبد ثلاثة خدام فارحين قائمين بالمرصاد بالاكمل ولا تنور وقد وضع كل منها في المكان اللائق به ونصبه نصبة بها يكون امكن من عمله ولما استقر الغذاء في المعدة وطبخته وانضجته صارت فضله ثلاثة فضلة كالدرى الراسب وفضلة كالرغوة والزبد الطافي وفضلة مائية فجعل كل خدام من هذه الخدام الثلاثة على فضلة لا يمتدّها الى الاخرى ليعذبها من مجرى خدام الفضلة الخفيفة الطافية وهي المصفرة المرارة نصيبها الرب تعالى فوق الكبد لان المجتذب هو الفضلة الطافية ومكانها فوق مكان الدرى الراسب وخدام الفضلة التي هي كالدرى الراسب الطحال ونصبه الخلاق العليم اسفل من باب الكبد حيث كان ما يجذب به من سفلى ولم يكن في الجانب الايمن لان المعدة قد شغلت ذلك الجانب وكان الجانب الايسر خاليا فلم تعد فاذا نقي الدم من هاتين الفضلتين خدمه الخدام الثالث وهو الكبد وقد بقي احمر في اللون مشرقا نورانيا ويصل اليها من مرق عظيم يسمى الاجوف من يوزع من هناك على جهة البدن العليا والسفلى في روضع كثيرة العدد ما بين كبير وصغير ومتوسط كلها تنصل بالعروق الاجوف وتماز منه ومادام الدم في هذا العرق ففيه مائة غير محتاج اليها لانها كانت متركب الغذاء فلما وصلت الى مستقر ما يستغنى عنها فاحتاج ولا بد الى اخراجها ودفعها ولولم يبادر الى ذلك اضررت به فحقاق الله سبحانه الكليتين يتصان هذه الفضلة بعنقين طويلين كالانابيب وبقرظان في المئذنة بعرقين آخرين ووضعهما سبحانه اسفل من الكبد قليلا حيث يكون امكن لتخليص المائة كما نروق المصارات واما المرارة فوضعهما الله سبحانه فوق الكبد لانها بمنزلة السفينة أو القطة التي يطف بها السذهب عن وجه الرطوبات واما الطحال فوضعهما ابل الى اسفل لانه بمنزلة ما يجذب الاشياء المصونة اذا رسبت

فصل اذا اتى الدم من هذه العقول كلها وعملت فيه هذه الخدم بقواها التي اودعها فيها هذا العمل واصلحته هذا الاصلاح حل ملك الاعضاء والجوارح وهو القلب فيه عملا آخر يقصده بحرارة أخرى وهي أقوى من حرارة الكبد

فصل وجعل سبحانه في المعدة أربع قوى قوة جاذبة للملائم وقوة منضجة له وقوة محسكة له وقوة دافعة لفضلة المستغنى عنائه ورئيس هذه القوى هي القوة المنضجة وسائرها خدم لها وخصت المعدة عن سائر الاعضاء بأن اودع فيها قوة تحس بالعون والنقصان وخاصته فقما لتفيه الحيوان على تناول الغذاء عند الحاجة واما سائر الاعضاء فانها تغذى بالنبات باجتذاب الملائم اليها ولما احتاجت المعدة الى القوة وحس بالعون ولم يكن ذلك الامن معدن الخواص وهو الدماغ اناها روح العصب عظيم ما ثبت أكثرها في قفا وما يليه ومن ياقبه مستقيما حتى يبلغ قعرها فان قيل فالحكمة في ان يبعد سبحانه بين المعدة والقفا وجعل بينهما مجرى

طويلا وهو المرى وهلا اتصلت المعدة بالفم واستغنت عن المرى قبل هذا من تمام حكمة الخالق وفيه منافع كثيرة منها أن يحصل للغذاء تغير ما في طريق الجرى فيلطف قبل وصوله اليها ومنها بعده عن آلة التنفس لئلا تعوقه ويعوق الصوت والكلام وان لا تنقلب المعدة الى خارج عند شدة الجوع كما يعرض ذلك للحيوان الشرس اذا كان قصير العنق فان قبل فلم كانت الى جانب الابرص أميل منها الى الجانب الايمن قبل ليتسع المكان على الكبد ولا يتحصر فان قبل فهلا كانت مستقيمة في وضعها بل مال اسفلها الى الجانب الايمن قبل ليتسع المكان على الطحال حيث كان أخفض موضعا من الكبد فان قبل فلم جعلت مستطيلة مدورة وجعلت مما يلي الصلب مسطحة قبل لما وضعها الله بين الكبد والطحال جعلها مستطيلة وكانت مستديرة لتتسع للطعام والشراب وكان اسفلها أوسع من اعلاها لذلك وجعل لها مدخلا وهو المرى ومخرجا يسمى البواب وجعل البواب اضيق من المرى لان ما يبتلع به يكون أصلب واخشن مما يخرج به فجعل مدخل الداخل أوسع من مخرج الخارج لابطلاخه في المعدة ولينه ولحكم آخر منها أن لا يزال منه الطعام والشراب قبل نضجه وانه ولتقوى المعدة على حبسه ولتخرج أولا فاولا لدفعه واحدة والمرى يتسع بالتدريج حتى يبلغ المعدة ولذلك يظن أنه جزء منها وأما البواب فان الجزء الضيق يتصل بأسفلها الذي هو أوسعها ثم يتسع على التدريج ليسهل خروج الفضلة

فصل في الكبد منطبقة على المعدة محتوية عليها زوائد التسخن والطحال يمتلئها من الباب الابرص والصلب يمتلئ من خلف والترائب من قدامها والترائب مؤلفة من طبقتين رقيقتين تطبق احدهما على الاخرى يشتم كثير وهو خشاء الامعاء كلها ولباسها ثم غشي البطن كله بفشاء واحد بقي الاحشاء ويجمع من انفتاح المعدة والامعاء بالرياح ويربط بجلة آلات الغذاء ولم يجعل في الكبد نجويف كنجويف القلب لتحتوي على الدم احتواء يمكننا ونحمله احالة بليغة ولكبد ثلاث شبك من العروق شبكة بينها وبين المعدة والامعاء وشبكة في مفرعها وشبكة في مجذباها فالشبكة الاولى تجذب الغذاء ونحمله بعد أن أحاله وفي الشبكة الثانية بصير دما وفي الشبكة الثالثة يزداد صفاء وترويقا ولكبد بالقلب والدماغ اتصال بشطة من العصب حفية كنسج العنكبوت ولما كانت النفس المعنوية بمنزلة حيوان غائب وحشى وكل جسم حيوت فلا بد أن تتصل به هذه النفس وتغذوه بخلاف النفس المفكرة التي محلها الدماغ وبخلاف النفس الغضبية التي محلها القلب فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية الغائبة الوحشية اقتضت حكمة الخالق سبحانه أن وصل بين محل هذه الانفس الثلاثة وسماها ليدعن بعضها لبعض ولا تنكر تعمية هذه القوى نفوسا فليس الشأن في التسمية فان كانت نجسد فيك نفسا حيوانية تطلب الطعام والشراب ونفسا مفكرة سلطانها على التصور والعلم والشعور ونفسا غضبية سلطانها على الغضب والارادة وتضرب كل واحدة ثم فيما جعل اليه وبعضها عون لبعض فمحل النفس الحيوانية الكبد ومحل المفكرة الدماغ ومحل الغضبية القلب

فصل في الحكمة في أن جعلت صفقات عروق الكبد أرق من صفقات سائر عروق البدن لينفذ الى الكبد فوق جوهر الدم بسرعة وهي مع ذلك غير محتاجة الى الوقاية

لان الكبد مخورزا بلحمها وانما وضعت بجاري المرة الصفراء بعد العروق التي تصعد الغذاء من المعدة وقبل العروق التي تأخذ الدم منها لان هذا الموضع هو بين موضع كمال الطبع وبين انتقاله الى العرق الاجوف وحينئذ يمكن انفصال المرة عن الدم وجمعت العروق كلها الى مرق واحد هو الباب ثم مادت فتقسمت في مقعر الكبد ثم مادت فجعلت في مجدها الى مرق واحد وهو الاجوف ليجيد بقمعها انضاج ما تحتوى عليه ولئلا ينفذ بسرعة وكذلك كل موضع احتج فيه الى طول مكث المادة هــ ين بقاؤها فيه بطول مسلكها وكثيرة تعاريجها كما فعل في مجاري المنى وشبكة الدماغ وهذا شأن العروق الجوارب واما العروق الضواريب فبالعكس من ذلك فانها اجتمعت في مقعر الكبد دون مجدها لانه موضع الدم وحاجته الى المعدة بالحرارة مساسة قال جالينوس ولا تقسم العروق الضواريب في مجذب بعلم الخالق سبحانه انه جذب الكبد لتحرك دائما بمجاورة الجلب فيقوم لها ذلك مقام حركة العروق الضواريب وجعلت هذه العروق الضواريب رقافا لانها انما وضعت لتروج الكبد لانتغذيتها ولان اتصال روح اليها اذ ليس بالكبد حاجة الى قبول روح حيواني كثير ولا يحتاج لحمها الى غذاء لطيف بخاري

فصل في و احرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها بأن ربطها بالمعدة والامعاء كلها بالعروق وبالفشاء الممدود على البطن الذي يشد جيعها ووصل بها ارتباطات من جميع النواحي وغشاؤها الرابطة يتصل بالجلب برابط قوي ورباط الكبد بالجلب حين صلب وثقي لان الكبد معلقة به وهو اصلب من غشاء الكبد بشدة الحاجة الى صلابته لانه يحرز الكبد والعرق الاجوف متى ناله آفة مات الحيوان كانه تلك اخضان الشجرة اذا أصاب ساقها آفة وجعل أرق هذه الرباطات من خلف يشده بالعظام وأغظله من قدام حيث لا عظام هناك تقيه وهذا من شدة الاسر الذي قال الله تعالى فيها نحن خلقناهم وشددنا أسرهم شدا وصلبهم بالرباطات المحكمة وجعل خلقهم بعضه الى بعض ولما كان الجلب آلة شريفة لا نفس بوعده من العضوين المجاورين له وهما المعدة والكبد بمقدار حاجته لئلا يزحساه ويعوقه عن فعله فبوعدت المعدة عنه بطول مجراها

فصل في و اما الطحال فبعضهم يقول انه لا تنفع فيه وانما شغل المكان به لئلا يبقى فارغا فيمل أحد شقي البدن بثقل الكبد فيجعل موزونا للكبد قلت وهذا ظاهري من وجه وصواب من وجه اما الصواب فن الحكم العجيبة جعل الطحال في الجانب الايسر على موازنة الكبد لئلا يميل الشق الايمن بها ولا يمكن أن تقوم المعدة بموازنة الكبد لانها دائما ثقل وتخلو فتارة تكون أخف من الكبد وتارة أرفع منها فيصير البدن مترجعا أو يميل الى شق الكبد وقتا وإلى شق المعدة وقتا آخر فيجعل الخالق سبحانه الطحال يوازن الكبد وجعل المعدة بينهما في الوسط لئلا يثقل جانب ويشف آخر عند امتلائها وخلقها فلما جعلت وسطا لم تختلف وضع البدن باختلافها وأما الغلط فقوله انه لا تنفع فيه وانما يشغل المكان لئلا يبقى فارغا فانه لو لم يعلم فيه منفعة لم يكن له أن ينفعها فان عدم العلم بالمنفعة لا يكون علما بعدمها ولا شيء في البدن خال عن المنفعة أبنة وفي الطحال من المنافع أنه يجذب الفضلة الغليظة السكرية السوداء من الكبد نوما من جنس العروق كالغنيق له فاذا حصلت تلك

الفضلة عنده انضجها وأحالها وهو ينضج غليظ الدم وعكسه كما ينضج قولون غليظ الغذاء ويابس ويستعمل في فعله العروق الضوارب الكثيرة المبثوثة فيه كلها لما ينضج واستحال إلى طبيعة صار غذاء له ومالم يمكن أن يتقلب إلى الدم الموافق له قذفه إلى المعدة بمنق آخر من جنس العروق وإنما أمكنه جذب الفضل الأسود بقوة الحمية لانه رخو متحلل يخفف كالاسفنج ولما اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن انضاج الفضول السود ولبقى لحمه خفيفا متحللا لأن دم الشرايين رقيق لطيف قريب بطبيعته البخار فما اغتذى به كان خفيفا كالثمة ولكن الرئة تغتذى بما صفاورق وأشرق وكان أجراً ناريا وكذلك الرئة كانت أخف وزناً منه وأخف جرماً ومائلة إلى البياض وأما الطحال فيغتذى بما لطيف من الخلط الأسود والنطخ في الشرايين فيسترخ منه البدن ويغتذى به الطحال فالطحال يغتذى بغذاء لطيف من غذاء الكبد لانه يرشح إليه من الشرايين التي صفا فأيهما يحبه جدا ولاجل سواد تلك الفضلة وكونها عكرة في الأصل لم يكن لون الطحال أجراً ولا مشرقاً فأما الكبد فتغتذى بدم غليظ فاضل يرشح إليها من العروق غير الضوارب فليجوده غذاءً كان لونها أجراً ولفضلته كانت كثيفة فالكبد تغتذى بدم أجراً غليظ والطحال بدم أسود لطيف والرئة بدم صاف مشرق في غايبة النضج قريب من طبيعة الروح فجوهر كل عضو على ما هو عليه صير غذاءه ملائمة للغذاء شبيه بالمغتذى في طبعه وفعله وهذا كما أن حكمة الله سبحانه في خلقه فيه جرت حكمته في شرعه وأمره حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده لأنهم إذا اغتدوا بها صارت جزءاً منهم فصارت أجزاؤهم مشابة لأغذيتهم إذا الغذاء شبيه بالمغتذى بل يستحيل إلى جوهره فلهذا كان نوع الإنسان اعدل أنواع الحيوان من أجل اعتدال غذائه وكان الاغتذاء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذى بها قوة شيطانية سبعة مادية على الناس فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية وأشباهاها إلا إذا عارضها مصلحة أرجح منها كحل الضرورة ولهذا أكلت النصارى لحوم الخنازير فأورثها نوماً من الغلظة والقسوة وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوة ولما كانت القوة الشيطانية مازدة ثابتة لازمة لذوات الأنياب من السباع حرمها الشارع ولما كانت القوة الشيطانية مازدة في الأبل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها ولما كانت الطبيعة الحمارية لازمة للحمار حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الجر الإهلية ولما كان الدم مركب الشيطان وبجراه حرمه الله تعالى تحريماً لازماً فمن تأمل حكمة الله سبحانه في خلقه وأمره وطبق بين هذا وهذا فتحاله باباً عظيماً من معرفة الله تعالى واسمائه وصفاته وهذا هو الذي حركنا لبسط النفس في هذا المقام الذي لا يكاد أن يرى فيه إلا أحد طريقين طريقة طيب معترض لوسج مقلد لبقراط وطائفة قد عبرت عنه على الرسل وما جاؤا به وهو من قال تعالى فيه فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون وطريقة من يمجّد ذلك كله ويكذب قائله ويظن مناقته للشريعة فيجحد حكمة الله تعالى في خلقه وابداعه في صنعه وكلا الطريقين مذموم وسالكه من الوصول إلى الغاية محروم فلان كذب بشرح الله ولا يمجّد حكمة الله وأكثر ما فسد الناس أنهم لم يروا

الاطباء زنديقا محلا عن الشرائع او متساهلا قادحا فيما جرت به حكمة الله ومشيئته في خلقه منكرا للقوى والطبائع والاسباب والحكم والتعليل فاذا اراد الاول ان يدخل في الاسلام صده جهل هؤلاء ومكابرتهم للمعقول والحس واذا اراد ان يدخل في معرفة الحكم والفايات وما اودع الله في مخلوقاته من المنافع والقوى والاسباب صده زندقة هؤلاء وكفرهم واعراضهم عن ما جاءت به الرسل وقدحهم فيما عندهم من العلم فيختار دينه على عقله ويختار ذلك عقله وما استقر عنده مما يكابر فيه حسه ولا عقله على الدين وهذا قد بلا الخلق الاطباء والطباطئين احد انواع ادلة التوحيد والمعاد وصفات الخلق وما اخبرت به الرسل هو من اظهر ادلته ولا يزداد الباطن فيه الا ايمانا وما اخبرت به الرسل لا ينقص ما جرت به عادة الله وحكمته في خلقه من نصب الاسباب وترتيب مسياتهم عليها بعلمه وحكمه فصدر خلقه وامره علمه تعالى وحكمته وآلاء الرب تعالى لا تتعارض ولا تتناقض ولا يبطل بعضها بعضا والله اعلم

﴿ فصل ﴾ والكبد والطحال متقابلان والمعدة بينهما والعروق الضواريب تصل بينهما المعدة والقلب بمزلة النور او بمنزلة أنوار الجسم يحضن ماؤه وله الى كل بيت منفذ ينفذ فيه وهج النار اليه وكذلك الحمار الغريزي الذي منبعه من القلب ينفذ في مسالك ومنافذ الى جميع الاعضاء فيضنها

﴿ فصل ﴾ وجملة الاعضاء مسلكتا مؤديا والمعدة هي الآلة تهضم الغذاء واستمرائه والامعاء تؤدي ذلك الى الكبد ولما كانت الامعاء آلة الاداء والاتصال كثرت لفائفها وطولها كانت العروق التي تأتيها من الكبد لا تنحصر كثيرة لينة في هذا الغذاء ولا فائلا وتستغيضه بسير اسير افلوا لتطويل لفائف الامعاء امكن بخرج قبل اخذ خاصيته وكان يعرض اليهم بشهوة الاكل دائما وكان الانسان يعدم التفرغ لمصلحته وسائر اعماله وكان دائما مكيا على الغذاء ولهذا صار الحيوان الذي ليس لامعائه استدارات بل له معاء واحد مستقيم مكيا على الغذاء دائم عديم الصبر عنه كالقيل وأما مالا معائه استدارات فانه اذا فارقه الغذاء اوبعضه في الاستدارة الاولى صادفه في الثانية فان هو فانه في الثانية صادفه في الثالثة والرابعة والخامسة كذلك فيمكن صبره على الغذاء حكمة بالغة وما ينفذ الى الامعاء يبعث من العروق الضاربة يأخذ من الغذاء جزأ يسيرا لطيفا وأما العروق غير الضاربة هي بحار الغذاء بالحقيقة فأخذت اكثره وأما العروق الضاربة فجعلت مسلكتا للارواح المنبعثة من القلب فاستغنت بقليل الغذاء وجعل للقلب وصلة بالامعاء لمحضنها أولا ويمدها بقوة الحار باذن خالقه ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغذاء المستغنى عن فعل الكبد لطافة جوهرة فان هذا الجزء لو حصل في الكبد لم يؤمن اصراؤه وفساده فلا ينتفع به القلب ثم يأخذ منها عند شدة الحاجة وصدق الجاهة فيتجمل ذلك من أدنى الواضحة ولذلك يشاهد من اكل مسنة شديدة بحس زيادة وغناه في كل اعضائه حتى ماير الطعام بالمعدة قبل استقراره فيها فصبهان من انقن ما صنع ولما كانت المعدة آلة هضم الغذاء والامعاء آلة دفعه جعل الامعاء طبقتان ليقوى دفعها بهما جميعا وليكون حرزا لها وحفظا ولذلك من تعرض له قرحة الامعاء بانجراد احد الصفاقين يبقى الآخر سليما

وجعلت الامعاء الغلاظ لقذف الثفل والرقاق لتأدية الغذاء والسبب في أن صار الانسان لا يحتاج الى تناول الغذاء دائما كثرة لفائف امعائه والسبب المانع من قذف الفضول دائما سعة الامعاء الغلاظ التي تقوم لها مقام وعاء آخر شبيه بالمعدة في السعة كما أن المثانة وطاء لبلول كذلك فصل في ونحن نذكر فصلا مختصرا في هذا الباب نجمع ذلك شأنه بإيضاح وبإيجاز ان شاء الله تعالى به الحلول والقوة فنقول المرى موضوع خلف الحلقوم وما يلي ففسار الظهر ويتهى في ذهابه الى الجحباب وهو مشدود برباطات فاذا ابعده مال الى الجانب الابر و اتسع وذلك اتسع هو المعدة واسفلها يهود ما يلا الى اليمن والمعدة مقر طبخه وقها هو المسد منها ويسمونه الفؤاد وهذا من غلطهم الا أن يكون ذلك اصطلاحا خاصا منهم والفؤاد عند أهل اللغة هو القلب قال الجوهري الفؤاد القلب وقال الاصمعي وفي الجوف الفؤاد وهو القلب وقد فرق بعض أهل اللغة بين القلب والفؤاد فقال الليث القلب مضغ من الفؤاد معلقة بالنياط وقالت طائفة مسد القلب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم جاءكم أهل اليمن ارق قلوبا وألين أفئدة ففرق بينهما ووصف القلب بالركة والافئدة باليمن واما كون فم المعدة هو الفؤاد فهذا لا نعلم أحدا من أهل اللغة قاله وتأمل ووصف النبي صلى الله عليه وسلم القلب بالركة التي هي ضد القساوة والغلاظ والفؤاد باليمن الذي هو ضد اليبس والقسوة فاذا اجتمع لين الفؤاد الى رقة القلب حصل من ذلك الرحمة والشفقة والاحسان ومعرفة الحق وقبوله فان الذين موجب لقبول والفهم والركة تقتضي الرحمة والشفقة وهذا هو العلم والرحمة وبهما كال الانسان وربنا وسع كل شيء رحمة وعلما فلنرجع الى ما نحن بصدده فنقول المعدة مع المرى ذات طبقتين اعلية تسمى واللحم في الطبقة الداخلة أقل ولهذا يغلب عليها البياض وهي عصبية حساسة وهي في الطبقة الخارجة كثر ولهذا يغلب عليها الحجرة وهي مربوطة مع القفار برباطات وثيقة ونتمى من جهة قعرها الى منفذ هو باب المعدة وبوابها يغلق عند اشتماله على الغذاء مدة هضمه ويقال لباطن جرم المعدة خمل المعدة والامعاء المصارين وهو جمع مصران بضم الميم وهو جمع مصير وسمى مصير المصير الغذاء اليه والسفلى يقال لها الاقتاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فتدلى اقتاب بطيه والعليا ارق من السفلى لما تقدم من الحكمة فأهل الرقاق يسمى الاثنى عشر لان مساحته اثنا عشر اصبعاً ويليها المسمى بالصائم لقلة لبث الغذاء فيه لا لأنه يوجد أبداً خالياً كما ظنه بعضهم فان هذا باطل حسا وشرعا كما سنده كرهه الثالث المسمى بالركة واللفائف وهو أطول الامعاء وأكثرها تلافيف ولبث الغذاء فيه أطول والعروق التي تأتيه من الكبد أقل واما اللذان قبله فتصبيان في طول البدن قصيران ويقل لبث الغذاء فيهما وهو في الصائم أقل لبثا وهذه الثلاثة تسمى الامعاء العليا والامعاء الرقاق وهي كلها في سعة البواب واما الدامع وهو الاول من الثلاثة السفلى فيسمى الاور لانه لا منفذ له بل هو كال كيس يخرج منه ما دخل من حيث دخل وحكته سبحانه يتم فيه ما يفسد هضمه من الاشياء الصلبة كما يتم ذلك في قوائم الطيور ووضعه في الجانب الايمن والخامس المسمى بقولون يتبدى من الجانب الايمن ويأخذ مرصا الى الابر ويحبس فيه الثفل ورجا يستقضي ما فيه والسادس هو الآخر وهو المعى المستقيم لانه مستقيم الوضع في طول البدن وهو واسع جدا يجتمع فيه الكفل كما يجتمع البول في المثانة وعليه الفضلة المانعة

بمخرج النفل بدون الارادة وقد صرح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة امعاء أطلق على المعدة اسم المعاء تغليبا ولمشايتها بالامعاء تكون كل واحدة من الامعاء والمعدة محلا للغذاء وهذا لغة العرب كما يقولون القمران والعمران والركنان اليمانيان والشاميان والعراقيان ونظائر ذلك ولا سيما فان تركيب الامعاء كتركيب المعدة اذهى مركبة من طبقتين لحيية خارجية وعصية داخلية والطبقة الداخلة منها لزوجات متصلة بها لتقيها من حر البراز ووراء كثيفة ولزينة فلا تمسكه ولا يتعلق بها شيء منه ولما كان الكافر ليس في قلبه شيء من الايمان والخير يقتضي به انصرف قواه وفهمته كلها الى الغذاء الحيواني البهيبي لما فقد الغذاء الروحي القلبي فتوفرت امعاؤه وقواه على هذا الغذاء واستقرغت امعاؤه هذا الغذاء وامتلأت به بحسب استعدادها وقبلها كما امتلئت به العروق والمعدة واما المؤمن فانه اغنيا بكل العلفة لينتقى بها على ما امر به فهمته وقواه مصروفة الى امور وراء الاكل فاذا اكل ما يغذيه ويقم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الايماني عن الاستكثار من الغذاء الحيواني فاشتغل امعاؤه الواحد وهو قولون بالغذاء ما مسكه حتى اخذت منه الاعضاء والقوى مقدار الحاجة فلم يخرج الى ان يملا امعاء كلها من الطعام وهذا امر معلوم بالتجربة واذا قويت مواد الايمان ومعرفة الله وامساؤه وصفاته ومحبتهم والشوق الى لقائه في القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيواني فان كثفت طباعك عن هذا وكنت عنه بمنزل فتأمل حال الفرح والسرور بجدد نعمة عظيمة واستغناؤه مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوته وظهور الدمية على بشرته وتغذيه بالسرور والفرح ولا نسبة لذلك الى فرح القلب ونعيمه وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبتهم ومعرفة كما قيل

لها أحاديث من ذكر انكشغلها * عن الطعام وتلهيها عن الزاد

وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته اني اظل عند ربى يطعمني ويسقني وصدق الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فان المقصود من الطعام والشراب التغذية المسكنة فاذا حصل له اعلى القناتين وأشرفهما وأنفعهما فكيف لا يغنيه عن الغذاء المشترك واذا كنا نشاهد ان الغذاء الحيواني يقاب على الغذاء القلبي الروحي حتى يصير الحكم له ويضمحل هذا الغذاء بالكلية فكيف لا يضمحل غذاء البدن عن استيلاء غذاء القلب والروح ويصير الحكم له وقد كان صلى الله عليه وسلم يمكث الايام لا يطعم شيئا وله قوة ثلاثين رجلا ويطوف مع ذلك على نسائه كلهن في ليلة واحدة وهن تسع نسوة وهذا المسبح ابن مريم صلى الله عليه وسلم حتى لم يمت وغذاؤه من جنس غذاء الملائكة وانت تشاهد المريض يمكث الايام العديدة لا يأكل ولا يشرب لاشتغال نفسه بمحاربة المرض ومداقته واكتفاء الطبيعة ببقية الغذاء الذي في الامعاء والمعدة مع مدة الحرب فاذا وضعت الحرب أوزارها رأيت شدة طلبه للغذاء فالتفت والهيب والفرح والحزن والمستولى عليه الفكر لا تطلب اليه نفسه من الغذاء الخالي من ذلك فهو فصل في الكبد عضو لحمي تخلفه عروق رقاق وغلاظ وعلى الكبد غشاء عصبي حساس يحيط بها وينتهي الى خلافة والكبد هي الاصل في الغذاء وآلات الغذاء خدام لها ومعينات فان الانسان لما كان كالشجرة المستقلة جعل له ما يقوم مقام النهر الجاري في اصول

الشجر بسقيها وهو الامعاء والمعدة بمنزلة العين ونجى منها السواقي وهرق الكبد المتصلة بالامعاء بمنزلة هروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية تنقص الماء منها وتؤديها الى الشجرة واخصانها وورقها وغارها وهذه العروق تنص الماء من الطين والترى وكذلك هروق الكبد تنقص صفو الماء وخالصه من كل وليمه ونحوه الى طبيعة الاعضاء كما تفعل هروق الشجرة وشكل الكبد شكل هلالى محدب من ظاهره مقعر من باطنه وهى تحت الاضلاع الخمس ولها خمس شعب يقال لها الزوائد تحتوى على المعدة كما تحتوى الكف بأصابها على الشئ المتبوض ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة زائدة الكبد وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان سبعين ألفا من أهل الجنة يأكلون من زيادة كبد الحوت الذى هو أول طعامهم وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة فى الظن بالكبد التى هى زائدة فكيف بالحوت الذى حواها ومقرها يسمى المورد لانه يورد الغذاء من المعدة والامعاء ويسمى باب الكبد ثم تنشعب هذه العروق من جانبها بشعب تتصل بالامعاء وتسمى الجداول لشبهها بالسواقي الصفراء تؤدى الى مقرة عظيمة ولهذه الجداول أغشية من فوقها ومن تحتها فتستدير مع الامعاء العروق المتصلة بها وتسمى هذه الأغشية وما تحويه المرباط

فصل في العرق الثانى ينقسم فى مجذبه الى عروق صفراء واصفر منها حتى تبلغ قابضة الرقة ثم تعود ونجم مع أول فأرل على قياس ما تفرق وأخذ من كثرة الى واحدة ومن رقة الى غلظ حتى يجمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالاجوف ومنها يتأدى الدم الى البدن كله وحين يخرج ينقسم قسمين فإخذ أحدهما نافذ فى الجلب نحو القلب ويسمى الوتين قال أهل اللغة الوتين حرق يسقى القلب قال فى الصحاح الوتين حرق فى القلب اذا انقطع مات صاحبه ووتينه أصيب فهو موتون وقال الواحدى الوتين نياط القلب وهو عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب اذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه وهذا قول جبرع أهل اللغة وأنشدوا للشماخ

اذا بلغتني وحلت رحلى * حراية فأشربى بدم الوتين

وقال ابن عباس وجهور المفسرين هو حبل القلب ونياطه وأما الأبر الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم هذا أو ان انقطع أبرى فقال الجوهرى الأبر عرق اذا انقطع مات صاحبه وهما أبران يخرجان من القلب ثم تنشعب منهما سائر الشرايين وأنشدوا للصمعي

ولفؤاد وجيب عند أبره * لدم الغلام وراء الغيب بالجهر

فصل في المراتة موضوعة على الكبد ولها مجريان أحدهما متصل بتغير الكبد يجذب المرة الصفراء والاخر متصل بالامعاء العليا تنصب المرة ليعسلها ويحليها ويتصل منه السر بأسفل المعدة ليمتزج بالغذاء فيكون فيه معونة على هضمه

فصل في القوة التى وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن من أعظم آياته الدالة عليه فانها تفعل فى الطعام والشراب الواردين عليه أنعالا متنوعة من تقطيع وتغصيل وتبرخ وتحليل وتركيب فبدأ ذلك فى الفم وهو تقطيعه بالأسنان وهضمه واختلاطه بالرطوبات التى فيه وأنهضاه منه أنهضاما تاما ثم بعد ذلك عند وروده الى المعدة نهضه هضمًا آخر

ويسمى الهضم الاول وبعينه على هضمه ما يجاورها من الاعضاء في الكبد من يمينها والطحال
من يسارها والقلب من فوقها والمرى امامها والامعاء السبل الموصلة اليها والعروق
الطرق المؤدية منها والحرارة النار الطابخة لطعام فيها والقوة الهاضمة والجاذبة والغاذية
والدافعة خدما لها فاذا انهضم الطعام فيها صار كيلا وما شبيهه كالكشك الخين ثم تنز صوبه
ولطيفه فتغذفه العروق الرقاق الشعرية اليه بركة الشعر ويغذب الى الكبد فاذا ورد هذا
الطيف الى الكبد اشتكت عليه بجملة فطبخته وتهضمت وحالته الى جوهرها وصيرته دما
ويسمى هذا الهضم الثاني ولما كان هذا الانضاج والطبخ يشبه طبخ القدر علاه شئ كالرغوة
والزبد وهو الصفراء ورطب منه شئ مثل العكر وهو السوداء وتخلف على تمام النضج شئ
بقي على فجوجته وهو الباق والشئ الذي يصني ويبقى من ذلك كله هو الدم فاندفع من الكبد
في العرق الاعظم المعروف بالاجوف بعد ان نصفته عنه المائية الى آلة البول فيسلك هذا
الدم في الاوردة المتشعبة من الجوف ثم في جداول متشعبة من الاوردة ثم في سواقي متشعبة
من الجداول ثم في روافع مشتقة السواقي ثم في عروق رقاق شعرية ثم يرشح من افواهما في
الاعضاء لتغذي به قسله الاعضاء وتسير به بجوهرها فيصير في اللحم لحما وفي العظم عظما
وفي العصب عصبيا وفي الظفر ظفرا وفي الشعر شعرا وفي السمع والسمع والبصر وآلة الحس كذلك
تبارك من هذا صنعه في قطرة من ماء مهين

فصل في الدم وهو الخلط الاصل والغذاء الحقيق للبدن والمخاف عليه بدل ما ينقص
ويغفل منه والاخلط الاخر كالابازير والتوابل وهي صنفان صنف لطيف وهو دم
القلب وغليظ وهو دم الكبد ومثله مثل السلطان اذا كان وقورا حليما ساسا كانت به
رعيته واذا غضب واحتد قتل

فصل في وأما الباق فخلط فمح مستعدين يستكمل نضجه عند هوز الغذاء اذا تولده
الحرارة الغريزية فهضمته وصيرته دما فتكون في المعدة والامعاء وفي الكبد عند قصور
الهضم وفيه من المنفعة انه يرطب البدن ويمل المفاصل لسل حركاتها ويخالط الدم في
تغذية الاعضاء البلغمية المزاج كالدماغ فان قيل لما كانت الاعضاء محتاجة ان يكون قريبا
منها لترطيبها لم يجعل له عضو يخص به لاسيما والاعضاء تغذي به اذا هوزها الغذاء

فصل في وأما الصفراء فخلط لطيف حار وحاجة البدن اليها في ان تخالط الدم وترقه
بألفها وتغذفه في المسالك الضيقة وتعينه في تغذية الاعضاء الحارة اليابسة وما يفصل عنها
ما يستغنى عنه يتصنى الى المرارة لتأخذ نصيبها منه وما تستغنى عنه المرارة تصبه الى الامعاء
ليغسلها عن لطخة الاثقال وتزوجتها ولتدع عضل المعدة فخص بالحاجة الى التبرز

فصل في وأما المرارة السوداء فخلط بارد يابس وفيه من المنافع انه يتغذع الدم في
العروق ليشده ويقويه ويكفيه ويمسكه ويمنعه من سهولة الحرمة عند الحاجة الى ذلك وبعينه
على تغذية الاعضاء المحتاجة ان يكون في غذائه شئ من السوداء كالعظام وما اتصل منه
واستغنى عنه يصنى الى الطحال فيصفيه الطحال جدوا يتغذى به ثم يجلب ما يستغنى عنه الطحال
الى ثم المعدة فيدخله في الجوضة التي فيه فتفترق الشهوة ويحس بالجوع فتطلب الاعضاء

القصورى معلومها وراتبها من الاعضاء التى تليها وتطلبه الاعضاء التى تليها من التى
تجاورها وهكذا حتى ينتهى الطلب الى المدة فالجوع طلب الاعضاء القصورى
معلومها من الاعمال الدنيا

فصل ولما اقتضت حكمة الرب جل جلاله وقدرت اسماءه ولا اله غيره حيث
كان بدن الانسان مشبها في احواله بالمدينة ان يوجد فيه اعضاء رئيسة تقوم بمصالحها كما تقوم
رؤساء المدينة بمصالحها يكون لها بمنزلة الولاة والامراء واعضاء تكون خادمة لهذه
الاعضاء الرئيسة فان الرئيس لا يكون رئيسا الا برؤس وهى بمنزلة الشرط والمساورة
والنقاء وان يوجد فيها اعضاء كالرعية وهى قسمان ماله اتصال بالرؤساء وان لم يكن له اتصال
خدمة ومالاتصال بهم بل هو مستقل بنفسه فالاعضاء اذا بهذا التقسيم أربعة أحدها
الاعضاء الرئيسة المخدومة الثانية الاعضاء المرؤسة الخادمة الثالث الاعضاء المرؤسة بلاخدمة
الرابع الاعضاء التى ليست رئيسة ولا مرؤسة

فصل والاعضاء الرئيسة انما استخفت الرئاسة اشرفها اذ كانت هى الاصول
والمعادن والمبادئ للقوى الاولية في البدن المضطر اليها في بقاء الشخص والنوع وهى
بحسب بقاء الشخص ثلاثة القلب والكبد والدماغ وبحسب بقاء النوع أربعة الثلاثة
المذكورة والاثنان وأما القلب فهو الذى جعله الخلاق العليم قائما بأمر البدن كقيام الملك
بالرعية وهو أول عضو يتحرك في البدن وآخر عضو يسكن منه وهو مبدأ جميع الخلق وما يلحقه
من صلاح أو فساد يتأدى منه الى غيره من الاعضاء وأما الكبد فهى العضو الذى يقوم
لحفظ الحياة او كانت هى التى تخلص الاعضاء بالغذاء ليقى البدن محفوظا مأكنا بقاؤه وأما الدماغ
فهو العضو القائم بأمر الحس والادراك وتكميل الحياة اذ فيه آلات الاحساس التى بها يعرف
النافع من الضرر والملائم من المنافر صارت الحياة ناعمة صالحة متجاورة لزينة حياة النبات
وأما الاثنان فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع

فصل وأما الاعضاء الخادمة فالرئة والشرابين الحاملة المؤدية من القلب الحرارة
الغريزية والقوى والارواح الحيوانية التى بها قوام البدن فهذان خادمان القلب والمعدة
والاوردة خادمان للكبد والاوردة تنفذ الدم الغاذى والقوى الى جميع البدن والكبد خادمة
الدماغ وكذلك الاعصاب التى بها يحصل الحس والحركة والاثنان بخدمة الاعضاء المؤدية
للمنى والجماع المؤدية عنهما الى موضع التوالد

فصل وأما الاعضاء المرؤسة بلاخدمة فهى اعضاء مخصصة بقوى لها طبيعة بها
تم تدبيرها ويستقيم أمرها ولا يدفع ذلك أن يقضى عليها من الاعضاء الرئيسة قوى قدما باذن الله
تعالى كالاذن والعين والانف فان كل واحد منها يقوم بأمر نفسه بما فيه من القوة الطبيعية التى أعطاها
إياه الخالق سبحانه ولا يتم ذلك الا بأن تأتيها قوة حساسة تنزل عليها من الدماغ باذن الله تعالى

فصل وأما الاعضاء التى ليست رئيسة ولا مرؤسة فهى التى اختصت بقوى غريزية
فيها من أصل الخلقة في أول التكوين لئتم بها قوام أمرها وتدبيرها في اجاب المسائل المنافع
ودفع المضار كالعظام والغضاريف وسائر الاعضاء المتشابهة الاجزاء مثل الرباطات والاعصاب

والاوتار والشرابين والاوردة والاعشية واللحم والعظام كالاساس والاسطوانات لبناء
هيكل البدن فان قيل هل في العظام قوة الاحساس وحياته أم لا قيل هذا موضع اختلف فيه
أرباب الشريعة فيما بينهم وأرباب الطبيعة فيما بينهم فقالت طائفة لاحياة في العظام وان كان
فيها قوة النمو والاعتناء قالوا ان الحياة انما هي الروح الحيواني ولا حظ للعظام فيه قالوا
ولان مركب الحياة انما هو الدم المذيت في العروق والاعصاب واللحم ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر
نصيب من ذلك ولهذا لم يألم الانسان بأخذه قالوا فحياة العظام والشعر حيانة نمو واعتناء
وحياة اعضاء البدن حيانة نمو واحساس قالوا ولهذا قلنا ان العظام لا تنبسط بالموت ولانها
لم يكن فيها حياة نزول بالموت قالوا وزوال النمو لا يوجب نجاسة ما غرقه بدليل بيس الزرع
والشجر قال آخرون الدليل على ان العظام تحملها الحياة قوله تعالى قال من يحيي العظام
وهي رميم قل يحياها الذي أنشأها أول مرة والحس يدل على ذلك أيضا فان العظم يألم
ويضرب ويسكن وذلك نفس احساسه قالوا ولا يمكن انكار كون العظام فيها قوة حساسة
نحس بالبارد والحار قال الآخرون الاحساس والالم ليس للعظم في نفسه وانما هو لما جاوره
من اللحم قال المنازهون لهم هذا مكبرة ظاهرة فان العظم نفسه يألم ولا سيما اذا تصدع
ثم ان الانسان والاضراس نحس بالالم والحار والبارد بأنفسها لا بمجاورها من اللحم
ولهذا توسطت طائفة ثالثة وقالت عظام الاسنان خاصة لها الاحساس بخلاف
سائر العظام وهذا قد سلموا المسئلة من مكان قريب فان الذي دل على احساس
الانسان وحياته هو والدال على حياة سائر العظام والشبهة التي ذكروها لو صحت
لمنت من احساس الاسنان واما حديث الطهارة والنجاسة فذلك لامر آخر وراء الحياة
من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ومن لم ينجسها وهو الراجح في الدليل فذلك لعدم قلة
التنجيس فيها وان الموت ليس لعل النجاسة وانما هو دليل العلة وسببها والعلة هي احتقان الفضلات
في اللحم والعظم برى من ذلك والدليل على هذا ان الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النام
الذي لانفسه لعل لعل عدم احتقان الفضلات فيه فلئلا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى
فالرطوبات التي في الذباب والعقرب والخنفساء اكثر من الرطوبات

فصل في الذي احصاه المشرعون من العظام في البدن مائتان وثمانية واربعون عظما
سوى الصغار المسحبات التي أحكم بها مفاصل الاصابع التي في الخفيرة وقد أخبر النبي صلى
الله عليه وسلم أن الانسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلا فان كانت المفاصل هي العظام فقد
اعترف جالينوس وغيره بأن في البدن عظام صغار لم تدخل تحت ضبطهم واحصاؤهم وان كان
المراد بالمفاصل المواضع التي تنفصل بها الاعضاء بعضها من بعض كما قال الجوهري وغيره
المفصل واحد مفاصل الاعضاء فذلك أهم من العظام فتمأمله وان السلاميات المذكورة في
الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث ابي ذر يصبح على كل مسلم - لا من أحدكم
صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة
الحديث قال لا من العظم وجمعه سلاميات فهنا ثلاثة امور اعضاء وعظام ومفاصل وجعل
الله سبحانه العظام اصلب شيء في البدن لتكون اساسا وعمدة في البدن اذا كانت الاعضاء

كلها موضوعة على العظام حتى القلب كما سيأتي بسانه ان شاء الله تعالى وهي حاملة
للأعضاء والحامل اقوى من المحمول ولتكون وقاية وجنة ايضا كالصفيحة وقاية
الدماغ وعظام الصدر وقاية له وجعلت العظام كثيرة لفوائدها ومنافع عديدة منها الحركة
فان الانسان قد يحتاج الى حركة بعض اجزائه دون بعض وقد يحتاج الى حركة
جزء من عضو ومنها انه لو كان على عظم واحد لكان اذا اراد ان يتحرك فحرك بجملته ومنها
انه كان يتعذر عليه الصنائع والحل والربط ومنها انه اذا اصابه آفة فعمت جميع البدن فجعلت
العظام كثيرة ليكون متى نال بعضها آفة لم تنس الى غيره وقام غيره من العظام مقامه في
تحصيل تلك المنفعة ومنها تعذر المنافع التي حصلت بسبب تعدد العظام ولولا كثرتها
وتعدد الفئات تلك المنافع ومنها ان من العظام من يحتاج البدن الى كبيرة ومنها ما يحتاج
الى صغيرة ومنها ما يحتاج الى مستطيلة ومنها ما يحتاج الى مجوفة ومنها ما يحتاج الى مخبئة
ومنها ما يحتاج الى مستقيمة ولا يحصل ذلك الا بتعدد العظام ومنها ما يدبغ الصنع وحسن التأليف
والتركيب وغير ذلك من الفوائد ثم شد الخالق بعضها الى بعض بالرباطات والاسر المحكم ثم
كساها لحما حفظا لها ووقاية ثم كسى اللحم جلدا صونا له ولما كانت الفضلات تنقسم الى
طبيقة وغلظية جعل الله سبحانه للغلظية منها مجارى فتجذب فيها الى اسفل ويخرج منها
خروجا ظاهرا للحس وأما الطبقة فهي الفضلات البخارية فان من شأنها ان تصعد
الى فوق وتخرج من البدن بالتخليل جعل في العظام العليا منها منافذ يتخلل منها البخار
المتصاعد فلم تكن تلك المنافذ محسوسة لئلا يضر صوان الدماغ وهو الصفيحة بوصول
الاجسام المؤذية اليه فجعل الدماغ مركبة من عظام كثيرة ووصل بعضها ببعض بوصل
يقال لها الشؤوف ومنه قولهم فلان لم يجتمع شؤون رأسه ويشتمل الرأس بمحملة اجزائه
على تسعة وخسين عظما وجعل الصفيحة مستديرا تاما في مقدمه ومؤخره وجانبه بمنزلة
خطاه القدر وعظامه ستة وهي عظم البافوخ وعظم الجبهة وعظم مؤخر الرأس والعظمان
الذنان فيهما ثقباه السمع وفي كل واحد من الصدين عظمان مصمتان وعظام الحسى الاعلى
اربعة عشر عظما ستة منها في محاجر العينين واثنان للأنف واثنان تحت الأنف وهما المنقوبان
الى الفم واثنان في الوجنتين واثنان تحت الشفة العليا وأما العظم الشبيه بالوند فهو واحد
وهو كاتحاده للرأس وعظام الحسى الاسفل اثنان وهما متصلان في وسط الذقن وبينهما
بيان وبصلان من فوق بالحسى الاعلى اتصالا مفصليا والاسنان اثنان وثلاثون في كل
لحى ستة عشر ثقبات وتليها الرباعيات وتليها النابان وتليهما الاضراس خمسة من هنا
وخسة من هنا والنواجذ اول الاضراس وهما تاجدان في كل ناحية تاجذ وربعا نقصت
النواجذ في بعض الافراد وكان في كل جانب اربعة اضراس وقد سلم الله غذاء الانسان
الى يده فتأخذه فتسله الى شفتيه فتسله الشفتان منها فتسله الى اللسان واللسان فتنقلبه
ثم يسلمه الى الحلقوم والمرى فيسلمه ويوصله الى المعدة فتطبخه وتنضجه وتصلحه كما ينبغي ثم تسلمه الى الكبد
فتسله منها ثم يرسله الى كل عضو رائيه ومعلومه ثم تصب قربة الصفراء في المراتة

السوداء في الطحال والثفل يخرج منه كما تقدم بيانه

فصل في الرأس يقال بالعموم على ما يقوله العنق بمحمله ويقال بالخصوص على الفروة وهي جلدة الرأس حيث منبت الشعر والحجيمة العظم الذي يحوي الدماغ وهي مؤلفة من سبع قطع متقابلة تسمى القبايل وتسمى مواضع التماس كيف شؤونا ووسط الحجيمة يسمى الهامة وحدها الهامة من الجنيين قرن الرأس وحدها الهامة من المقدم اليافوخ ومن المؤخر القمعدوة وهي ما يصبب الارض من رأس المستلقي على ظهره وله ثلاث حدود نقرة الفقار والقذالان نقرة القفاحدها من آخر الوسط والقذالان جانبيا النقرة وقد تقدم تفصيل القبايل السبع وسنظهر الحجيمة عما يحيط بها السمحاق وسطها فشاونا وان احدهما يلي الحجيمة وهو اثنان وأصلبهما والاخر يكشف الدماغ ويحيط به وبخالطه ويقال لكل منهما أم الدماغ ويسميان الامان ومنه الآمة والمأمومة التي فيها ثلث الدية وهي الجراحة التي تبلغ أم الدماغ ويقال لها نجوي في الدماغ بطن وهي ثلاث بطون وبين بطني الدماغ المذنب في مؤخره ووسطه مجرى فيه قطعة من الدماغ مستطيلة شبيهة بالدودة ينسد ذلك المجرى وينفتح بها وتحت الدماغ سبلة مبسوطة مؤلفة من عروق ضواري بتولد منها روح نفساني ينفذ الى البطنين اللذين في مقدم الدماغ وفي الدماغ البركة والحوض والقمع والدودة والبطون والاعشية ومبادئ الاعصاب ويحتوي الدماغ على ثلاث خزائن ناذ بعضها الى بعض ويسمى بطونا فالاولى في مقدمه تنقسم الى قسمين والثانية في وسطه والثالثة في مؤخره وجوهر الدماغ مخي متردد الشكل كأنه زرد مجموع والروح النفساني مثبت في خلل الزرد والدماغ مقسوم في طوله لنصفين متضامين والنصف في مقدم اظهر والغشا آن يدخلان في فصول الدماغ وتزريده والصلب منهما يدخل بطونا بين جزئي البطن المقدم فيجز بينهما ونحته مصفى كالبركة تسمى المعصرة تصب في العروق الدم المنضج وتثبت في جداول تسقى البطن المقدم وتجتمع الى عرقين كبيرين يحملان الدم الى البطن الاوسط والمؤخر والبطن الاوسط كدهليز ومنفذ بين المقدم والمؤخر وسقفه معقود كالازج والدماغ موصوع طولا على زائدين الفخذين متقاربين فيمتسان ويتباعدان الى الانفراج فيفتح الدهليز ويرامى البطنان المقدم والمؤخر والجزء المؤخر أخفى تدويرا من المقدم وأصفر زردا وهو كرى الاستطالة ويستدق على التدريج حتى يسيل منه الصمغ كالجدول من العين وفي الدماغ مجريان احدهما في آخر المقدم والمؤخر في الاوسط لدفع فضوله ويجمعان عند منفذ واحد عميق اولى في الغشاء الرقيق والاخر في الغشاء الصلب يأخذ الى ضيق كالقمع ولما كان الدماغ مبدأ حركات البدن الى ارادته لم يكن بحاجة الى الحركة القوية محوط عليه بسور من عظام بخلاف المعدة والكبد والرحم وسائر آلات الغذاء فانها لما احتاجت أن تنسع وتمتلئ بالغذاء قهضت مرة بعد اخرى وأن تقصر عن الفضول فتخرجها والعظم يمنع من ذلك ويكفي فيه الفضل وحده فأحيط عليه بسور من عقل وأما الصدر فانه لما احتاج الى الوثابة بالعظام الى الحركة بالفضل الف الصدر منهما وكان البطن أوسع من الصدر لما يحق به من آلات الغذاء

والتنفس والطمحال والمري وغيرها

فصل في ما قبل الآن النظر في نفسك من رأس وانظر الى المبدأ الاول وهو النطفة التي هي قطرة مهينة ضعيفة لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف اخرجها رب الارباب من بين الصلب والترائب وكيف أوقع المحبة والالفة بين الذكور والاناث ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع ثم اسخرج النطفة من الذكر بحركة الواقع من اعماق العروق وجعلها في الرحم في قرار ممكن لا تناله يد ولا تطلع عليه شمس ولا يصيبه هواء ثم صرف تلك النطفة طورا بعد طور طبقا بعد طبق وغير ذلك مما جاء الحيض وكيف جعل سبحانه النطفة وهي بيضاء مشرقة حلقة جراء ثم جعلها مضغعة ثم قسم اجزاء المضغعة الى العظام والاعصاب والعروق والاورتار والدم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث ولو كشف لك الغطاء لرأيت الغليظ والتصوير يظهر في تلك النطفة شيئا بعد شيء من غير أن ترى المصور ولا آتته ولا قلبه فهل رأيت مصورا لا تمس آتته ولا تلاحقها ثم تأمل هذه القبة العظيمة التي قد ركبت على المنكبين وما أودع فيها من الجباب وما ركب فيها من الخزائن وأودع في تلك الخزائن من المنافع وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الاشكال والصفات والمنافع ومن الرطوبات والاعصاب والطرق والمجاري والدماغ والمناذ والقوى الباطنة من الذكر والفكر والغليظ وقوة الحفظ ففهم القوة المفكرة والذاكرة والهيبة والحفاظة وهذه القوى مودعة في خزائنها مسخرة لمصلحتها يستعملها ويستخدمها كيف أراد فتأمل كيف دور سبحانه الرأس وشق سمعه وبصره وانفه وفمه وكيف ركب كليه في بطن الام من ثلاثة وعشرين عظما وخلق تلك العظام على كفيات مختلفة وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة الهيئة الضعيفة الى العظام الصلبة الشديدة ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص بحيث حصل من مجموعها لبطلت المنفعة وفات الغرض ثم ركب بعضها من بعض بحيث حصل من مجموعها كرامة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة ولما كان الرأس اشرف الاعضاء الانسانية وأجبعها لقوى والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الالهية بأن صين بأ نواع من المصانف وذلك أن الدماغ محيطه غشاء رقيق وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر يقال له السمحاق ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية وفوق تلك الطبقة اللحمية الجمجمة الجلد ثم فوق الجلد الشعر فتحلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات كما خلق فوق الارض سبع سموات طباقا والمقصود من تخليقها الاحفاظ في صون الدماغ من الآفات والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن وهو سبحانه قسمه في طوله ثلاثة اقسام وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن الاوسط محل التأمل والتفكر والبطن الاخير محل الذكر والانساج تترجع لما كان قد نسبته ولكل واحدة من هذه الامور الثلاثة أمرهم للانسان لايده منه وانه محتاج الى التفهم والتعليم ولولم يكن حافظا لمعاني التصورات وصورها بعد غيبتها لكان اذا سمع كلمة وفهمها شذت منه عند مجئ الاخرى فلم يحصل المقصود من الفهم والافهام فجعل له ربه وقطره خزانة فحفظ له صور المعلومات حتى يجمع له وتعمى القوة التي فيها القوة الحافظة ولانهم مصطفون الانسان الانعاماته اذ ارمي شيئا ثم غاب عنه ثم رآه مرة أخرى عرف ان هذا الذي رآه الآن هو الذي

رآه قبل ذلك لانه في المرة الاولى يثبت صورته في الحفظ ثم توارى عنه بالجباب فلما رآه مرة
 ثانية صارت هذه الصورة المحصورة مطابقة للصورة المنوية التي في الذهن فحصل الجزم
 بأن هذا ذلك واولا القوة الحافظة لما حصل ذلك ولما عرف أحد أحوالها فبينه عنه ولذلك
 اذا طالت النسيبة جدا وانمحت تلك الصورة الاولى من الذهن بالكلية لم يحصل له العلم بأن هذا
 هو الذي رآه أولا الا بعد تفكر وتأمل وقد قال قوم أن محل هذه الصور النفس وقال قوم
 محلها القلب وقال قوم محلها العقل ولكل فريق منهم حجة وادلة وكل منهم أدرك شيئا وقاب
 عنه شيء اذا ادراك المذكور مفتقرا الى مجموع ذلك لا يتم الا بهو التحقيق أن منشأ ذلك ومبداه
 من القلب وفهايته ومستقره في الرأس وفي المسئلة التي اختلف فيها الفقهاء هل العقل في القلب
 أو في الدماغ على قولين حكيا روايتين عن الامام أحمد والحق في انهما هل العقل في القلب
 وينتهي الى الدماغ قال تعالى أفلم يسيرا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان
 يسمعون بها فجعل العقل في القلب كما جعل السمع بالاذن والبصر بالعين وقال تعالى ان في ذلك
 لذكرى لمن كان له قلب وقال غير واحد من السلف لمن كان له عقل واخرج آخرون بأن الرجل
 يضرب في رأسه فيزول عقله واولا أن العقل في الرأس لما زال فان السمع والبصر لا يزولان
 بضرب اليد أو الرجل ولا غيرهما من الاعضاء لعدم تعلقهما بهما وأجاب أرباب القلب عن
 هذا بأنه لا يمتنع زواله بفساد الدماغ وان كان في القلب لما بين القلب والرأس من الارتباط
 وهذا كما لا يمتنع نبات شجرة الحبة بقطع الانثيين وفساد القوة بفساد العضو فديكون لانه
 محلها وارتباط به والله أعلم وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلتها وقدرته
 وحكمته كيف ترسم صورة السموات والارض والبحار والشمس والقمر والاقاليم
 والممالك والامم في هذا المل الصغير والانسان يحفظ كتب كثيرة جدا وعلوم ما شئ
 متعددة وصنائع مختلفة فترسم كلها في هذا الجزء الصغير من غير ان يحفظ بعض هذه الصور
 بعض بل كل صورة منهم بنفسها محصلة في هذا المل وأنت لو ذهبت نقش صور اواش كاللا
 كثيرة في محل صغير لا يختلط بعضها ببعض وطمس بعضها بمضا وهذا الجزء الصغير نقش
 فيه الصور الكثيرة المختلفة والمضادة ولا يبطل منها صورة ومن اعجب الاشياء أن هذه
 القوة العاقلة تقبل ما تؤديه اليها الخواص فتجتمع فيها ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة
 الاخرى مثاله أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان وتسمع صوته فتعلم أنه هو وتلمس الشيء
 فتعرفه وتشمه فتعرف أنه هو ثم تستدل بالجميع من صوته على أنه هو الذي رأيت فيغنيك
 سماع صوته عن رؤيته ويقوم لك مقام مشاهدته ولهذا جواز اصحاب الفقهاء
 شهادة الاعمى وبيعه وشراؤه وأجهوا على جواز وطنه امرأته وهو لم يراها قط اعتمادا
 منه على الصوت بل لو كانت خرساء أجهوا وهو الحرس جازله الوط . وقد جعل الله سبحانه
 بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطا وتقوذا يقوم به بعضها مقام بعض ولهذا
 بقرن سبحانه بينهما كثيرا في كتابه كقوله ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه
 مسئولا وقوله تعالى وجعلناهم سمعا وابصارا وأعتدنا وقوله لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم
 آذان لا يسمعون بها وهذا من غياة الخلق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية لتقوم كل

حاسة منها مقام الحاسة الاخرى وتفيد قائمتها في الجملة لاني كل شيء ثم اودع سبحانه قوة التفكير وامره باستعمالها فيما يجدي عليه النفع في الدنيا والآخرة فركب القوة المفكرة شيئين من الاشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبا خاصا فيسواد من بين ذلك الشيتين شيء ثالث جدير لم يكن للعقل شعوره ولما كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الامر الثالث ومن ههنا جعل استخراج الصنيع والحرف والعلوم وبناء المدن والمساكن وامور الزراعة والفلاحة وغير ذلك فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك واستحسنه سلمته الى القوة الارادية العلمية فنقلته من ديوان الازهار الى ديوان الاعيان فكان امرا ذهنيا فصار وجوديا خارجيا ولولا الفكرة لما اهتدى الانسان الى تحصيل المصالح ودفع المفاسد وذلك من اعظم النعم وعمام العناية الالهية ولهذا لما فقد البهائم والجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا بما تمكن منه ارباب الفكر ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرا وتقديرا فيفكر في استخراج المسادة اولاهم بقدرها ويفصلها ثانيا كما يصنع الخياط بحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانيا قال تعالى عن الوحيد ذرني ومن خلقت الى قوله انه فكروا وقدر فقتل كيف قدر فكبر سبحانه انه التقدير دون التفكير وذمه عليه دونه وهذا منزل على مقتضى الحال سواء فانه بالفكر طالب لاستخراج المجهول وذلك غير مذموم فلما استخرج قدره تقديرين تقديرا كليا وجزئيا فالتقدير الكلي ان الساحر هو الذي يفرق بين المرء وزوجه والتقدير الجزئي الذي يفرق بين المرء وزوجه فهنا تقدير بعد تقدير فلهذا كره سبحانه وذمه عليه وأما التفكير فان الفكر طالب لمعرفة الشيء فلا يذم بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله الى تحقيق الباطل وابطال الحق فثأله

فصل ثم انزل الى العين وتأمل سبحانه وشكلها وخلقتها وابداع النور الباصر فيها وتركيبها من عشر طبقات وثلاث رطوبات ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص ولم يكن عليه لاختلاف المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الابصار في قدر العدسة ثم أظهر في تلك العدسة قدر السماء والارض والجبال والبحار والشمس والقمر فكيف انست تلك العدسة ان يرسم فيها ما لانسبة لها اليه البنية وجعل تلك القوة الباصرة في جزء اسود فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الاسود وجعل سبحانه الحديقة مصونة بالاجفان لتسترها وتحفظها ونصقلها وتدفع الافداء عنها وجعل شعر الاجفان اسود ليكون سواده سديلا لاجتماع النور الذي به الابصار ويكون مانعا من تفرقه ويكون ابلغ في الحسن والجمال وخلق سبحانه الحرك الحديقة أربعة وعشرين عضلة لو نقصت واحدة منهن لاخل أمر العين ولما كانت العين شيئا بالمرآة التي انما ينفع بها اذا كانت في غاية الصقالة والصفاء وجعل سبحانه الاجفان مخرجة الى الاطباق ابدأ باختيار الانسان وغير اختياره لتبقى الحديقة نقية صافية عن جميع الكدورات وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيتين اللتين تطبع فيهما صورة الاشياء الخارجة فيثأثر القلب ثم يظهر ما فيه عليهما فيثأثران به فهم امرأة لما في القلب يظهر فيهما وامرأة لما في الخارج تطبع صورته فيهما فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال

القلب من رضاه و غضبه و حبه و بغضه و تفرقه و من أعجب الأشياء ان العين من أطف
أعضاء البدن و هي لا تتأثر بالحر و البرد تأثير غير هامن الأعضاء الكشيفة و لو كان الامر طامدا الى
بجرد الطبيعة اكان ينبغي ان يكون الامر بالعكس لان الالطف أسرع تأثير انعلم ان حصول
هذه المصالح ايس هو بمجرد الطبع

❖ فصل ❖ ثم اعدل الى الاذنين و تأمل شفهها و خلفها و ابداع الرطوبة فيهما ليكونا
عونا على ادراك السمع و جعلها ممرات لتنتع الهوام عن الدخول في لاذن و حوطهما سبحانه
بصدفتين بجمعهم ان الصوت و يؤديانه الى الصمخ و جعل في الصدفتين تعويجات
لتطاول المسافة فتكسر حدة الصوت و لا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها
فينبذها فيخرجها و جعل العينين مقدمتين و الاذنين مؤخرتين لان العينين بمنزلة
الطليبة و الكاشف و الرائد الذي يتقدم القوم يكشف لهم و بمنزلة السراج الذي يضي
للسالك ما امامه و اما الاذان فيدر كان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من امامه و من خلفه
و عن جانبيه فكان جعلهما في الجانبين اعدل الامور فبهما من بهرت حكمته العقول و جعل
للعينين غطاء لان مدرك الاذن الاصوات و لابقاء لها فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت
قبل ارتفاع الغطاء فزال المنفعة المقصودة و اما مدرك العين فأمر ثابت و العين محتاجة
الى غطاء بقاءها و حصول الغطاء لا يؤثر في بعض الادراك و قال بعض أهل العلم عينا الانسان
هاديان و اذناه رسولان الى قلبه و اسنانه ترجمان و بداه جناحان و رجلاه يريدان و القلب
ملك فاذا طاب الملك طابت جنوده و اذا خبث خبثت جنوده

❖ فصل ❖ ثم نزل الى الانف و تأمل شكله و خلقه و كيف رفعه سبحانه في وسط
الوجهة بأحسن شكل و قع فيه باين و أودع فيها حاسة الشم و جعل له آلة لاستنشاق
الهواء و ادراك الروائح على اختلافها فينشق بهما الهواء البارد و الطيب فيستغنى بالمخبرين
عن قبح الفم أبدا و لولاهما لاحتاج الى قبح فيه دائما و جعل سبحانه نجويفه و اسما ليخصر
فيه الهواء و ينكسر برده قبل الوصول الى الدماغ فان الهواء المستشق يتقسم قسمين شطرا منه
وهو أكثره ينفذ الى الرئة و شطرا ينفذ الى الدماغ و لذلك بضر المزكوم استنشاق الهواء البارد
و جعل في الانف ايضا امانة على تقطيع الحروف و جعل بين المخبرين حاجزا و ذلك ابلغ
في حصول المنفعة المقصودة حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين و الاذنين و اليدين و الرجلين
و قد يصيب احد المخبرين آفة فيبقى الآخر سالما و جعل نجويفه نازلا الى أسفل ليكون مصبا
للفصلات النازلة من الدماغ و ستره بسائر أبدى لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرافق
و تأمل منفعة النفس الذي لو قطع عن الانسان لهلك وهو أربعة و عشرون ألف نفس
في اليوم و الليلة قسط كل ساعة ألف نفس و تأمل كيف يدخل الهواء في المخبرين فيكسر
برده هناك ثم يصل الى الحلقوم فيعتدل مزاجه ثم يصل الى الرئة فيصفي فيها من الغلظ و الكدرة
ثم يصل الى القلب أصفى ما كان و اعدل فيروح عنه ثم ينفذ منه الى العروق المتحركة و يتقدم
الى أقاصى أطراف البدن ثم اذا سخن جدا و خرج عن حد الانشباع به ما د عن تلك الاقاصى
الى البدن ثم الى الرئة ثم الى الحلقوم ثم الى المخبرين ثم يخرج و يعود مثله هكذا أبدا فيجمر و مع ذلك

هو النفس الواحد وقد أحصى الرب عدد هذه الانفس وجعل مقابل كل نفس منها ما شاء الله من الاحقاب في الجحيم أو في النعيم فأصفه من أضعاف ما هذ قيمته في غير شيء

فصل وهو سبحانه جعل القلب أمير البدن ومعدن الحرارة الفريزية فإذا استنشق الهواء البارد وصل الى القلب واعتدت حرارته فيبقى هناك مدة فمحض وأحرق واحتاج الى اخراجه ودفعه معه فلم يضيع أحكم الحاكمين ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة بل جعل اخراجه سببا لحدوث الصوت ثم جعل سبحانه في الخبيرة واللسان والحنك باخلافا للصوت فيحدث الحرف ثم ألهم الانسان ان يركب ذلك الحرف الى مثله ونظيره فيحدث الكلمة ثم ألهم تركيب تلك الكلمة الى مثله فيحدث الكلام فتأمل هذه الحكم الباهرة في اتصال النفس الى القلب لحفظ حياته ثم عند الحاجة الى اخراجه والاستغناء عنه جعله ميبسا له هذه المنفعة العظيمة فتبارك الله أحسن الخالقين وخلق سبحانه هذه المقاطع والخارج مختلفة الاشكال فكما لا تشابه صورتان من كل وجه بل كما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل بالقوة السامعة فيحصل الامتياز للاعوى والبصير

فصل ثم انزل الى الصدر ترى معدن العلم والحلم والوقار والسكينة والبر وأضدادها فبعد صدور العلية على بالبر والخير والعلم والاحسان وصدور السفلة على بالفجور والشرور والامانة والحسد والمكر ثم انفذ من ساحة الصدر الى مشاهدة القلب نجد ملكا عظيما جالسا على سرير مملكته يأمر وينهى ويؤلى ويعزل وقد حلف بالامراء والسو زراء والجند كلهم في خدمته ان استقام استقاموا وان زاغ زاغوا وان صح صحوا وان فسد فسدوا فعليه المعول وهو محل نظر الرب تعالى ومحل معرفته ومحبه وخشيته والذوكل عليه والابانة اليه والرضى به وعنه والعبودية عليه اولاه على رعيته وجنده تبعاً فأشرف ما في الانسان قلبه فهو العالم بالله السامع اليه المحب له وله محل الايمان والعقل وانما الجوارح اتباع نيع لقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد والراعى لرعيته والذي يصرى الى الجوارح من الطامات والمعاصي انما هي آثاره فان اظلم اظلمت الجوارح وان امتنار استنارت ومع هذا فهو بين أصبعين من اصابع الرحمن عز وجل فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذي يحول بين المرء وقلبه ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه مصرف القلوب كيف ارادو حيث اراد أوحى الى قلوب الاولياء ان أقبل الى فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين وكره عز وجل ان يبعث آخرين قبضهم وقبل اقدموا مع القاعد بن كانت اكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم لاومقلب القلوب وكان من دعائه اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك قال بعض السلف لقلب أشد قلبا من القدر اذا استجتمت خلائفها وقال آخر القلب اشد قلبا من الرشاة بأرض فلان في يوم ماصف ويطلق القلب على معنيين أحدهما امر حسي وهو العضو الحسى الصنوبرى الشكل المودع في الجانِب الأيسر من الصدر وفي باطنه نبض وفي الجهوف دم اسود وهو منبع الروح والثانى امره منسوى وهو لطيفة ربانية رجائية روحانية لها بهما العضو تعلق اختصاص وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسانية وقلب جندان

جند يرى بالابصار وجند يرى بالبصار أما جنده المشاهدة فالاعضاء الظاهرة والباطنة
 وخلقت خادمة له لا تستطيع له خلافا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر اللسان بالكلام
 تكلم وإذا أمر اليد ببطش وإذا أمر الرجل سعت وكذا جميع الاعضاء ذلت له تذليلا ولما خلق
 القلب لسفر الى الله والدار الآخرة وجعل في هذا العالم ليتزود منه افتقر الى الركب وال زاد
 لسفره الذي خلق لاجله فأعين بالاعضاء والقوى وسخرت له وأقيمت له في خدمته لتجلب له
 ما يوافق من الغداه والمنافع ويدفع عنه ما يضره ويهلكه فافتقر الى جندين باطن وهو الارادة
 والشهوة والقوى وظاهر وهو الاعضاء فخلق في القلب من الارادات والشهوات ما احتاج
 اليه وخلقت له الاعضاء التي هي آلة الارادة واحتاج لدفع المضار الى جندين باطن وهو
 الغضب الذي يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء وظاهر وهو الاعضاء التي ينفذ بها غضبه
 كالاسلحة للقتال ولا يتم ذلك الا بعمرة بما يجلب وما يدفع فأعين الجند من العلم يكشف له حقيقة
 ما ينفعه وما يضره ولا سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان اعين بجند من الملائكة
 وجعل له محل من الخلال ينفذ فيه شهوته وجعل بازائه اعداء له ينفذ بهن غضبه فما ابتلى
 بصفة من الصفات الا وجعل له مصرف ومحل تنفذها فيه فجعل لقوة الجسد فيه مصرف
 المنافسة في فعل الخير والقبطة عليه والمسابقة اليه والقوة الكبر والتكبر على اعداء الله تعالى
 واهانتهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يخال بين الصنفين في الحرب انها المشية
 بين فضائله الا في هذا الموطن وقد أمر الله سبحانه بالقلظة على اعدائه وجعل لقوة الحرص مصرفا
 وهو الحرص على ما ينفع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم احرص على ما ينفعك ولقوة
 الشهوة مصرفا وهو التزوج بأربع والتمري بأشياء ولقوة حب المال مصرفا
 وهو انفاقه في مرضاته والمتزود منه لمعاد فحبة المال على هذا الوجه لا تدم
 ولحبة الجاه مصرفا وهو استعماله في تنفيذ أوامره واقامة دينه ونصر المظلوم واغانة
 الملهوف واغانة الضعيف وقع اعداء الله فحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة
 وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا وهو لهوه مع امراته او بقومه واسهمه او تأديبه فرسه
 وكل ما امان على الحن وجعل لقوة التميل والمكر فيه مصرفا وهو التميل على عدوه
 وعدو الله تعالى بأنواع التميل حتى يراغمه ويرده خائشا ويستعمل منه من انواع المكر
 ما يستعمله عدوه معه وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه مصرفا وهو التميل على
 عدوه اعداءها وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها وانما تصرف
 بما ربه من محل الى محل ومن موضع الى موضع ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم
 شدة الحاجة اليه وعظم الانتفاع به

فصل في وجاع الطرق والابواب التي بصان منها القلب وجنوده اربعة فن ضبطها
 وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها الثلاثة بها وجوارحه ولم يثبت به عدوه وهي
 الحرص والشهوة والغضب والحسد فهذه الاربعة هي اصول مجامع طرق الشر والخير وكما
 هي طرق الى العذاب المرمدى فهي طرق الى النعيم الابدي فآدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم
 أخرج من الجنة بالحرص ثم أدخل اليها بالحرص ولكن فرق بين حرصه الاول وحرصه

الثاني وأبو الجن أخرج منها بالحسد ثم لم يوفق لمنافسة وحسد بعيدة اليها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لاحسد الا في اثنين بين رجل آناه الله مالا وسلطه على ملكته في الحق ورجل آناه الله القرآن فهو يقيم به آناه الليل وأطراف النهار وأما الغضب فهو غول العقل يقتله كما يقتل الذئب الشاة وأعظم ما يفتريه الشيطان عند غضبه وشهوته وإذا كان حرصه على ما ينفعه وحسده منافسة في الخير وغضبه لله على أعدائه وشهوته يستعمله فيما أبغجه وهو ناله على ما أمر به لم تضربه هذه الاربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع

فصل وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب فهذا يلم به مرة وهذا يلم به مرة فإذا ألم به الملك حدث من لئله الانفساح والانصراف والنور والرحمة والاخلاص والانابة ومحبة الله وإثاره على ما سواه وقصر الامل والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهني عيش وألذ وأطيبه ولكن تأتبه لمة الشيطان فتحدث له من المضيق والظلمة والهم والغم والخوف والسخط على المقدور والشك في الحق والحرص على الدنيا وما جملها والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب ثم لناس في هذه الحجة مراتب لا يحصيها الا الله فهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى فإذا ألم به الشيطان وجد من الالم والضيق والحرص وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب فيادري الى تلك اللمة ولا يدعه تسخكهم فيصعب تداركها فهو دائماً بين اللمتين يدال مرة ويدال عليه مرة أخرى والعاقبة لا تقوى ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى فلا يزال يغلب لمة الملك حتى تسخكهم ويصير الحكم لها فيؤت القلب ولا يحس ما ناله الشيطان مع أنه في غاية العذاب والضيق والحرص ولكن يكر الشهوة والغفلة بحسب عند الاحساس بذلك المعلم فإذا كشف أمكنه تدارك هذه الدواء وحسمه وان عاد الغطاء عاد الامر كما كان حتى ينكشف عنه وقت المفارقة فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والاحزان وهي لم تفسد دله وإنما كانت كأمته توارى بها الشواغل فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً ونجد دله واضعاً

فصل والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه وهي نوطان صفات وادارات فإذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك واستفحل امره ووجدته وطناً ومقراتاً في الاذكار والدعوات والتعوذات الحديث النفس لا تدفع سلطان الشيطان لان مركبه صفة لازمة فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال بقي للشيطان بالقلب خطرات ووسوس ولمات من غير استقرار وذلك يضعفه ويقوى لمة الملك فتأني الاذكار والدعوات والتعوذات فتدفعه بأسهل شيء وإذا أرادت لذلك مثلاً مطابقاً مثله مثل كلب جائع شديد الجوع وبينك وبينه لحم او خبر فهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك فانت تزجره وتصبح عليه وهو يأتي الا التهموم عليك والغارة على ما بين يديك فلا تذكر بمنزلة الصياع عليه والزجر له ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك قواك أقوى منه فانك تزجره ويصبح عليه فيذهب وكذلك القلب الخالي من قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبة وموطنة فيقع الذكر في حراسها وجوانبها ولا يقوى على اخراج العدو ومصادق

ذلك مجده في الصلاة فتأمل الحل وانظر هل تخرج الصلاة اذكراها وقرأتها الشيطان من قلبك وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيم بين يدي ربه مقلدا بكليته عليه يصلي لله تعالى كأنه برام قد اجتمع همه كله على الله وصار ذكره ومراقبته ومحبهه والانسان به في محل الخطا والوسوساوس أم لا والله المستعان وههنا نكتة ينبغي التفطن لها وهي ان القلوب المتأثرة بالاخلط الرديشة والعبادات والاذكار والتعوذات أدوية لتلك الاخلط كما يثير الدواء اخلط البدن فان كان قبل الدواء وبعدة حية لم يزد الدواء على اثاره وان ازال منه شيئا فدار الامر على شيتين الحمية واستعمال الادوية

فصل وأول ما يطرق القلب الخطرة فان دفعها استراح مما بعدها وان لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب فان يادر ودفعها والا قويت وصارت شهوة فان حالجها والا صارت ارادة فان حالجها والا صارت عزيمة وهي وصلت الى هذه الحال لم يمكن دفعها واقترن بها الفعل ولا بد وما يقدر عليه مرة مقدماته وحيدته ينتقل العلاج الى أقوى الادوية وهو الاستفراغ التام بالثوبة الصوح ولا ريب ان دفع مبادئ هذا الداء من أوله وبين استفراغه بعد حصوله وساعد القدر وأمان التوفيق ان الدفع أولى به وان تأملت النفس بفارقة المحبوب فليوازن بين فوات هذا المحبوب الاخص المقطع الكبد المشوب بالآلام والهموم وبين فوات المحبوب الاعظم الدائم الذي لانسبة لهذا المحبوب اليه أمانة لافي قدره ولا في بقاءه وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوات المحبوب الاخص وليوازن بين لذة الانابة والاقبال على الله تعالى والتشم بحبه وذكره وطاعته ولذة الاقبال على الرذائل والالتان والقبائح وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو وبين لذة الذنب ولذة العفة ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو وبين لذة الذنب ولذة ارغام عدوه ورده خاسئا ذليلا وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده فوته ومراده فوت نساء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه وبين فرحة ادراكه وفرحة تركه لله تعالى حاجلا وفرحة مايقبض عليه في دياه وآخرته والله المستعان وهذا فصل جره الكلام في قوله تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون أشرنا اليه اشارة ولو استفدنا منه لاستدعى عدة أسفار ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما ذكرناه وبالله التوفيق

فصل وانرجع الى المقصود ثم قال الله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون أما الرزق ففسر بالمطر وفسر بالجنة وفسر برزق الدنيا والاخرة ولا ريب ان المطر من الرحمة وان الجنة مستقر الرحمة فرزق الدارين في السماء التي هي العلو وقوله تعالى وما توعدون قال عطاء رضى الله عنه من الثواب والعقاب وقال الكلبي من الخير والشر وقال مجاهد الجنة والنار وقال ابن سيرين من امر الساعة قلت كون الجنة والخير في السماء فلا شكل فيه وكون النار في السماء وما يوعدون به اهلها يحتاج الى تبين فاذا نظرت الى اسباب الخير والشر واسباب دخول الجنة والنار وافترق الناس وانقسموا الى شقي وسعيد وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره النازل من السماء وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة وفي الاوح المحفوظ قبل العمل وبعدة فالامر كله من السماء وقول من قال امر الساعة يكشف عن هذا المعنى

فان امر الساعة يأتي من السماء وهو الموعود بها فاجبة والنار الغاية التي لاجلها قامت
الساعة فصيح كل ما قال السلف في ذلك والله اعلم
فصل ثم اقسام سبحانه اعظم قسم بأعظم قسم به على أجل قسم عليه واكد الاخبار
بهذا قسم ثم اكد بشبهه بالامر المحقق الذي لا يشك فيه ذواته سليمة وقال فو رب السماء
والارض انه خلق مثل ما انكم تنطقون قال ابن عباس رضي الله عنهما يريدانه خلق واقع
كما انكم تنطقون قال الفراء انه خلق كما ان آدمي ناطق قال الزجاج هذا كما تقول في الكلام
ان هذا خلق كما انك هنا قلت وفي الحديث انه خلق كما انك هنا فشبه سبحانه بتحقيق
ما أخبر به بتحقيق نطق آدمي ووجوده والواحد منا يعرف انه ناطق في ضرورة ولا
يحتاج الى نقطة استدلال على وجوده ولا يحتاج الى شك في أنه ناطق فكذلك ما أخبر الله عنه
من امر التوحيد والتبوة والمعاد واسمائه وصفاته حق ثابت في نفس الامر يشبه بثبوت
نطقكم ووجوده وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم بقول أحدهم هذا حق مثل الشمس
وافصح الشاعر عن هذا بقوله

وايسر يصح في الاذهان شيء * اذا احتاج النار الى دليل

وهنا امر ينبغي التفطن له وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به وهو اصدق الصادقين
واقسم عليه وهو أرق المقسمين واكد بشبهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه وأقام عليه
من الأدلة العينية والبرهانية ما جعله معانيها شاهداً بالبصائر وان لم يعاين بالابصار ومع ذلك
فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعمله ولا تأخذله أهبة والمستعمله الأخذله أهبة لا يعطيه
حقه منهم الا الفرد بعد الفرد ما كثرت الخلق لا ينظرون في المراد من اجتادهم واخراجهم الى
هذه الدار ولا يفكرون في قلة مقامهم في دار القرور ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها ولا الى ابن
برحلون وابن يستقرون قدم ملكهم الحس وقل نصيبهم من العقل وشملتهم الغفلة وغرتهم
الاماني التي هي كالسراب وخدمهم طول الامل وكأن المقيم لا يرحل وكأن أحدهم لا يبعث
ولا يستل وكان مع كل مقيم توقيع من الله لفلان ابن فلان بالامان من عذابه والفوز بجزيل ثوابه
فأما في القذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت حصلوها من أي وجه لاحت أخذوها
خافلين عن المطالبة آمنين من العاقبة يسعون لما يدركون ويتركون ما هم به مطالبون ويعمرون
ما هم عنه منتقلون ويخربون ما هم اليه صارتون وهم عن الآخرة هم غافلون ألهمتهم شهوات
نفوسهم فلا ينظرون في مصالحها ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها نسوا الله فأنساهم أنفسهم
اولئك هم الفاسقون والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ونحصى عليه انقامه
ومطاييل والنهار تسرع به ولا يفكر الى ابن يحمل ولا الى ابي منزل يتقل

وكيف تنام العين وهي قريبة * ولم تدرك في أي المطين تنزل

واذا نزل بأحدهم الموت قلبي لخراب ذاته وذهاب لذاته لا لما سبق من جنائاته ولا لسوء منقلبته
بعد مجاته فان خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتد العفو أو الرحمة وكان يتيقن أن ذلك
نصيبه ولا بد فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله وصار يفكره وأمعن النظر وتأمل الآيات
لفهم المراد من اجتاده وانظرت عين الراحل الى الطريق ولاخذ المسافر في التزود والمريض في

التداوى والحازم بعد ما يجوز أن يأتي فالظن بأمر متيقن كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيمانهم وكانهم
يعاينون الأمر فاضحت ربوع الايمان من أهلها حالية ومعاله على عروشها خاربة قال ابن وهب
أخبرني مسلم بن علي عن الأوزاعي قال كان السلف إذا صدع البحر أو قبله كأنهم على رؤسهم
الطير متبلين على أنفسهم حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه فلا
يزالون كذلك إلى طلوع الشمس ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيخلفون بأول ما يقتضون فيه
أمر معادهم وما هم صائرُونَ إليهم يأخذون في الفقه

فصل ومن ذلك قوله تعالى في القرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال
الكافرون هذا شيء عجيب الصحيح أنق ووص بمنزلة حم والموطس تلك حروف مقدرة
وهذه متعددة وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل وهنا قد اتحد المقسم به والمقسم
عليه وهو القرآن فأقسم بالقرآن على نبوته وصدقه وأنه حق من عنده وذلك حذف
الجواب ولم يصرح به لما في القسم من الدلالة عليه أولان المقصود نفس المقسم به كما تقدم
بيان ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجب بل بالابتغى أن يقع سواء كما قال
سبحانه الر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر
الناس وشر الذين آمنوا أن لهم قد صدق عند ربهم فأى عجب من هذا حتى يقول
الكافرون أن هذا لسحر مبين وكيف يتعجب من رجة الخالق عباده وهدايته وانعامه عليهم
بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق الخير والشر وما هم صائرُونَ إليه
بعد الموت وأمرهم ونهيمهم حتى يقابل ذلك بالتعجب ونسبة ما جاء به إلى السحر لولا غاية الجهل
والظلم بالعجب كل العجب قولهم وتكذبهم كما قال تعالى وإن تعجب فعجب قولهم

فصل ومن ذلك حم والكتاب المبين وقوله ص والقرآن ذى الذكر وقوله يس
والقرآن الحكيم المثلن المرسلين والصحيح أن يس بمنزلة حم والمليست اسماً من أسماء النبي
صلى الله عليه وسلم وأقسم سبحانه بكتبه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته فأمل
في المقسم به والمقسم عليه وقوله تعالى على صراط مستقيم وجوز فيه ثلاثان يكون خبراً
مستقيماً ما خبر عنه بأنه رسول وأنه على صراط مستقيم وإن يكون متعلقاً بالخبر نفسه
فإنه المحمول بعامله أى أرسلت على صراط وهذا يحتاج إلى بيان تقديره المجعولين على صراط
مستقيم وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره

فصل ومن ذلك قوله تعالى والصافات صفا أقسم سبحانه بالملائكة الصافات
لعبودية بين يديه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ألا تصفون كأنصف الملائكة عند ربها
تقفون الأول وتراصون في الصف وكما قالوا عن أنفسهم وأنالهن الصافات والملائكة
الصافات اجتمعن في الهواء والزاجرات الملائكة التي تزجر الصافات وغيره بأمر الله
فأنا ليات التي تلو الكلام الله وقيل الصافات الطير كما قال تعالى أولم يروا إلى الطير
فوقهم صافات يقضن وقال تعالى والطير صافات والزاجرات الآيات والكلمات
الزاجرات عن معاصي الله والتاليات الجماعات لكتاب الله تعالى وقيل الصافات لقنات
في سبيله فازجر الخليل للعمل على إعدائه فأنا ليات الذاكرين له عند ملاقة عدوهم وقيل

الجماعات الصافات أبدانها في الصلاة الزاجرات انفسها عن معاصي الله فالتاليات آياته والافظ بمحتل ذلك كله وان كان احق من دخل فيه واول الملائكة فان الانعام كالدليل والآية على صفة ما قسم عليه من التوحيد وما ذكر غير الملائكة فهو من آثار الملائكة وبوا سطنها كان واقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته والهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال ان الهكم لو احد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق من اعظم الادلة على انه اله واحد ولو كان معه اله آخر لكان الهه مشاركاله في ربوبيته كما شاركه في الهيته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذه قاعدة القرآن بقرر توحيد الالهية بتوحيد الربوبية فيقرر كونه معبودا وحده بكونه خالقا رازقا وحده وخص المشارق ههنا بالذكر اما لدلائلها على المقارب اذا الامر ان المتضايقان كل منهما يستلزم الآخر واما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الانوار واما نوطية ما ذكر بعد هاهنا من تزيين السماء بزيينة الكواكب وجعلها حفظا من كل شيطان فذكر المشارق انسب بهذا المعنى والبقى والله تعالى اعلم

فصل ومن ذلك قوله في قصة لوط عليه السلام ومراجعتة قومه له قاوا اولم ننكح من العالمين قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلمين لعمرك انهم في سكرتهم يعمهون اكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه زنا ما ان هذا قسم من الله لله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا من اعظم فضائله ان يقسم الرب عز وجل بحياته وهذه مزية لا تعرف لغيره ولم يوافق الزمخشري ذلك فصرف القسم الى انه بحياة لوط وانه من قول الملائكة فقال هو على ارادة القول أي قالت الملائكة لوط عليه الصلاة والسلام لعمرك انهم في سكرتهم يعمهون وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الامرين بل ظاهر اللفظ وصياقه انما يدل على ما فهمه

السلف أطيب لاهل التعطيل والاعتزال قال ابن عباس رضي الله عنهما لعمرك أي وحياتك قال وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره والعمر والعمر واحد لانهم خصوا القسم بالمفتوح لاثبات الاخف لكثرة دور الخلف على انفسهم وايضا فان العمر حياة مخصوصة فهو عمر شريف عظيم أهل ان يقسم لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم ولا ريب ان عمره وحياته من اعظم النعم والآيات فهو أهل ان يقسم به والقسم به اولي من القسم بغيره من المخلوقات وقوله تعالى يعمهون أي يحجرون وانما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة لان العشق سكره مثل سكرة الخمر وأنشد كما قال القائل

سكران سكر هوى وسكر مدامة * ومتى افاقة من به سكران

فصل ومن ذلك قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما اقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسما وقدا بالتقديس على عدم ايمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الاصول والفروع واحكام الشرع واحكام المعاد واثار الصفات وغير هاولم يثبت لهم الايمان بمجرد هذا الحكم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر وتشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفتح له كل الانفساح وتقبله كل القبول ولم يثبت لهم الايمان بذلك ايضا حتى يضاف اليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض فهنا قد يحكم الرجل

غيره وعنده حرج من حكمه ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم فلا يلزم من التحكيم انتفاء الحرج اذ قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والابقاء اذ قد يحكمه وينفي الحرج عنه في تحكيمه ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه والتسليم أخص من انتفاء الحرج فالخرج مانع والتسليم امر وجودي ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه اذ قد ينفي الحرج ويبقى القلب فارغاً منه ومن الرضى والتسليم فتأمله وعنده هذا يعلم ان الرب تبارك وتعالى اقم على انتفاء ايمان اكثر الخلق وعند الامتحان تعلم مثل هذه الامور الثلاثة موجودة في قلب اكثر من يدعى الاسلام ام لا والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم آخره وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

يقول الراعي من ربه حصول الاماني عبد الحميد الفردوسي المكي الانقاضي غفر الله له

ولو الدية والمسلمين واحسن اليهما واليه والمهين

قد تم بحمد الله الرحمن طبع كتاب النبيان في اقسام القرآن تأليف العلامة الحبر البحر الفهامة صاحب التأليف العديدة والتقارير المفيدة شمس الدين محمد بن ابي بكر الدهشتي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية وهو له مرمى كتاب مفيد جرى بالطبع ايم نفعه كل مستفيد في المطبعة الميرية الكائن بمكة المحمية في ظل السلطان المعظم والحاقان المعظم السلطان ابن السلطان الملك المظفر الممان المحفوظ باقرآن العظيم والسبع المثاني مولانا السلطان الفزي عبد الحميد خان الثاني اللهم انصره نصراً عزيزه الدين وتجز به وعدو كان حقاً علينا نصراً المؤمنين واحفظ اشباله الكرام ووفى عماله ووزرائه وعلماؤه اخذهم لكل خير آمين بحمد النبي الامين وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وكان ختام الطبع في الثالث

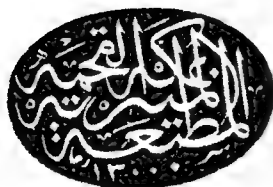
من شهر جادى الاولى من عام الواحد والعشرين والثلاثمائة والالف

من هجرة من خلقه الله على الكل وصف صلى الله عليه

وعلى آله ما طاف بالبيت العتيق طائف

ووقف بعرفة واقف

آمين



صحيحة

- ٤٨ فصل ومن ذلك قوله تعالى والنازحات غرقا
٥٢ فصل ومن ذلك قوله تعالى والمرسلات
عرفا الخ
٥٣ فصل ومن ذلك قوله تعالى لا أقسم بيوم
القيامة الخ
٥٧ فصل ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه
جمع فيها لأوليائه الخ
٥٧ فصل ومن أسرارها أنها تضمنت اثبات
قدرة الرب الخ
٥٨ فصل ومن أسرارها أنها تضمنت التأنى
والثبوت في تبيين العلم الخ
٥٨ فصل ومن أسرارها أن اثبات النبوة
والمعاد يعلم بالعقل الخ
٥٩ فصل ومن ذلك قوله تعالى كلا والقمر
والليل إذا دبر الخ
٦١ فصل وأقسامه سبحانه بالليل إذا دبر الخ
٦٢ فصل وأقسام سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة الخ
٦٣ فصل ومن ذلك قوله فلا أقسم بما تبصرون
وما لا تبصرون الخ
٦٥ فصل الأمر الثلاث ما تضمنه قوله تنزيل
من رب العالمين الخ
٧٠ فصل ومن ذلك قوله عز وجل فلا أقسم
برب المشارق الخ
٧١ فصل وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه
سبحانه على تبديلهم الخ
٧٣ فصل فلما أقام عليهم الجدة وقطع المعذرة الخ
٧٤ فصل ومن ذلك قوله تعالى ن والقلم
وما يسطرون الخ
٧٥ فصل ثم أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون الخ
٧٥ فصل والاقلام متفاوتة في الرتب الخ
٧٥ فصل القلم الثاني قلم الوحى الخ
٧٦ فصل والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله
ورسوله الخ

صحيحة

- ٣ فصل إذا عرف هذا الخ
٤ فصل وأقسام على صفة الانسان الخ
٦ فصل ومن ذلك قوله لا أقسم الخ
٧ فصل ومن ذلك قوله تعالى والشمس الخ
٨ فصل وذكر في هذه السورة ثمود الخ
١٠ فصل ومن ذلك قوله تعالى والتجبر الخ
١٢ فصل وأما سورة لا أقسم بهذا البلد الخ
١٦ فصل ومن ذلك أقسامه بالتين الخ
٢٠ فصل ومن ذلك قسمه تعالى بالليل الخ
٢٥ فصل ثم قال تعالى ان علينا الهدى الخ
٢٦ فصل ومن ذلك أقسامه سبحانه بالضحى الخ
٢٨ فصل ومن ذلك أقسامه سبحانه بالعاديات
٢٩ فصل فهذا شأن القسم وأما شأن القسم
عليه فهو حال الانسان الخ
٣٠ فصل ومفعول العلم ان علمت فيه الخ
٣٠ فصل ومن ذلك أقسامه بالعصر الخ
٣٢ فصل ومن ذلك أقسامه سبحانه بالسما
ذات البروج الخ
٣٦ فصل ومن ذلك أقسامه سبحانه بالسما
والطارق الخ
٣٧ فصل والمقسم عليه ههنا حال النفس
الانسانية الخ
٤٠ فصل ومن ذلك أقسامه بالشفق والليل
وما وقف الخ
٤١ فصل وقوله لتركن طبعا من طبقي الظاهر
أنه جواب القسم الخ
٤٢ فصل ومن ذلك قوله سبحانه فلا أقسم
بالخمس الخ
٤٣ فصل واختلف في صحة اليل الخ
٤٤ فصل ثم ذكر سبحانه القسم عليه وهو
القرآن الخ
٤٦ فصل ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه
ذكر للعالمين الخ

